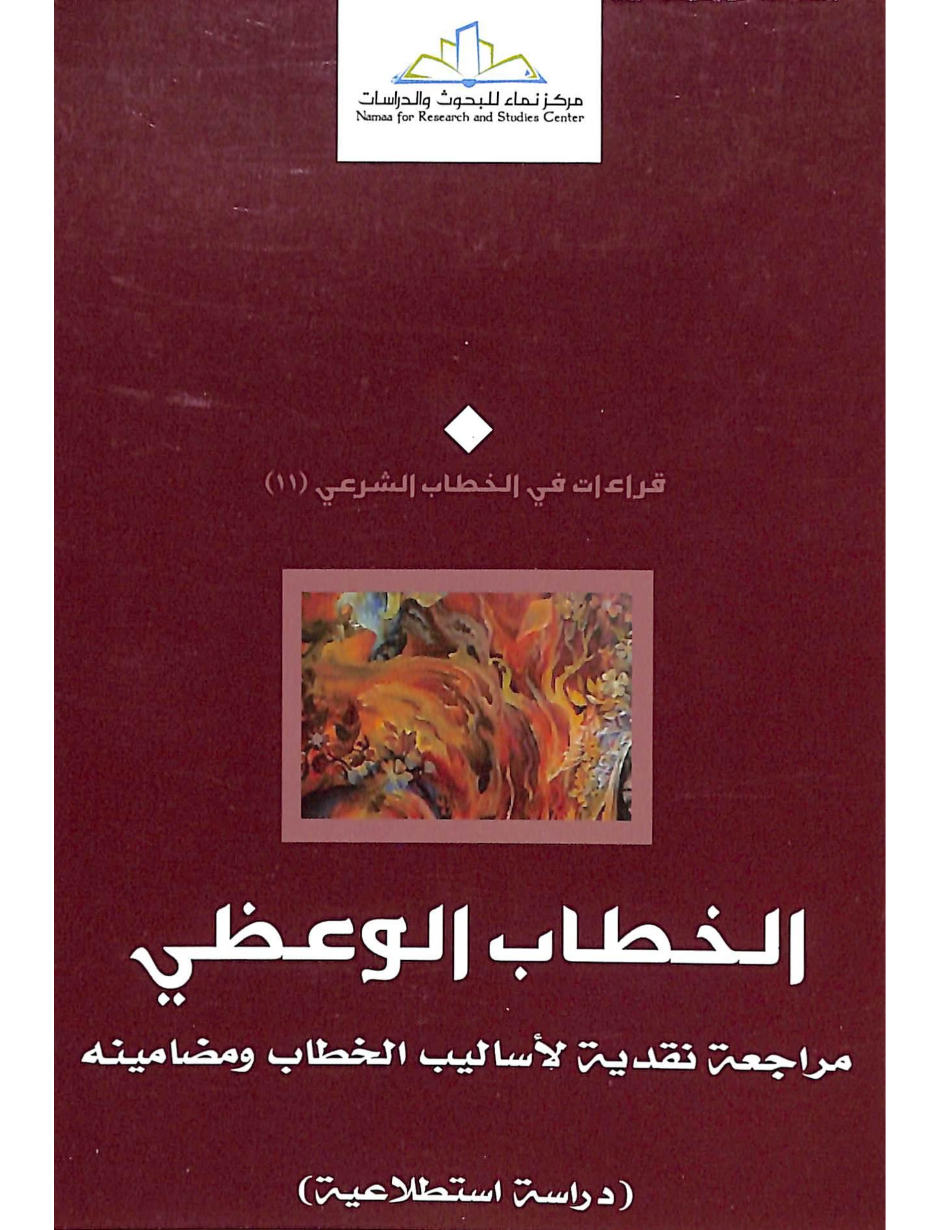


الخطاب الوعظي

مراجعة نقدية لأساليب الخطاب ومضامينه

(دراسة استطلاعية)

عبد الله بن رفود السفياني

nama-center.com

المؤلف:

- د. عبد الله بن رفود السفياني

- باحث سعودي، مهتمّ بالنقد وتجلياته في الخطاب الإسلامي.

- مدير الموسوعة العالمية للأدب العربي (أدب).

- دكتوراه في التربية الإسلامية والمقارنة، في رسالة بعنوان: (ضوابط النقد التربوي عند شيخ الإسلام ابن تيمية).

- ماجستير في التربية الإسلامية والمقارنة، في رسالة بعنوان: (تربية الإرادة في الفكر الإسلامي).

من إسهاماته المنشورة:

- حجاب الرؤية: قراءة في المؤثرات الخفية في الخطاب الفقهي، من منشورات مركز نماء.

- ضوابط في النقد: دراسة في عقل ابن تيمية النقدي.

- وأموت يا أمي وفي صدري كلام (ديوان شعري).

البريد الإلكتروني:

asufyani@hotmail.com

مركز نماء للبحوث والدراسات

مركز بحثي، يُعنى بتنمية العقل الشرعي والفكري، وتطوير خطابه وأدواته المعرفية بما يُمكِّنه من حُسن التعامل مع تراثه الإسلامي، والانفتاح الواعي على المعارف والتجارب العالمية المعاصرة.

ويسعى إلى بناء خطاب إسلامي معتدل، متصل بحركة التنمية، حسن الفهم لمحكمات الشريعة قوي الانتماء لها، قادر على الإقناع بها، ويمتلك في المساحات الاجتهادية: المرونة والمهارة والآداب الكافية، خطاب حسن الفهم للأطروحات الفكرية المعاصرة، قادر على فهمها وفحصها ونقدها.

ويُشارك المركز في صناعة القيادات الشرعية والفكرية التي تمتلك إلى جانب رصيدها الشرعي؛ أدوات المعرفة المعاصرة، ومهارات التواصل التي تُمكنها من القدرة على إيصال رسالتها على أكمل وجه ممكن.

يستهدف الباحثين وطلبة الدراسات العليا، والنخب والشباب المثقف وصناع القرار في المجال الشرعي والفكري.

يشتغل لتوصيل رسالته عبر إصدار البحوث والدراسات، والنشر الإلكتروني، وإقامة الندوات وحلقات النقاش، والتدريب، والاستشارات، والبرامج الإعلامية والإعلام الجديد.

لماذا هذا الكتاب ؟

لأن تحليل الخطاب بصفة عامة هو أحد فروع المعرفة الإنسانية التي يحتاج العقل الشرعي والفكري إلى توظيفها والانتفاع من تقنياتها؛ لتحصيل الفهم والوعي، واستخلاص وسائل التعامل والتطوير والتفاعل.

ولأن الخطاب الوعظي هو جناح التذكير والشفقة والتأثير الإيماني التثبيتي، الذي يعاضد جناح الفقه والفكر والعلم والحجاج العقلي الإقناعي التأسيسي.

ولأن الوعظ هو أحد أهم القنوات الوسيطة التي تصل بين المنتج العلمي والفقهي والفكري وبين الشرائح الواسعة من الأمم والمجتمعات.

من أجل ذلك يأتي هذا الكتاب من مركز نماء؛ والذي يُحلل فيه مؤلفه تقنيات الخطاب الوعظي ومواطن تميزه وفعاليته، ومواضع إشكاله ونقصه، وسبل تطويره والاقتراب به من الصورة الشرعية، المتناسبة مع تغير الزمان والمكان وأحوال الناس.

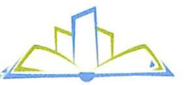
هذا البحث عن الخطاب الوعظي وأساليبه ومضامينه نقدمه نموذجًا لتحليل خطاب مركزي من الخطابات الشرعية والإسلامية؛ ونرجو أن يحرك هذا همم الباحثين لمراكمة إنتاج علمي في هذا المجال؛ فإن التراكم المعرفي النقدي كفيل بزيادة الوعي وإيجاد أرض خصبة للتطوير العملي.

مدير المركز

ياسر المطرفي



قراءات في الخطاب الشرعي (١١)



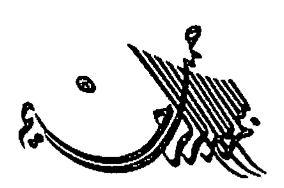


info@nama-center.com

الخطاب الوعظي

مراجعة نقدية لأساليب الخطاب ومضامينه

(دراسة استطلاعية)





الخطاب الوعظي

مراجعة نقدية لأساليب الخطاب ومضامينه
(دراسة استطلاعية)

عبد الله بن رفود السفياني



الخطاب الوعظي

مراجعة نقدية لأساليب الخطاب ومضامينه (دراسة استطلاعية)

د. عبدالله بن رفود السفياني

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٤

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن وجهة نظر مركز نماء»

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa for Research and Studies Center

بيروت - لبنان

هاتف: ٢٤٧٩٤٧ (٧١-٩٦١)

المملكة العربية السعودية - الرياض

هاتف: ٩٦٦٥٤٥٠٣٣٣٧٦

فاكس: ٩٦٦١١٤٧٠٩١٨٩

ص ب: ٢٣٠٨٢٥ الرياض ١١٣٢١

E-mail: info@nama-center.com

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز نماء للبحوث والدراسات

السفياني، عبدالله

الخطاب الوعظي، مراجعة نقدية لأساليب الخطاب ومضامينه (دراسة استطلاعية) /

د. عبد الله السفياني.

٣٥١ص؛ ١٤,٥ × ٢١,٥ سم. (قراءات في الخطاب الشرعي؛ ١١)

ببليوغرافية : ٣٤١: ٣٥١

١. الخطاب الإسلامي. ٢. الوعظ. أ. العنوان. ب. السلسلة.

ISBN 978-614-431-856-0

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مبتدأ

بسم الله ربي، عليه توكلت، وبه أعتصم، أعوذ به من شر نفسي، وشرِّ كل ذي شر، مصلياً ومسلماً على خليله حبيبنا وسيدنا رسول الله ﷺ.

يقول الجاحظ: «ينبغي لمن كتب كتاباً ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء، وكلهم عالم بالأمور، وكلهم متفرغٌ له»[1].

وأنا أقول كتبت هذا الكتاب على أن الناس لي أصدقاء وإخْوَةُ وفاء، تجمعنا الإرادة الصادقة والكلمة التي تروم العلم والعدل، وتتلمّس لها في مسالك البصيرة مسلكاً يؤويها إلى ربوة ذات قرار ومعين.

ومن الذي أمسك بالقلم فظن أن مداده سيكون نورا، وأن حرفه سيكون تِبراً، وأنّ قلوب الناس وعقولَهم ستتفتح أبوابها

(١) الجاحظ، عمرو بن بحر (١٤١٦هـ): **الحيوان**، بيروت، دار الجيل، ١/٨٨.

ليسلموا له تسليماً، وإنما هي مساحات من التفكير، ومسافات من الاجتهاد، وضروب من القول تلوذ بتوفيق الله، وتأمل في حسن الظن، وترجو أن يكون لها عند القراء مقعدُ صدق، ومبوؤ حق، وهي إلى ذلك تفتح أُفقاً من القبول والمراجعة والتصحيح وهكذا كان العلم وكانت المعرفة!

الخبر

بين يديك أيها القارئ الكريم جهدٌ بذلناه من أجل أن نسهم مع المسهمين من أبناء هذا الجيل في حراك الإصلاح وعمليات التغيير؛ لأننا ندرك تمام الإدراك أن التغير الاجتماعي والسياسي ما لم يسبقه تغير في المسار الفكري والعلمي كان أقرب إلى الفوضى منه إلى الإصلاح، ولقد صدق الغزالي حين قال: «من المألوف في تاريخ النهضات أن اليقظة العقلية تَسبق دائما النشاطَ السياسي والاجتماعي»[1].

والنهضة العقلية العلمية تسير في اتجاهين ينبغي أن يكونا على قدر كبير من التوازن والانضباط، اتجاه نحو الأمام حيث التأسيس والابتكار والإبداع والإتيان بالجديد الذي لم يسبق إليه، واتجاه آخر نحو الوراء حيث المراجعة والنقد والتصحيح.

ويتعاضد الطريقان ويتمازجان ولا يبغيان، إنها حركة

(١) الغزالي، محمد (٢٠٠٣م): كيف نفهم الإسلام؟، القاهرة، نهضة مصر، ص٤٣.

التأسيس والتصحيح، التقدم والمراجعة، البناء والتفكيك، ورغم ما فيهما من الصعوبة والمثالية التي يشتكي منها بعضنا، إلا أنها طريق العافية والسلامة والبناء والنهضة.

وفي هذا الكتاب محاولة تزعم أنها وضعت قدماً في الطريق الثاني علّها أن تصل إلى ما يمكن أن يكون بداية للقاءٍ حميم على مشارف الطريق الأول، وهي وإن سارت في ليل أليل فقد كانت تقول لها التجربة: «عند الصباح سيحمد القوم السُّرى»!

كانت البداية في أحاديث الأصدقاء والمهتمين والغيورين على واقعنا الذي نعيشه، وكيفية الخلاص والتطوير والتغيير، وقبل ذلك أين يكمن الخلل؟؛ ولأنّ الإجابة التي سَبَقَنا إليها كثير من أهل العلم والفكر والفلسفة لا يمكن أن تكون من المجمع عليه والمرضي عنه؛ لأن الخلل ليس في موضع واحد!، وطريق الخلاص ليس مخرج طوارئ منفرد، بل المواضع كثيرة، والمخارج لكل موضع ما يلائمه، وليس صحيحاً ما يدعيه كل واحد منا من أن الخلل هو ما يشير إليه، وأن الحل ليس إلا ما أضاءت له فكرتُه؛ لأن هذه السبيل ليست سبيل العلم والفكر؛ بل سبيل البناء الحجري الإسمنتي!

وعليه فكل باحث صادق هو على طريق من الطرق التي نحتاج أن نبصر فيها موضع قدم، وله علينا أن نَمُدّ له من الدعاء مداً، وأن لا نخذله وقد سمع هَيْعةً فطار إليها، ولكننا سنشاركه كما يشارُكنا النقدَ والتقويمَ والمراجعة بالعلمِ والعدل.

ومن هذه الطرق ـ التي نحن في سبيل منها، ونرى أنها كغيرها بحاجة إلى جهد الباحثين ونظر المتأملين؛ ليقدحوا في ليلها زنداً، ويرفعوا في سمائها نجماً ـ طرق الخطاب الإسلامي بكافة تنوعاته، ومن بينها بل وأهمها الخطاب الوعظي الذي اهتزت له المنابر، وكلما اهتز منبرٌ اهتزت في دواخلنا قلوب، فلانت أفئدة وذرفت عيون، ولكنه خطاب البشر الذين ما فتئوا يصيبون ويخطئون وتلك سُنَّة الله، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً!

إنه خطاب نطقت به أفواه نحسبها والله حسيبها تريد لهذه الأمة خيراً، فشمرت عن سواعد الكلمات، وامتطت صهوات الحروف تُرغّب وترهّب، تبشّر وتنذر، فنفع الله به خلقاً كثيراً، وأحيا به قلوباً كاد جفاف الحضارة المعاصرة أن يحيلها هشيماً تذروه الرياح، ومع ذلك فقد وقع هذا الخطاب في أخطاء أوقعت في مهالك وجرته إلى مسالك لا نرتضيها له ولا لغيره، اجتهاداً منا في البيان والتبيين.

ونحن وإن قدمنا نقدا وحاولنا أن نتلمس صواباً نقول به فإننا نقف دون هؤلاء الوعاظ بأقلامنا دفاعاً عن أعراضهم وحفظا لحقوقهم في وجه البغي الذي يتفوه به البغاة، ليس تعصباً لأشخاصهم ولا ضد غيرهم، ولكن حمية للحق الذي نراه ونؤمن به، والحق أحق أن يتبع.

وإلى الذين يقفون على قارعة الطريق من الذين نحبُهم ونجلّهم يرمقوننا بأبصارهم ويحذروننا من مغبة التعرض لأهل

العلم والدين من الوعاظ والخطباء، نقول لهم: على رِسْلكم، ونذكرهم بالحديث الذي يقول: «لا يمنعنّ رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه»[1].

وإن لمقالكم موقعاً عظيماً لو كان الحديث والنقد خارجاً مخرج الظلم والبغي، أو منتقصاً أحداً في ديانته ونيته، ولكننا نقول كما قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لعبيد بن عمير الواعظ: «**إياك وإملال الناس وتقنيطهم**»، وكما قال عمر الفاروق رضي الله عنه للأئمة والوعاظ: «**أيها الناس: لا تبغّضوا الله إلى عباده**».

وسترى في ثنايا الكتاب مزيداً من أقوال العلماء والفضلاء في نقدهم للوعظ والوعاظ، فما زادهم نقدهم في عيون طلاب العلم والمعرفة إلا عزاً؛ لأننا نحسبهم لم يقولوا إلا بعلم وعدل.

إننا برغم كرّ الزمان علينا وتغير أحوالنا ما زال بعضنا يجامل بعضاً، ونغطي على أخطائنا بالمعاذير، ونبرر لأنفسنا بالعلل الواهية، ونعتقد أننا بهذا الفعل نحمي الخطاب الإسلامي من غارات المغيرين وننكفئ على بعضنا، وكأننا أهل القرن الأول الذين زكاهم خير البرية.

لقد آن الأوان أن يتداعى أبناء هذه الأمة المباركة يشد بعضهم بعضا في طريقَي التأسيس والمراجعة، وبحمد الله ليس في

---

(١) الترمذي، محمد بن عيسى (د.ت): **الجامع الصحيح**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٤/ ٤٨٣، حديث رقم (٢١٩١)، أحمد بن حنبل (د.ت): **مسند الإمام أحمد**، ٣/ ٩٢، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وانظر حوله: سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني، ١/ ٢٧١.

دين الله ما نخشاه عليه منه، وكل ما نخشى هو أنفسنا على أنفسنا، فطيبوا نفسا فإن من وراء العلم البصيرة التي قال الله عنها: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]، فهي الطريق اللاحب، والدرب النير، والمستقبل الواعد.

ولن تكون البصيرة كما ينبغي، ونحن نضع على أعيننا غُلالاتٍ من الأعذار والتعليلات، بل تكون مع الصدق والحق والعدل واكتشاف الخطأ وتصحيح المسار.

والخطاب الوعظي لا يخفى على ذي بصيرة أهميته ومشروعيته؛ لأنه هو خطاب التذكير[1] يسير جنباً إلى جنب مع خطاب الفكر والإبداع، ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، مهمته أن يعيد إلى القلوب جذوتها، وإلى البصائر رؤيتها، ويربط الدنيا بالآخرة، ويقيم ميزان الأخلاق والفضائل، ويقف أمام طوفان النقائص والرذائل، وقد كان الهادي البشير يعظ صحابته الكرام متخولاً لهم فتلين قلوبهم وتذرف عيونهم من بلاغه وبلاغته ﷺ، ومن بعده كان للسف وعظهم وتذكيرهم هداية للناس وإعذاراً إلى ربهم.

ولأنه على هذا القدر من المشروعية والمكانة فقد عني به بعض أهل العلم تصنيفاً وتأليفاً، وحاولوا جهدهم أن ينقوه مما

---

(١) ولذلك كان الوعاظ يسمون بالمذكرين، وكتاب ابن الجوزي اسمه: «كتاب الوعاظ والمذكرين»، وهو إشارة مبكرة لدور الوعظ.

يلحق به من المتطفلين والمحسوبين، أو من المجتهدين المتحمسين، وما هذه الدراسة إلا محاولة لإكمال المسيرة واقتفاء الأثر.

على أننا راعينا اختلاف الزمان وسياقات العصر وتغير المجتمعات؛ لأنها معتبرة أشدُّ الاعتبار في خطاب الفقه والفتوى، وهي كذلك على قدرها وعلو شأنها في خطاب الوعظ، إذ صار من غير المقبول أن نتحدث إلى أبناء اليوم عن مشكلات الأمس، أو ننظر إليهم نظرة القدماء إلى أهل زمانهم، فهناك على خارطة الزمان وجغرافيا المكان ملابسات تتجدد، وحركة لا تتوقف، وإغفال النظر عنها يجعلنا كمن يخطب أو يعظ نهراً يجري، ظناً منه أن البقعة التي يقف أمامها هي ذاتها التي ولته ظهرها من قليل!

وقد عضدنا الكتاب بدراسة استطلاعية سعينا قدر الوسع والطاقة أن تتصف بالعلمية، جمعنا فيها آراء عينة بلغت ألفي فرد، من فئات مختلفة من المجتمع السعودي جنساً وعلماً وتخصصاً، عبر استبانة حُكّمت علمياً من متخصصين في العلوم الشرعية والتربوية والإحصاء، في ثلاثة محاور هي أساليب الخطاب الوعظي ومضامينه وممارساته، وجعلناها في ختام الدراسة عاضدة لها، كاشفة عن بعض الجوانب الإيجابية والسلبية من وجهة نظر أفراد العينة.

وفي ختام هذا المبتدأ والخبر يعجز لساني وجناني على

الثناء على الله بما أهو أهله، وبما أنعم ومنّ من بركة الوقت والجهد والتوفيق والتسديد، متزلفاً بهذا الشكر إليه أن يرزقني من العلم النافع والعمل الصالح ما يقربني إليه زلفى، وأن يريني الحق حقاً ويرزقني اتباعه، والباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه، فإنني أبرأ من الحول والقوة إلا به، ومن التوفيق إلا منه، ومن التوكل إلا عليه، هو حسبي نعم المولى ونعم النصير.

ثم أثني بالشكر على كل الأصدقاء النبلاء الذين كانوا معي بقلوبهم وأقلامهم وآرائهم لحظة بلحظة، ولهم عليّ من الفضل أيادٍ أعُدّ منها ولا أعددها، فقد أولاني كثيرٌ منهم من وقتهم وجهدهم ما ألجم لساني خجلاً، فلهم من القلب أصدق الدعوات بأن يريهم الله من أنفسهم وأهلهم ما تقرُّ به عيونهم في الدنيا والآخرة.

وإن خَصَصْتُ أحداً بالشكر والدعاء فلأخي الغالي الدكتور بندر الشهري (دكتوراه الإحصاء) على كل ما بذله في الدراسة الاستطلاعية وقد أرهقتُه من أمري عسراً، مناقشة وتحريراً، فأشرف على نتائجها واستخلاصها من برنامج التحليل الإحصائي (spss) حتى استوت على سوقها تسر الناظرين.

ولمركز نماء للبحوث والدراسات أعطر الشكر وأنبل الثناء على ترحيبهم بالفكرة ومتابعتهم لخطوات عملها، وتشجيعهم ودعمهم غير المحدود، مما جعل البحث يسير مطمئنّ الفؤاد ثابت العزم، واثقاً بالله ثم بصدق المخلصين في المركز جزاهم الله عنا خير الجزاء.

وأخيراً

الشكر كل الشكر للذين تكرموا بالإجابة على الاستفتاء الخاص بالدراسة الاستطلاعية، وسعوا في نشرها، وللقراء النبلاء الذين جادوا بمالهم ووقتهم من أجل أن يشاركونا لذة التواصل المعرفي، آملاً أن يجدوا فيه ما يليق بتوقهم، وأن يكون موضع اهتمامهم نقداً وعرضاً وتحليلاً، وسنكون لهم قلوباً مصغية من أجل أن نصل بكم ومعكم إلى رؤية أكثر إحكاماً.

وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

عبد الله بن رفود السفياني
الطائف
١٩/٣/١٤٣٥هـ
asufyani@hotmail.com
twitter:@asufyani

مدخل مفاهيمي

- مفهوم الخطاب.
- مفهوم الوعظ.
- مصطلحات شائكة.
- الخطاب الوعظي ونظرية الاتصال.
- لماذا الخطاب الوعظي؟
- لماذا ينتقصون الوعظ؟

«إن كثير الكلام يُنسي بعضه بعضاً».

[أبو بكر الصديق ﷺ]

مفهوم الخطاب

يعد مصطلح الخطاب من المصطلحات المعاصرة في الدراسات النقدية والألسنية، وصار استخدامه واسع النطاق في الدراسات العلمية والبحثية متعددة المجالات.

وفي اللغة: الخطاب مصدر الفعل خطب، يقول ابن فارس: الخاء والطاء والباء أصلان: أحدهما الكلامُ بين اثنين، يقال: خاطبهُ يُخاطِبه خِطاباً، والخُطْبة من ذلك[1].

وفي لسان العرب: الخِطابُ والمُخاطَبَة: مُراجَعَة الكَلامِ، وقد خاطَبَه بالكَلامِ مُخاطَبَةً وخِطاباً، وهُما يَتخاطَبانِ[2].

ومن الواضح هنا أن الأصل اللغوي في معنى الخطاب فيه دلالة على عملية تفاعلية في التواصل بين شخصين بينهما رسالة

(١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد (١٣٩٩هـ): **معجم مقاييس اللغة**، بيروت، دار الفكر، ١٩٨/٢.

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم (١٤١٠هـ): **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، ١/ ٣٦٠.

كلامية ملفوظة، وهو ما تشير إليه كثير من التعريفات الاصطلاحية المتأخرة في مدارس تحليل الخطاب.

ويقترب ذلك مما ذكره الكفوي في كلياته في تعريف الخطاب حيث يقول: «الخطاب: اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه، أُحترز (باللفظ) عن الحركات والإشارات المفهمة بالمواضعة، و(بالتواضع عليه) عن الألفاظ المهملة، و(بالمقصود به الإفهام) عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى خطاباً، وبقوله: (لمن هو متهيئ لفهمه) عن الكلام لمن لا يفهم كالنائم، والكلام يطلق على العبارة الدالة بالوضع، وعلى مدلولها القائم بالنفس»[1].

ومن كلام الكفوي يتضح أن الخطاب يقوم على عناصر هي:

- اللفظ.
- المخاطَب.
- المتكلم/ المخاطِب.
- القصدية في الإفهام.

وفي تعريفه إخراج لكل وجوه الإفهام الأخرى كالإشارات؛ لأنه احترز عنها بكلمة اللفظ، وهي طريقة تتبناها بعض المدارس الحديثة.

---

(١) الكفوي، أيوب بن موسى (١٤١٩هـ): الكليات، بيروت، مؤسسة الرسالة، ص٤.

وإذا أردنا أن ننقل مفهوم الخطاب في العصر الحاضر عند المدارس التي كانت مهمتها تحليل الخطاب وفق استراتيجيات قرائية، فإننا لن نقف على تحديد دقيق أو مجمع عليه بين هذه المدارس، بل سنجد إشكالات في محاور منها:

- تعريف الخطاب والمقصود به.
- التفريق بين مفهوم الخطاب ومفهوم النص.
- استراتيجيات وطرق تحليل الخطاب.

ولأن هذه الدراسة لا تُعْنى بهذه الاختلافات ولكنها تشير إليها من قبيل إحاطة القارئ بأن الدراسة تضع في حسبانها هذه الرؤى وهي تتعامل مع (الخطاب الوعظي) وتدرك جيدا هذه الملابسات وتحاول التعامل والتجاوز[١].

هذا الاضطراب في مفهوم الخطاب، ثم في مفهوم تحليل الخطاب جعل ميشيل فوكو يقرر أنه ينأى بنفسه عن إيجاد تحديد دقيق للمصطلح، ويعتقد أن بُعْدَه عن هذه العملية أفضل من السعي فيها.

«بدل أن أقلص تدريجيا من كلمة خطاب (discourse) ومالها من اضطراب وتقلب، أعتقد أنني في حقيقة الأمر أضفت لها معانٍ أخرى بمعالجتها، أحياناً كمجال عام لكل العبارات، وأحياناً كمجموعة من العبارات الخاصة، وأحياناً أخرى كممارسة

---

(١) للمزيد حول مفهوم الخطاب وتحليله وما يتعلق به من مفاهيم دلالية يمكن مطالعة معجم تحليل الخطاب من منشورات المركز الوطني للترجمة، تونس.

منظمة تفسر وتبرر العديد من العبارات»[1].

وفوكو هنا يشير إلى ما يمكن أن نسميه فتح المصطلح وتوسيعه؛ ليشمل أبعاداً جديدة مع تعدد الإضافات إليه، وهذا يزيده ثراءً واتساعاً وإن كان يلقي به في دوامة من الغموض والالتباس.

والخطاب بمفهومه المعاصر يعتني بالبعد الاجتماعي الذي يكسب العبارات والجمل الملفوظة دلالاتها الخاصة، فيعرفه مايكل شورت بأنه «اتصال لغوي يعتبر صفقة بين المتكلم والمستمع، نشاطاً متبادلاً بينهما وتتوقف صيغته على غرضه الاجتماعي»[2].

وتلقى الباحثون والدارسون العرب مصطلح الخطاب في لبوسه الغربي، وأُدْخِل ضمن الدراسات النقدية العربية الحديثة، ووقع فيه ما وقع من لبس مماثل في الدراسات الأجنبية.

وفي استخدامنا لمصطلح الخطاب هنا نود أن نشير إلى أننا سنستخدمه وفقاً لدلالة أوسع من الدلالة اللفظية؛ لتشمل الدلالة غير اللفظية لندخله في (علم الدلالة) أو ما يطلق عليه السيميولوجيا، ونقترب كثيراً من التعريف الذي اتخذه صلاح فضل حين قال عنه هو: «مجموعة من المنتجات الفكرية التي يراد

---

(١) ميلز، سارة (٢٠٠٤م): **الخطاب**، ترجمة: يوسف بغول، جامعة منتوري قسنطينة، منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، ص٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣.

إيصالها إلى متلقٍّ، عبر نصوص مكتوبة أو مسموعة أو مرئية، والتي تقدم موقفاً شمولياً أو جزئياً من قضية أو مشكلة قائمة أو مفترضة؛ أي: ما يقدم من الفكر في وجهة نظر حول موضوع ما»[1].

وهذا المفهوم لاقى وسيلاقي بعض الاعتراضات عليه، ولكنها اعتراضات لا تعنينا كثيراً في هذه الدراسة التي تركز على البحث في خطاب معين له سمات محددة إلى حد ما، يمكن رصدها وتتبعها واكتشاف الثغرات فيها.

وطريقة اختيار هذا النمط من المفهوم لا بأس به ما دام يخدم الغرض أو الحقل الذي نسير فيه، على حد قول سعيد يقطين: «لتحديد الخطاب وتحليله التحديد والتحليل المقبولين، علينا أن نحدد الاتجاه الذي ننتمي إليه، والمجال الذي نشتغل فيه، وفق أسئلة ابستيمولوجية محددة، نجيب من خلالها عن هذه الأسئلة: لماذا هذا التعريف؟ وما هي الأدوات والإجراءات المناسبة؟ إلى ماذا نبغي الوصول؟ وكيف؟»[2].

وفي تقديرنا أن هذه الطريقة هي الأنسب للخروج من خلاف المصطلحات التي لا تكاد تخلو منها المعرفة الإنسانية، وما يستتبعها من جهد ووقت وإطالة ترهق الكاتب والقارئ دون الوصول إلى نتيجة مجمع عليها ومعترف بها.

---

(١) فضل، صلاح (١٩٩٦م): **بلاغة الخطاب وعلم النص**، القاهرة، الشركة المصرية العالمية (لونجمان)، ص٣١٩.

(٢) يقطين، سعيد (٢٠٠٥م): **تحليل الخطاب الروائي**، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ص٢٦.

وما دمنا اخترنا أن **الخطاب هو كل إنتاج دلالي يقصد منه الإفهام باللغة المنطوقة وغير المنطوقة في سياق اجتماعي**، فإن الخطابات لا يمكن أن تكون حقلاً واحداً بل سنكون حتماً بين خطابات متعددة بتعدد الظروف الزمانية والمكانية والسياقات الموضوعية المختلفة؛ لذلك دنا أمام «تنوع وتعدد الخطابات الشفوية التي تمتد من المخاطبة اليومية إلى الخطبة الأكثر صنعة وزخرفة، وإلى جانب الخطابات الشفوية نجد أيضاً كتلة من الخطابات المكتوبة التي تعيد إنتاج الخطابات الشفوية، وتستعير أدوارها ومراميها من المراسلات إلى المذكرات والمسرح والكتابات التربوية»[1].

ومع هذا التنوع والتعدد في الخطابات سواء كانت عفوية أو خطابات منظمة، فإنه يمكن لنا أن نرصد سمات معينة لكل نوع، بحيث تصبح الخطابات ضمن مساقات لا تنحصر ولكنها تتحدد.

وهذا ما سنحاول أن نقوم بعمله من أجل تحديد سمات الخطاب الوعظي، بحيث يمكن من خلالها التعرف على ملامحه، بتتبع مفهومه ونماذجه تاريخياً.

وبما أن الوعظ هو خطاب من ضمن الخطابات المتنوعة في الواقع الإنساني والإسلامي على وجه الخصوص وهو منتج بشري، فإنه يعتبر بذلك لغة ودلالة خاضعة للتحليل والتأويل.

وتحليل الخطاب له اتجاهان معروفان: تحليل ينحو نحو

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

النص، ويغفل ملابسات النص الخارجية، وآخر يأخذ في حسبانه هدف النص وملابساته الخارجية.

إن تحليل الخطابات بالضرورة تحليل للغة في الاستعمال؛ لذلك لا يمكن أن نحصره في الوصف المجرد للأشكال اللغوية بعيداً عن الأغراض والوظائف التي وُضعت هذه الأشكال لتحقيقها بين الناس، وإذا كان بعضهم مهتماً بتحديد الخصائص الشكلية للغة، فإن محلل الخطاب ملزم بالبحث فيما تستعمل تلك اللغة من أجله[1].

ويشير رابح بوحوش إلى أهم القضايا التي يمكن لتحليل الخطاب أن يمارسها في قراءته ويذكر منها:

- الأمارات الدالة على اتكلم وكيفية انبجاسه اطاب.
- استكشاف هوية اخاطب.
- استكشاف موضوع اطاب.
- استكشاف مواقف اتكلم حيال خطابه الشخصي.
- استكشاف الأمارات الدالة على اكان والزمان[2].

إننا في معالجة الخطاب الوعظي نحاول توسيع دائرة القراءة وتتبع المناحي التي يمكن لها أن تضيء الطريق أمام قراءة واعية

(١) ج.ب براون، ج يول (١٩٩٧م): **تحليل الخطاب**، ترجمة: محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، الرياض، جامعة الملك سعود، ص١٠.

(٢) بوحوش، رابح (٢٠٠٦م): **الأسلوبيات وتحليل الخطاب**، الجزائر، مختبر جامعة عنابة، ص٨٥.

لواقع الخطاب وما يمكن أن تحققه هذه القراءة من مستقبل للخطاب الوعظي على أننا لن نسير كثيرا في الاتجاه الثقافي للخطاب وتتبع أنساقه الخفية، بل سنرجع إلى الرؤية الشرعية في معالجة ما نراه من ملحوظات تضر بنية الخطاب من جهة، وتضر هدف الخطاب التأثيري، وبقية عناصر الاتصال.

مفهوم الوعظ

تدور معاني اللغة لمفردة «الوعظ» ومشتقاتها حول دلالات متقاربة تتلخص في التذكير تخويفاً أو ترغيباً بما يلين القلوب من النصح والحث على الخير والتحذير من الشر.

ففي لسان العرب: «الوعظ والعظة والموعظة: النصح والتذكير بالعواقب، قال ابن سيده: هو تذكيرك للإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب»[1].

وفي معجم مقاييس اللغة: الوعظ التخويف، وعن الخليل: التَّذكير بالخير وما يرقُّ له قلبُه[2]، وفي المصباح المنير: «وعظه أمره بالطاعة ووصاه بها»[3].

وهذه المعاني اللغوية هي التي أثّرت وانتقلت إلى المعاني

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم (١٤١٠هـ): لسان العرب، ٧/٤٦٦.
(٢) ابن فارس، أبو الحسين أحمد (١٣٩٩هـ): معجم مقاييس اللغة، ٦/٩٦.
(٣) الفيومي، أحمد بن محمد (١٩٨٧م): المصباح المنير، بيروت، مكتبة لبنان، ٢/٦٦٥.

التي تعرّض لها أصحاب التعريفات الاصطلاحية، واستخدمها كذلك المفسرون في تفسير الآيات التي ورد فيها ذكر الوعظ مع مراعاتهم للسياق.

فيعرف المناوي الوعظ بقوله: «إهزاز النفس بموعود الجزاء ووعيده»[1]، وفي تعريفات الجرجاني: «الموعظة هي التي تلين القلوب القاسية، وتُدمِع العيون الجامدة، وتُصلح الأعمال الفاسدة»[2].

وابن الجوزي يعرف الوعظ بأنه «تخويف يرق له القلب»[3]، والنسفي يعرفه بأنه «خلط الرغبة بالرهبة والإنذار بالبشارة»[4].

ومن التعريفات الجيدة للوعظ تعريف محمد رشيد رضا في تفسير المنار: «الوعظ؛ أي: الوصية بالحق والخير، واجتناب الباطل والشر، بأساليب الترغيب والترهيب التي يرق لها القلب، فتبعث على الفعل والترك»[5].

---

(١) المناوي، محمد عبد الرؤوف (١٤١٠هـ): **التوقيف على مهمات التعاريف**، بيروت، دار الفكر، ١/٧٢٨.

(٢) الجرجاني، علي بن محمد (١٤٠٥هـ): **التعريفات**، بيروت، دار الكتاب العربي، ١/٣٠٥.

(٣) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤٠٩هـ): **كتاب القصاص والمذكرين**، بيروت، المكتب الإسلامي، ص١٦٢.

(٤) النسفي، عبد الله بن أحمد (١٤١١هـ): **تفسير النسفي**، بيروت، دار الكتاب العربي، ٢/٢٧٦.

(٥) رضا، محمد رشيد (١٩٩٠م): **تفسير المنار**، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١١/٣٢٨.

ويمكننا أن نضيف هنا تعريف ابن تيمية للوعظ فقد تكرر هذا التعريف في تراثه كثيراً، يقول عنه باختصار وتركيز: «الوعظ: هو الأمر والنهي؛ والترغيب والترهيب»[1]، ويتكرر بألفاظ مقاربة في كثير من كتبه ورسائله ومنه اقتبس هذا التعريف ابن القيم كذلك[2].

وتعريفه للوعظ هو بناء على استخدام القرآن له فقد ورد بمعنى الأمر كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]؛ أي: ما يؤمرون به، وبمعنى النهي كقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [النور: ١٧]؛ أي: ينهاكم الله، أما الوعاظ فإنهم ينقلون في وعظهم أمرَ الله ونهيَه، مصحوباً بالترغيب والترهيب.

ولو أمعنا النظر في هذه السياقات اللغوية أو الرؤية الاصطلاحية على تعدد من أسهم فيها[3]، أمكننا أن نمسك بثلاث سمات أولها أثر والآخران أداتان لغويتان.

---

(١) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (١٤٢٥هـ): **مجموع الفتاوى**، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ٢٠/ ٤٥.

(٢) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (١٣٩٣هـ): **مدارج السالكين**، بيروت، دار الكتاب العربي، ٣/ ١٥٧.

(٣) للاستزادة من هذه التعريفات يمكن مراجعة:
- **منهج السلف في الوعظ**، لسليمان العربي، ص٥٠ وما بعدها.
- **التربية بالموعظة الحسنة**، لحجازي، عصام حسن، رسالة ماجستير غير منشورة بجامعة أم القرى.
- **الحكمة والموعظة الحسنة وأثرهما في الدعوة إلى الله**، للمورعي، أحمد، رسالة علمية غير منشورة بجامعة أم القرى.

١ ـ الخطاب الوعظي خطاب مؤثر (يلين القلوب/يدمع العيون/ يهز النفوس..).

٢ ـ الخطاب الوعظي أمر (ترغيب).

٣ ـ الخطاب الوعظي نهي (ترهيب).

يتكون الخطاب إذاً من لغة خاصة تقوم على الأمر والنهي (الحث على الفعل أو الترك) بأساليب اللغة المباشرة وغير المباشرة في الأمر والنهي والتحذير والإغراء، وبين الأمر والنهي ارتباط وثيق فالأمر يتضمن نهيا، والنهي يتضمن أمرا، وينتج عن هذه اللغة أثر على المتلقي من خلال عملية التواصل.

لكن ينبغي أن ندرك هنا أن سمة التأثير ـ التي أشار إليها كثير من العلماء حتى عدها صاحب أضواء البيان هي ضابط الوعظ حين قال: «ضابط الوعظ: هو الكلام الذي تلين له القلوب»[1] ـ ليست هي هدف الوعظ وغايته النهائية كما قد يتوهم، حتى صار هدف كل واعظ هو إحداث هذا الأثر فيكون هدف وعظه إبكاء الناس وتخويفهم وتليين قلوبهم دون مراعاة الهدف الغائي الأكبر للوعظ، وسيأتي بيان تفصيل لهذه القضية.

وحين نريد أن نفتح الأفق بشكل أكبر لفهم طبيعة الوعظ فإن عبارة التأثير وتليين القلوب التي تكررت عند الاصطلاحيين في الوعظ ينبغي أن ينظر لها من جانب آخر، وهو كيفية حدوث هذا التأثير؟

---

(١) الشنقيطي، محمد الأمين (١٤١٥هـ): أضواء البيان، بيروت، دار الفكر، ٣/٣٤٩.

هل يحدث من خلال الأمر والنهي فقط؟ وكيف يمكن أن يكون كذلك مع أن الأمر والنهي المجردان لا يحدثان هذا الأثر ما لم يصحبهما عوامل أخرى، خاصة أنهم لا يعنون بالأمر والنهي أو الترغيب والترهيب المفهوم الأصولي أو اللغوي المباشر، بل يريدون دلالة أوسع تعني الحث والحض على فعل الشيء أو تركه، بغض النظر عن حكمه من حيث الوجوب أو الحرمة.

ومن الأسئلة المنطقية هنا لماذا آثر العلماء التعبير بالأثر مع أنه فيما يبدو أمر خارجي يظهر على مستقبلي الخطاب؟

ويمكننا أن نجيب بأمور منها:

- راعى العلماء هنا قصدية الخطاب وهو وعي مبكر بهدف ومراد الخطاب وهو ما يشكل الآن عصب الدراسات التداولية وتحليل الخطاب، وأصبح هدف الخطاب وقصديته يحدد سياقه والسمات التي يمكن أن يتذرع بها داخليا في تركيبه للوصول إلى مبتغاه.

- واستجابة لفكرة القصدية لا يمكن بحال أن نعتبر التأثير (هدف الخطاب) خارجاً عن الخطاب؛ لأن الهدف حينها هو الذي سيشكل الخطاب على صورة مخصوصة تميزه عن غيره من الخطابات، والهدف هنا في صورة مرحلية.

ولم يحدد العلماء الطرق التي يمكن أن تستخدمها لغة الخطاب لإحداث التأثير، وهذا بطبيعة الحال يلقي بالظلال على

طبيعة اللغة التي يمكن أن تحدث التأثير في العملية التواصلية اللغوية، وهل مرجع هذا التأثير يعود إلى اللغة (الرسالة) فحسب، أم ما يقترن بعملية التواصل بين الواعظ والموعوظ من ملابسات تسهم في إحداث هذا الأثر.

ويقودنا هذا بطريقة أخرى إلى تصنيفات الخطاب وأنواعه، إذْ يصنف بعض علماء اللغة والنقد الخطاب إلى: نقدي وأدبي، ويرون أن الخطاب الأدبي هو الذي يهدف إلى التعبير[1] أو التأثير، يقول عبد السلام المسدي: «إذا كانت عملية الإخبار عِلّة الحدث اللساني أساساً، فإن غائية الحدث الأدبي تكمن في تجاوز الإبلاغ إلى الإثارة»[2].

إن رائد الأسلوبية تشارلز بالي يصنف الواقع اللغوي تصنيفاً مغايراً لمن سبقه، فيرى للخطاب نوعين: خطاباً حاملاً لذاته غير مشحون البتة، وآخرَ حاملاً للعواطف والخلجات وكل الانفعالات.

يقول تشارلز بالي: «فاللغة في الواقع تكشف في كل مظاهرها وجهاً فكرياً ووجهاً عاطفياً، ويتفاوت الوجهان كثافة حسب ما للمتكلم من استعداد فطري، وحسب وسطه الاجتماعي والحالة التي يكون فيها»[3].

---

(١) بوحوش، رابح: **الأسلوبيات وتحليل الخطاب**، مرجع سابق، ص٨٨.

(٢) المسدي، عبد السلام (١٩٩٩م): **الأسلوب والأسلوبية**، بيروت، الدار العربية للكتاب، ص٣٥.

(٣) المرجع السابق، ص٤٠.

وفي منطقة التعبير والتأثير يتلاقى الخطاب الأدبي والخطاب الوعظي، رغم اختلافهما في بعض السمات والآليات، أقول رغم هذه الاختلافات إلا أن الخطاب الوعظي يخضع لكثير من أساليب اللغة الأدبية (الصور والأخيلة والمجاز والمبالغات) وغيرها من تقنيات العمل الإبداعي؛ ولذلك فإن كثيراً من الخطب والمواعظ داخلة ضمن دائرة الأعمال الفنية الأدبية؛ لما تحمله من سمات العمل الفني، وقد خضع كثير منها إلى دراسات نقدية وتحليلية كخطب النبي ﷺ، ونهج البلاغة المنسوب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه[1].

وعليه فإن الخطب والمواعظ (البليغة) هي جزء من منظومة الأدب الأكثر اتساعا لأنها تتذرع بلغة الأدب وتقنياته.

وإضافة إلى تقنيات اللغة الإبداعية فإن الموقف وتأثيراته ذو دور في إحداث التأثير الناتج عن الوعظ، خاصة تلك الصفات التي يتمتع بها الواعظ في حسن الإلقاء وجودة التعبيرات الجسدية، وحضور القلب والتفاعل مع الخطاب.

وبهذا التقرير حول مفهوم الوعظ وأنه **خطاب تأثيري مشتمل على الحث على فعل المأمورات وترك المنهيات** يتبين خطأ من فهم أن الوعظ خطاب عقلي إقناعي كقول بعضهم في تعريفه:

---

(١) اختلف فيمن جمع هذه الخطب ونسبها لعلي رضي الله عنه والمشهور أنه الشريف المرتضى وقيل: بل الشريف الرضي، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٧/٥٨٩، والقنوجي، أبجد العلوم، ٣/٦٧.

«الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدّمات مقبولة»[1].

ومن خلال المفهوم اللغوي والاصطلاحي والظلال التي تحيط بهما يمكن أن نخرج ببعض سمات الخطاب الوعظي، والتي سيأتي لها بيان وتفصيل.

---

(١) نقله الشوكاني في فتح القدير بصيغة التمريض:
ـ الشوكاني، محمد بن علي (١٤١٥هـ): فتح القدير، بيروت، دار الكتب العلمية، ٣/ ٢٠٣.

مصطلحات شائكة

(الوعاظ/القصاص/المذكرون)

هاهنا ثلاث مصطلحات تتكرر في كتب القدماء تتماس مع موضوع الوعظ وهي:

- الوعاظ.
- القصاص.
- المذكرون.

فهل هذه الألفاظ لمدلول واحد أم أن لكل واحد منها مدلوله الخاص الذي يجب مراعاته؟ الذي يظهر والله أعلم أن لكل واحد من هذه الألفاظ مدلوله الخاص حين اجتماعها، وقد أشار إلى ذلك الخطابي حين قال: «وقد قيل إن المتكلمين على الناس ثلاثة أصناف: مذكر وواعظ وقاص، فالمذكر الذي يذكر الناس آلاء الله ونعماءه، ويبعثهم به على الشكر له، والواعظ يخوفهم بالله وينذرهم عقوبته فيردعهم به عن المعاصي، والقاص

هو الذي يروي لهم أخبار الماضين ويسرد عليهم القصص»[1].

وذكر هذا ابن الجوزي أيضا فعرف التذكير بأنه تعريف الخلق نعم الله ﷻ عليهم، وحثهم على شكره وتحذيرهم من مخالفته، وأما الوعظ: فهو تخويف يرق له القلب، وأما القصّ فهو رواية أخبار الماضين[2].

وهذا التفريق الذي نراه هنا، وتناقله بعض العلماء، خاصة كلام الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، نجده في التعريف الاصطلاحي، بيد أنهم حين الرواية والحديث والاستخدام إذا كان كل واحد في سياق مستقل لا يفرقون بين هذه المصطلحات حتى تتداخل على الباحث فلا يدري أي الأنواع الثلاثة المقصود بالخبر والحديث الذي يسوقونه!

ولذلك فإن هذه المصطلحات من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت، فيدل كل واحد منها على الآخر، وقد نص على ذلك ابن الأُخوّة في كتابه أحكام الحسبة حين قال: **«والفقهاء والمتكلمون والأدباء والنحاة يسمون أهل الذكر والوعظ قُصّاصاً»**[3].

---

(١) الخطابي، أحمد بن محمد (١٣٥١هـ): معالم السنن، حلب، المطبعة العلمية، ٤/١٨٨.

(٢) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤٠٩هـ): كتاب القصاص والمذكرين، ص١٥٩.

(٣) ابن الأخوة، محمد بن محمد (د.ت): معالم القربة في أحكام الحسبة، كمبردج، دار الفنون، ص١٨٠.

وكذلك قال ابن الجوزي: «**صار كثير من الناس يطلقون على الواعظ اسم القاص، وعلى القاص اسم المذكر، ... فصار اسم القاص عاماً للأحوال الثلاثة**»[1].

وعليه فإننا نعتقد أن النقد الذي كان موجهاً من قبل بعض السلف للقصاص يدخل فيه الوعاظ والمذكرون؛ لأنهم صاروا شيئاً واحداً، ما لم يرد في السياق ما يفيد التخصيص، فالإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثلاً حين يقول: «يعجبني القصاص؛ لأنهم يذكرون الميزان وعذاب القبر»[2]، واضح أنه لا يقصد القصاص الذين يخبرون بأنباء من سبق، بل يقصد الوعاظ، ولكنه كما سبق يسميهم القصاص.

ولذلك فإن محاولة صرف انتقاد السلف للوعظ إلى القصاص ليس دقيقاً، وأن المراد بنشوء القصص وبدايته لا يراد به القصص بالمفهوم الخاص فحسب، بل يراد به بداية الوعظ كظاهرة يختص بها بعض القوم ويعرفون بها.

ومن حين ظهورها ظهر التمايز بين خطابين: خطاب الوعظ، وخطاب العلم والفقه، مما جعل بعض السلف يشتدون في النكير على الوعاظ كما سيأتي.

وتذكر كتب التراث أن أول من قص هو تميم الداري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ،

---

(١) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤٠٩هـ): **كتاب القصاص والمذكرين**، ص١٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٤.

حيث استأذن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه[1]، وقيل بل عبيد بن عمير في عهد عمر أيضاً[2].

وأياً كانت البداية فإنها كانت مشتملة للقصص بمفهومه الخاص، وبمفهومه العام الذي يعني الوعظ والتذكير، ولذلك تجد العلماء يفسرون لفظ القصّ الوارد في السُّنَّة بالوعظ والخطبة مثل حديث «**لا يقص إلا أمير أو مأمور أو مختال**»، **كما سيأتي لاحقاً.**

والذي نريد أن نصل إليه من هذا التحقيق أنك تجد من يقول إن النقد الموجه من السلف للقصاص لا يشمل الوعاظ بل يقصدون به أهل القصص والأخبار بسبب مالديهم من مخالفات، وأن الوعاظ مستثنون من ذلك! وهو كلام يفتقر إلى الدقة فكلهم مشمولون بلفظ القصاص ما لم يرد ما يصرف ذلك.

---

(1) أحمد بن حنبل (د.ت): **مسند الإمام أحمد**، ٤٨٩/٢٤، حديث رقم (١٥٧١٥).

(2) ابن سعد، محمد البصري (١٩٦٨م): **الطبقات الكبرى**، بيروت، دار صادر، ٤٦٣/٥.

الخطاب الوعظي ونظرية الاتصال

الخطاب الوعظي هو خطاب تواصلي بالدرجة الأولى وتنطبق عليه عناصر الاتصال الستة التي نقلها ياكبسون من الحقل الإعلامي إلى لحقل اللساني والنقدي، هذه العناصر الستة هي كالتالي:

المرسل والمتلقي وقناة الاتصال والرسالة، وشفرة الاتصال، والسياق. واستخلص ياكبسون من كل هذه العناصر وتفاعلاتها أن اللغة تقوم بست وظائف تلفة بناء على الهدف من هذا الاتصال، ويهمنا منها الوظيفية التي سماها الوظيفة النزوعية والتي يكون هدفها التأثير على المتلقي[1].

والمقصود بالنزوع هنا هو محاولة التأثير على المخاطبين والنزوع بهم نحو سلوك معين أو اتجاه معين، وهو حقيقة ما يمارسه الخطاب الوعظي.

---

(١) مومن، أحمد (٢٠٠٧م): اللسانيات النشأة والتطور، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ٢٠٠٧م، ص١٤٨.

وتجدر الإشارة هنا أن هذه العناصر وإدراكنا لها أو لغيرها من العناصر التي أضافها المهتمون بالاتصال اللغوي لا يعني أن الأمر مقصور عليها منفردة مستقلة، ويمكن فعلاً من خلالها إدراك العملية بسهولة، ومرجع ذلك إلى أن هذه العناصر تدخل في تفاعلات معقدة جداً، وتتأثر ببعضها تأثيرات متنوعة مما ينعكس على إنتاج الخطاب وتحقيقه لهدفه.

ولا شك أن كفاءة المتحدث (المرسل) تلعب دوراً بارزاً في تحقيق هدف الاتصال، وكذلك كفاءة المستمع (المستقبل)، وضمن إطار هذه النظرية الاتصالية نجد بعض النقاد طور وأضاف عليها ما يسهم في تحقيق هدف الاتصال، سواء كان نزوعياً تأثيرياً، أو هدفاً آخر من أهداف الاتصال، ويهمنا هنا ما أضافه (هايمس) من عناصر، حيث يرى أن هذه العناصر هي:

١ ـ المرسل: وهو المتكلم أو الكاتب الذي ينتج القول.

٢ ـ المتلقي: وهو المستمع أوالقارئ الذي يتلقّى القول.

٣ ـ الحضور: وهم مستمعون آخرون حاضرون يساهم وجودهم في تخصيص الحدث الكلامي.

٤ ـ الموضوع: وهو مدار الحدث الكلامي.

٥ ـ المقام: وهو زمان ومكان الحدث التواصلي، وكذلك العلاقات الفيزيائية بين المتفاعلين بالنظر إلى الإشارات والإيماءات وتعبيرات الوجه.

٦ ـ القناة: كيف تم التواصل بين المشاركين في الحدث الكلامي: كلام/ كتابة/ إشارة.

٧ ـ النظام: وهو اللغة أو اللهجة أو الأسلوب اللغوي المستعمل.

٨ ـ شكل الرسالة: ما هو الشكل المقصود: دردشة/ جدال/ عظة/ خرافة.

٩ ـ المفتاح: ويتضمن التقويم، هل كانت الرسالة موعظة حسنة، شرحاً مثيراً للعواطف.

١٠ ـ الغرض: أي أن ما يقصده المشاركون ينبغي أن يكون نتيجة للحدث التواصلي للموضوع: وهو مدار الحدث الكلامي[(١)].

من هذا نخلص إلى أن الخطاب الوعظي هو رسالة تواصلية تكتنفها عناصر كثيرة تحتاج إلى دراسة ورؤية نقدية لتحقيق هدفها التواصلي، والنظر في كل عنصر من هذه العناصر ما أمكن بعين البصر والبصيرة؛ لتلمس جوانب القوة في الأداء الوعظي المعاصر من جهة، وعناصر القوة في المضمون من جهة أخرى، وكذلك مراجعة السياق التاريخي للوعظ الذي خيّم بظلاله الكثيفة على الرسالة الوعظية.

---

(١) انظر: خطابي، محمد (٢٠٠٦م) **لسانيات النص**، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ص٥٣، وللمزيد انظر كذلك: بولنوار، سعد (٢٠١١م): **آليات تحليل الخطاب في تفسير أضواء البيان**، رسالة دكتوراه في قسم اللغة والأدب، جامعة قاصدي مرباح، الجزائر.

وهذا الجدول يحدد ما يمكن لنا معالجته والتطرق له في الخطاب الوعظي طبقاً لنظرية الاتصال وتحليل الخطاب:

م	العنصر	المعالجة
١	المرسل (الواعظ)	الصفات والممارسات والأدوار التي يقوم بها ودورها في وصول الرسالة وإعاقتها.
٢	المستقبل (الموعوظون)	الصفات والسمات وكيفية التأثر وطريقة الاستقبال.
٣	القناة (طريقة التوصيل)	الأساليب والأدوات والأشكال الوعظية (خطبة/ رسالة/ مطوية/ كتاب/ مسموعات/ فديو/ رسومات وصور).
٤	السياق	نقصد به السياق الخارجي وليس السياق اللغوي والمرجع الذي يتكئ عليه الوعظ والامتدادت التاريخية.
٥	المضمون	الموضوعات والأفكار ومدى صحتها وموضوعيتها.
٦	المحيط	العناصر المؤثرة في زمان الوعظ ومكانه وبيئته بجميع تجلياتها.

والمعالجة ستدور في هذا الفلك وتحاول أن تكشف بعض ملابسات هذه العناصر ومدى تكاملها في بناء خطابٍ وعظيٍ واعٍ ومواكب للتغيرات والحاجات.

أسئلة في الأساليب والممارسات ومدى موافقتها للأصل الشرعي الذي يتكئ عليه الوعظ، وأسئلة في المضامين عن مدى

صحتها وقبولها، وعدم تعارضها مع الوحي والعقل واحترامها للمتلقي.

وأسئلة في السياق التاريخي ومدى تأثيره بحمولاته الصحيحة والخاطئة على الخطاب الوعظي، وكيفية الكشف عن الأخطاء التي حذر منها العلماء قديماً، وهل ما زالت تتسلسل إلى واقعنا المعاصر؟

وأسئلة في حول جمهور المتلقين ومدى استجابتهم للخطاب الوعظي وقبولهم له وتأثرهم به، أو رفضهم ونفورهم منه، وكيفية تطوير مهارات الكشف عن نفسيات الجماهير واحترام اختلافاتهم وفئاتهم العمرية والعلمية.

وأسئلة في القنوات المستخدمة والأشكال التي يتخذها الوعظ لإيصال رسالته ومدى ملاءمتها للمحيط البيئي بشرطي الزمان والمكان، ومدى مراعاة الخطاب الوعظي لهذه الاشتراطات وإدراكه لها وللتغيرات التي تطرأ عليها، إلى غير ذلك من الأسئلة التي يحاول البحث أن يكشف عنها ويجلي إشكالاتها مساهمة منه في بناء خطاب يكون أكثر وعياً واستجابة للتحديات المعاصرة.

لماذا الخطاب الوعظي؟

هذا سؤال مشروع وعادة ما تكون إجابات هذه الأسئلة في مبررات البحث وأسباب اختيار الموضوع أو مشكلة الدراسة.

ولكنني أطرحه هنا ليس من هذا الباب فحسب وإن كان ذلك من أهم أدبيات البحث العلمي، بل لأن مناطق الخطاب الإسلامي على تنوع أطيافه وأنواعه مناطق حساسة، وما زال لدينا تحسّسٌ من نقدها وتطويرها، فتذهب بك ظنون بعضهم كل مذهب، ويتحول السؤال من سؤال عن الواقع إلى البحث في النية والإرادة.

مع أن هذا العمل النقدي للخطاب الإسلامي عمل مشروع، وفي غاية الأهمية فالنقد الذاتي والمراجعة المستمرة هي خير من يقوّم العمل، ويسير به قُدُما في مدارج الكمال البشري.

ومحبتنا لأهل الوعظ وما يقومون به من تذكير لا تمنع من قول الحق وإن أغضب بعضهم، شرط أن يكون قولاً حقاً وعدلاً،

وفي الحديث: «**لا يمنعنّ رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه**»[1]. ولعل هذا ما دعى ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أن ينقد أهل الحديث في مواضع من كتبه مع أنه أعظم من نافح عنهم، وذلك لم يمنعه من أن يقول عن بعضهم أنهم «يحتجون بأحاديث ضعيفة موضوعة في مسائل الأصول والفروع، وآثار مفتعلة، وحكايات غير صحيحة، ويذكرون من القرآن والحديث ما لا يفهمون معناه، وربما تأولوه على غير تأويله، ووضعوه في غير موضعه، ثم إنهم بهذا المنقول الضعيف، والمعقول السخيف قد يكفِّرون ويضلِّلون ويبدِّعون أقواماً من أعيان الأمة ويجهلونهم، .. وقد رأيت من هذا عجائب»[2].

ومن هذا يتبين أن النقد جزء لا يتجزأ من عملية الإصلاح التي نرومها جميعاً، ومن دون الشفافية فيه، والمصداقية في معالجته سنظل نراوح في ذات المكان.

وعودا على السؤال المطروح بعد هذه المقدمة المهمة نقول إن اختيار الخطاب الوعظي مجالاً لدراسة ناقدة يرجع إلى عدة أسباب من أهمها:

١ - لئن كان الخطاب الإسلامي (الفقهي/العقدي/

---

(١) الترمذي، محمد بن عيسى (د.ت): **الجامع الصحيح**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٤/٤٨٣، حديث رقم (٢١٩١)، أحمد بن حنبل (د.ت): **مسند الإمام أحمد**، ٣/٩٢، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وانظر حوله: سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني، ١/٢٧١.

(٢) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (١٤٢٥هـ): **مجموع الفتاوى**، ٤/٢٤.

الأخلاقي/السياسي) وغيره بحاجة إلى مراجعة نقدية، فإن الخطاب الوعظي أشدها حاجة لهذه المراجعة والقراءة، ذلك لأن كثيراً من الخطابات الدينية الأخرى كان لها قدرٌ لا بأس به من التطوير والنقد عبر تاريخها وفي العصر الراهن.

بيد أن الخطاب الوعظي لم يحظ من هذه المراجعات في هذا العصر بالقدر الكافي، والمراجعات القديمة كانت تأتي على هيئة ملاحظات وتنبيهات أو تحذيرات تصل للحدة أحياناً من الوعظ والوعاظ أو القصاص، وبعضها مشاريع نقدية تقويمية توقفت الكتابة من بعدها ككتاب ابن الجوزي القصاص والمذكرين، وكتاب السيوطي تحذير الخواص من كذب القصاص.

ومع تطور الحركة الاجتماعية والعمرانية الحضارية والدراسات على أصعدة كثيرة ظلَّ الوعظ يراوح في بنيته القديمة، وبنفس حمولات الماضي من الأخطاء التي نبه وأشار إليها جلة من أعلام السلف، سواء كانت هذه الأخطاء على مستوى الأساليب والطرائق أو في المضامين والموضوعات.

ومع كل هذا الإرث التاريخي والإنتاج الهائل المعاصر في الوعظ، لم يتعرض الخطاب لعدسة نقدية ـ فيما نعلم ـ، تحاوره وتفرز مافيه من الإيجابيات والسلبيات، بغية النهوض والتطوير والمواكبة.

٢ ـ من الأسباب المهمة الداعية إلى مراجعة الخطاب

الوعظي وتصحيحه هو كثرته الكاثرة مقارنة بغيره من الخطابات الشرعية، فهو خطاب بات يطالعك في المساجد والمنازل والمؤسسات والقنوات الفضائية والمواقع الشبكية، والجوالات وشبكات التواصل الاجتماعية، والمجالس والمناسبات، وفي كثير من الأحيان تكون الكثرة على حساب الجودة، والكم على حساب الكيف، حتى صارت ملاحقته وتقويمه من الصعوبة بمكان، خاصة مع ثورة الاتصال الشبكي وما يقذفه يومياً ألوف الرسائل الرقمية، وما فيها من أخطاء وضعف وركاكة ووضع وإشاعات وتشهير وتجييش وفتاوى بغير علم وبدع وخرافات، وإن كان بعضها بدون أدنى شك فيه حق وخير عظيم.

وهذه الكثرة في الإنتاج يرافقها ازدياد هائل في المتابعين لها، والمتأثرين بها، ونظرة في أعداد المتابعين للوعاظ على الشبكات الاجتماعية بمختلف أنواعها، يكشف هذا الإقبال الشديد على هذا النوع من الخطاب[١].

إن هذا الإنتاج الضخم من الخطاب الوعظي مع تعدد القنوات الاتصالية ليدعو الحريصين إلى ضرورة الترشيد والتصحيح، من أجل تحقيق الهدف وإدراك الإصلاح.

٣ ـ الكثرة التي أشرنا إليها سابقاً يصاحبها غياب العقلية

---

(١) في تويتر الوعاظ أكثر في عدد المتابعين من العلماء والمفكرين ونحوهم، وفي اليوتيوب تصل مشاهدات بعض المقاطع الوعظية لمئات الألوف ويمكن للباحث أن يلاحظ ذلك بجلاء.

النقدية العلمية المستقبلة، إذ الكثير من الجماهير لديها موثوقية عالية في الخطاب الديني، خاصة إذا نسب إلى رمز من الرموز، فهناك قبول شبه مطلق، وبات سؤال التثبت والتحقق تهمة تلاحقك، فإما أن تقبل وتشارك في النشر والترويج، أو تلوذ بالصمت حفاظاً على عرضك ونفسك.

هذا الغياب للعقلية الناقدة بسبب غياب ثقافة النقد والاعتماد على القبول المطلق أو الرفض المطلق، فتح المجال للانتشار الذاتي للخطاب الوعظي دون تمحيص وتثبت، فكثيراً ما تأتيك الرسائل الوعظية مذيلة بالعبارة المشهورة (انشر تؤجر)، أو السؤال بالله في عدم توقف الرسالة لديك، وتتحول العملية إلى ديناميكية وعجلة لا تتوقف عن حسن نية، ثم يكتشف بعضهم بعد مدة أن ما ساهم في نشره لم يكن سوى حديث موضوع أو فتوى خاطئة أو محض افتراء، أو قصة مكذوبة.

وهنا لا ننكر أن هناك من يحاول أن يقاوم هذه الأمواج من الوعظ غير المنضبط خاصة في المجال الإلكتروني عبر التذكير بضرورة التثبت، أو عبر نشر الأحاديث الضعيفة والموضوعة المنتشرة بين الناس للتحذير منها، أو غير ذلك من الإسهامات المشكورة رغم ضعفها وقلة حيلتها.

٤ ـ ومما يدعو إلى ضرورة المراجعة والتصحيح ما نقرؤه من تحذيرات ودعوات لضرورة التصحيح ممن لاح لهم مكمن الخطر في هذا الخطاب المائج موج البحار، وهذه التحذيرات في

صفحات الصحف وفي المواقع الإلكترونية والشبكات الاجتماعية.

ففي ملحق الرسالة بجريدة المدينة وتحت عنوان: **خطورة الخطاب الوعظي (غير المرشد) على الدين**: «لقد بات ترشيد الخطاب الوعظي ضرورة قصوى في هذا الزمن، بل منذ زمن، وكل يوم تشتد الضرورة إلى ذلك، فهو خطاب مع أهميته الكبيرة: فخطره أكبر، إذا لم يلتزم بفقه الشرع، ولم يدرك متغيرات الواقع»[١].

وتحت عنوان: **الخطاب الوعظي وأهمية المراجعة المرحلية** في صحيفة الشرق: «يبدو للمتابع الجيد أن الخطاب الوعظي الحالي بصورته الراهنة أصبح غير قادر على مسايرة المرحلة الحالية بتعقيداتها الاجتماعية، وإرهاصاتها الاقتصادية التي باتت تتحكم في عديد من التفاعلات الاجتماعية»[٢].

وفي أحد المواقع الإلكترونية وتحت عنوان: **الخطاب الوعظي ماذا بقي منه**، يختمه الكاتب بقوله: «هذه قراءة في نسق الخطاب الوعظي المعاصر، وهي قراءة تؤمن بأهميته من حيث المبدأ، لكنها تُحاول استكناه الإخفاقات التي مُني بها هذا الخطاب، فهي دعوةٌ إلى تحرر هذا الخطاب وأمثاله من التزامات

---

(١) الشريف، حاتم العوني (٢٠١٢م): خطورة الخطاب الوعظي غير المرشد على الدين، مقال منشور في صحيفة المدينة، ملحق الرسالة، الجمعة ٠٧/١٢/٢٠١٢م.

(٢) مشهور، حسن (٢٠١٣م): الخطاب الوعظي وأهمية المراجعة المرحلية، مقال منشور في صحيفة الشرق، العدد رقم (٥١٢)، صفحة (١٦) بتاريخ (٢٩ ـ ٠٤ ـ ٢٠١٣م).

الظروف والنماذج الضعيفة، ومن ثمَّ البحث عن المقومات التي تنهض بهذا الخطاب من كبوته، ليعود إلى موقعه المهم في خريطة الإصلاح»[1].

وفي موقع أنا المسلم وتحت عنوان: **إصلاح الوعظ وتجديد الخطاب الديني** يسجل الكاتب دعوة إلى ضرورة إصلاح الوعظ قائلا: «ومن الأشياء التي بات الحديث عنها ضرورياً إصلاح الوعظ وإصلاح الخطابة والخطاب، فمن المؤكد أن الخطاب المزدوج والتصريحات المتناقضة في أمور الاجتماع والسياسة التي يتورط بها بعض الدعاة، هذه التصريحات تربك الشباب وتربك الجماهير وتضعهم في حيرة، وإنه من غير المقبول أن نؤيد حدثاً ما في اندفاع عاطفي ثم ننقلب على هذا الرأي في اندفاع عاطفي أيضاً»[2].

وفي موقع إسلامي آخر دعوة تحت عنوان: **تجديد الخطاب الوعظي** يقول فيها الكاتب: «فإن حاجتنا إلى تجديد خطابنا الوعظي ماسة؛ إذ بتجديده يتجدد النشاط لدى المستمع والقارئ، وتراه في غاية التلهف لسماع الموعظة أو الخطبة... إن المتردد على حلقات ومجالس وعظ طائفة من الدعاة تصيبه الكآبة والسآمة

---

(١) الوشمي، عبد الله (د.ت): **الخطاب الوعظي ماذا بقي منه**، مقال منشور على موقع جسد الثقافة، (٧/ ٣/ ١٤٣٥هـ ـ الساعة ١١م)، على الرابط:
http://aljsad.com/forum85/thread22459/

(٢) العبدة، محمد (د.ت): إصلاح الوعظ وتجديد الخطاب الديني، مقال منسور على موقع **أنا المسلم** (١٠/ ٣/ ١٤٣٥هـ ـ الساعة ١٠ص) على الرابط:
http//www.almoslim.net/node/83990

من كثرة تردادهم لنصوص معينة، مع أنهم مثابون عليها إن أخلصوا، ولكن النفس البشرية مطبوعة على التوقان إلى كل جديد، ومن ذلك الوعظ المتجدد ملامحه ومضامينه»[1].

ولو أردنا أن نستمر في تتبع هذه الدعوات من أطياف المجتمع من مفكرين وعلماء وكتّاب عبر الصحافة أو المواقع الإلكترونية وغيرها لحصدنا الكثير من هذه الدعوات.

ومن العجيب أن الدعوة إلى ضرورة تجديد الخطاب الوعظي ليست من قبل الإسلاميين، بل حتى الأطياف الأخرى التي تنتمي إلى تيارات مغايرة تطالب بنفس المطلب وإن اختلفت الأهداف والأساليب!.

وهذه الدعوة إلى تجديد وإصلاح الخطاب الوعظي والتركيز عليه ليست بدعاً من القول لم نسبق إليها، بل هي امتداد لموقف سابق من الوعاظ بلغ في بعض الأحيان الذروة في التحذير منه ومنعه، لما لاحظ عليه بعض السلف من انحراف عن الجادة، وبعد عن العقل والفقه، حتى ألف ابن الجوزي كتابه القصاص والمذكرين محاولاً أن يختط طريقاً وسطاً بين المانعين والمحذرين والكارهين للوعاظ والقصاص وبين الداعين والمؤيدين.

وفي كتابه هذا ساقَ أخباراً كثيرة من ضمنها أخبار في النهي

---

(١) حسن، فيصل (د.ت): تجديد الخطاب الوعظي، مقال منشور على موقع رسالة الإسلام، (١٠/٣/١٤٣٥هـ - الساعة ١٠ص) على الرابط:
http://main.islammessage.com/newspage.aspx?id=2579

عن مجالس القصاص والتحذير منها وعقب بعدها رَحِمَهُ اللهُ بقوله: «قد أوضحنا في أول الكتاب فضيلة الوعظ والتذكير، ولا يخفى عموم نفعه للعوام وليس من ضرورة كونه نافعاً أن يتشاغل به الفقهاء كلهم والزهاد.

وقد ذكرنا عن أحمد بن حنبل أنه قال: ما أحوج الناس إلى قاصٍّ صدوق، وقد روينا عن الصحابة والتابعين أنهم كانوا يعظون، فبان أن من كرهه إنما كرهه لأحد الوجوه التي سبقت في أول الكتاب، ثم قد غلب على أربابه قلة العلم وعدم الإخلاص وأن يجتلبوا به الدنيا وأكثرهم ليس بفقيه، ولأن الانعكاف عليه يشغل عن مهم العلم، فمتى تخلص من هذه الآفات فهو ممدوح»[1].

ولكثرة ما شاع عن القصاص من الأحاديث الواهية والموضوعة ألف السيوطي كتابه: «تحذير الخواص من أحاديث القصاص»، بل في كتاب تلبيس إبليس لابن الجوزي كثير من النقد الذي وجهه إلى الوعاظ وما يوقعهم فيه الشيطان من استدراجات.

وعليه فإن اختيار الخطاب الوعظي ووضعه على طاولة النقد عمل مشروع له مبرراته الموضوعية في سياق تجديد الخطاب الديني، وعملية الإصلاح التي ينبغي أن تقوم على علم وحكمة، سائلين الله في ذلك المدد والعون والإخلاص.

---

(١) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤٠٩هـ): كتاب القصاص والمذكرين، ص٣٥٧.

لماذا ينتقصون الوعظ؟

المطلع على الكتابات حول الوعظ يجدها تقع في ثلاث مناطق طرفان ووسط، وأول هذه المناطق هي تلك التي ترفع من مكانة الوعظ إلى مرتبة عالية جداً، وتريد من الخطاب الديني أن يكون خطاباً وعظياً!

وأخرى تتطرف في المقابل تحط من شأنه وتزري به، وإن أرادت أن تنظر إليه بعين الاعتبار قالت هو خطاب العامة!

الطرف الأول بالغوا جداً معتبرين أن الوعظ ينبغي أن يكون هو الخطاب السائد ودعاهم إلى ذلك مواعظ النبي ﷺ لأصحابه، واعتبارهم أن القرآن كله وعظ مستندين إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٤] وفهموا منها أن القرآن كله من الوعظ الذي يدعون إليه!

والطرف الآخر النقيض انتقصوا الوعظ واعتبروه خطاباً هامشياً لا وزن له، ومن هؤلاء بعض المتفلسفة والمفكرين، واحتقارهم للوعظ ليس وليد الساعة بل منهم فئة منذ القدم ينظرون للخطاب الخطابي والبياني بانتقاص، حتى اعتبر بعض الفلاسفة القرآن من هذا القبيل، لذلك فهو لا يصلح إلا للعوام يخاطب مشاعرهم وقلوبهم، ولا يصلح لأن يكون خطاباً لأرباب العقول والحكمة زعموا!

وبين الطرفين وسط يرى أن الوعظ خطاب ديني له سياقه المهم في الدعوة إلى الله، والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مشروطاً بشروطه التي تقربه من منهج النبي ﷺ.

ولكنهم لا يرون الخطاب الوعظي هو الدين كله ولا يعتبرون القرآن وعظاً كله، بل يرون أن الشريعة والوحي خاطبا الوجدان والقلوب بخطاب الوعظ حثاً وتحذيراً وأمراً ونهياً، وخاطبا العقول بالبيان والحجة والبرهان، فلا غنى عن هذا وهذا.

فالوعظ خطاب تذكيري مهمته أن يذكّر لا أن يؤسس؛ ولذلك لا يطغى على خطاب العلم والمعرفة والعقل، بل هو خطاب لاحق يتأسس على الخطاب الأول، وعليه فإن العلماء والمفكرين وغيرهم يحتاجون إليه لأنه خطاب يذكرهم بدورهم ومسؤوليتهم تجاه العلم والمعرفة التي يحملونها.

إن الذين حطوا من شأن الوعظ هم بعض من الفلاسفة والمفكرين قديماً وحديثاً، وبلغ بأصحاب الفلسفة الحد الذي

اعتبروا فيه القرآن خطاب العامة؛ لأنه يناسب مستواهم وفيه من الأمثال ما يقرب لهم الحقائق الفلسفية العقلية التي لا يدركها إلا هم ومن أوتي صناعتهم، فهو خطاب قائم على التخييل والبيان.

فالفارابي مثلاً يجعل الفلسفة رأس العلوم، والملة والشريعة تابعة لها، ومقام الفلسفة على البرهان، وأما الشريعة والملة والقرآن فعلى التخييل بالأمثلة المحسوسة، «فأول هذه العلوم كلها هو العلم الذي يُعطي الموجودات معقولة ببراهين يقينية (يقصد الفلسفة)، وهذه الأُخَر (علوم الملة) إنما تأخذ تلك بأعيانها فتقنع فيها أو تتخيلها ليَسْهُل بذلك تعليم جمهور الأمم وأهل المدن»[1].

ويرى أن الملة متأخرة عن الفلسفة في الزمان وأن الفلسفة سابقة لها، وإنما جاءت الشريعة لتحاكي الفلسفة وتلتمس ما فيها من الحمكة والبراهين عن طريق التخييل؛ حتى تناسب جماهير العامة الذين لا يدركون إلا هذه الظواهر[2].

وابن سينا يرى: «أن الشرائع واردة لخطاب الجمهور بما يفهمون، مقرباً ما يفهمون إلى أفهامهم بالتشبيه والتمثيل، ولو كانت غير ذلك لما أغنت الشرائع البتة؛ فكيف يكون ظاهر

(١) الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد (١٩٩٨م): **تحصيل السعادة**، بيروت، دار الهلال، ص١٧٨.

(٢) الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد (١٩٩١م): **كتاب الحروف**، بيروت، دار المشرق، ص١٣١.

الشرائع حجة في هذا الباب؟!»[1].

وهؤلاء المتفلسفة وغيرهم عناهم ابن تيمية بقوله: «وليس الأمر كما يتوهمه الجهال... من كون القرآن جاء بالطريقة الخطابية وعَريَ عن البرهانية أو اشتمل على قليل منها، بل جميع ما اشتمل عليه القرآن هو الطريقة البرهانية، وتكون تارة خطابية وتارة جدلية مع كونها برهانية، والأقيسة العقلية التي اشتمل عليها القرآن هي الغاية في دعوة الخلق إلى الله كما قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: ٥٤]»[2].

بل تعدى ذلك إلى قولهم إن النبي خاطب الناس بالتخييل ليقرب المعاني لهم، وأنه لم يكن يدركها، ولا يدركها إلا أهل الفلسفة والطريقة البرهانية، «فالفلاسفة ومن وافقهم أحياناً يقولون: خاطب الجمهور بِالتخييل لم يقصد إخبارهم بالأمر على ما هو عليه، بل أخبرهم بخلاف ما الأمر عليه لِيَتَخَيَّلوا ما ينفعهم، وهذا قول من يعرف بأنه كان يعرف الحق كابن سينا وأمثاله ويقولون: الذي فعله من التخييل غاية ما يمكن»[3].

وإذا كان هذا هو موقف بعضهم من القرآن ومن نبيه ﷺ فكيف بمن هو دونه؟ فالفلاسفة يعاني بعضهم من هذا التضخم الهائل في تقييمهم لذواتهم وما يصدر عنهم من فلسفة، ومن نظرة

---

(١) ابن سينا، الحسين بن عبد الله (١٩٨٨م): **الأضحوية**، بيروت، دار المعارف، ص١٠٣.

(٢) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (١٤٢٥هـ): **مجموع الفتاوى**، ٢/ ٤٦.

(٣) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (١٤٢٥هـ): **مجموع الفتاوى**، ١٦/ ٤٤٠.

دونية لغيرهم باعتبارهم النخبة المصطفاه من المجتمع، وأن ما يمتلكونه من العلم والحكمة/الفلسفة هي من العلم المضنون به على غير أهله، ولذلك جعلهم أفلاطون على قمة هرم مدينته الفاضلة، والراغب الأصفهاني له عبارة تشير إلى هذه النظرة الدونية يقول فيها: «لا يصلح الحكيم لوعظ العامة لا لنقص فيه، بل لنقص في العامة فلن ترى الشمس أبصار الخفافيش، وبين الحكيم والعامي من تنافي طبعيهما وتنافر شكليهما من التنافر كما بين الماء والنار والليل والنهار»[1].

ولا زالت نزعة الأنا ممتدة بهم إلى وقتنا الحاضر فتجد بعضاً من كتابات الذين يتعاطون الطرح الفكري والفلسفي لا تخلو من همز ولمز للوعظ والوعاظ، بل للثقافة الإسلامية والعربية التي يعدونها ثقافة وعظ عاطفي، لا تقدم للعقل ما يثريه ويفجر طاقاته!

يصور هذه الذات المتضخمة زكريا إبراهيم فيقول في مشكلة الفلسفة: «ألم يشعر كل من ديكارت واسبينوزا وكانت وهيجل وهوسرل وغيرهم، أن الفلسفة بأسرها قد بدأت على يديه، وكأن لم تكن من قبله فلسفة، أو كأنما قد أعاد بناء كل شيء من جديد... فهل نقول إن الفلاسفة عناكب سامّة يحيا كل منها داخل خيوطه الخاصة، ولا يقرب الواحد منها غيره إلا لمهاجمته والاعتداء عليه، ... الواقع إن الأنانية الفلسفية كثيراً ما تستبد

---

(١) نقلها عنه: المناوي، محمد بن علي (١٤١٥هـ): فيض القدير، بيروت، دار الكتب العلمية، ٦/ ٥٨٧.

بالمفكرين فنرى الواحد منهم يتحدث عن محاولاته الفكرية بقوله (فلسفتي) أو (مذهبي)، وكأنما هو يملك فلسفة أو مذهباً كما يملك المرء بيتاً أو سيارة أو قطعة من الأرض»[1].

إننا هنا لا نريد أن ننتقل كخصوم للفلاسفة والمفكرين بسبب موقف بعضهم من الوعظ فالفلاسفة والمفكرون لهم موقعهم الكبير على خارطة الثقافة ولا يمكن لردّات الأفعال أن تجعلنا نبخسهم حقهم إطلاقاً!

إن من أهم ما أخرج هذه الظاهرة في الطرح الفلسفي في الوقت الراهن هي النخبوية التي تحاصر بعضاً من رموز الفكر والثقافة، وهو وهمٌ قاتل بحق، ولم يدم طويلاً حيث انقلب السحر على الساحر فعاد المثقفون يلمز بعضهم بعضاً، ويتنادون إلى زمن موت المثقف وانتهاء النخبة، حتى سجّل صاحب كتاب (مجتمع النخبة) في آخر كتابه ما يلي: «النتيجة الأخيرة التي نريد أن نخلص إليها هي أن التحرر عقلياً كان أم مادياً، وبصرف النظر عن الإيديولوجية التي يمتشقها والراية التي يرفعها، لا يمكن أن يتحقق ضد الشعب وإنما معه، وبقدر ما يكون له لا عنه، وكل ما عدا ذلك هو عودة مقنعة للقرون الوسطى، ولعقلية النخبة الاجتماعية الملهمة والمعصومة التي تضع نفسها فوق الجماعة، بل بديلاً عنها»[2].

(١) إبراهيم، زكريا (١٩٧٩م): مشكلة الفلسفة، القاهرة، مكتبة مصر، ص١٩.

(٢) غليون، برهان (١٩٨٦م): مجتمع النخبة، بيروت، معهد الإنماء العربي، ص٣١٤.

أما عبد الإله بلقزيز في كتابه نهاية الداعية ويقصد بذلك المثقف فإنه يشخص البلايا والأمراض التي يعاني منها المثقفون، فكان من أبرزها النرجسية الثقافية والساديا الثقافية. . . إلخ، ثم يرى أنها تتلخص في الاستعلاء الذاتي الراجع إلى الوهم بامتلاك كل الحقيقة، انطلاقاً من نخبوية الدور المعرفي الذي هو في حيازة المثقفين، أو تتلخص في الاحتقار الذاتي إذ يرى المثقف في ذاته عديم الجدوى في مجتمع الأمية والتأخر[١].

وما يهم هنا هو التأكيد على أن النظرة التي نجدها عند بعض من يسمون بالنخبة المثقفة نظرة دونية قد يكون سببها نفسي استعلائي، وساهم فيها بعض الأخطاء التي يقع فيها الوعاظ.

وهذا التقرير لا يجعلنا ننحاز إلى طائفة الوعاظ على حساب المثقفين والمفكرين، ولكن هذه الأخطاء لا تبرر أبداً التنكر لهذا الخطاب ودوره وأهميته التي سوف نعرض لها، فلقد وقف هذا الخطاب على ما فيه من ملحوظات أمام المدّ الماديّ الهائل وأمام تيارات المجون والانحلال والترف التي اكتسحت العالم الإسلامي منذ فترة مبكرة، وحفظ قدراً من بقايا الروح لهذه الأمة وإن شابته الشوائب.

إن خطاب الوعظ فعلاً خطاب يؤثر في العامة ويستجيبون له باعتباره الأقرب إلى أفهامهم وأذواقهم، ولكن على أهل الثقافة

---

(١) بلقزيز، عبد الإله (٢٠٠٠م): نهاية الداعية، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ص١٠٧.

أن يتطامنوا قليلاً وينظروا إلى دواخلهم الروحية وحاجتها إلى ما يحرك إنسانيتها، ويثير مشاعرها أمام هذا الجمود المعرفي الصامت!

إننا فعلاً بحاجة إلى خطاب وعظي متزن وتعود هذه الحاجة إلى سببين رئسين هما:

- طوفان المادة الذي يجتاح العالم، ويسلب الروحَ بريقَها وتوهّجها، حتى أضحى من المهم التنادي إلى خطاب روحي شرعي ينزع بهذه النفس إلى الفضائل قبل أن تغرق في رمال الصحراء المادية التي زحفت عليها.
- جمود المعرفة وصمتها القاتل، فنحن أمام قدر هائل من المعرفة الرقمية وغير الرقمية تتسم بالجمود والعقلانية المتصلبة التي تختفي فيها ملامح الروح وحياتها التي هي مكون أساس في إنسانية الإنسان، بل وصل الحال ببعض المدارس التجريبية في العلوم الإنسانية إلى إخضاع الظاهرة الإنسانية إلى التجريب، ودخول المختبر ليصبح معادلة من المعادلات الجبرية المصمتة!

«إن العلماء والمفكرين وطلبة العلم أحوج ما يكونون إلى الموعظة، فهي تهذيب للنفس، وترويض لكبريائها وشططها، تدفع المرء للتجرد في البحث عن الحق، والصدق في التماس الدليل الصحيح، وفي الترجيح بين الأقوال، فلا يتيه به الهوى في

دركات التعصب والاعتداد بالنفس وبطر الحق، خاصة في زمن الفتن»[1].

وهذا الحاجة للوعظ أمام سخرية المثقفين يكشفها ابن عقيل الظاهري بقوله: «وليس من شرط السّمو الفكريّ الاستعلاء على الوعظ، وإنّما يستعلي على الوعظ ذوو الأميّة الثّقافيّة الذين يرفضون مثل هذه الكتب قراءة وسماعاً؛ لأنّ الوعظ للأميّين، ونحن في عصر النّور والعلم!

والقلوب أجدبت بلا ريب، ولكنّني أخشى أن تموت إن استمرأت هذا الاستعلاء الإراديّ، وشغرت أرفف المثقّفين من نفائس هذه الكتب، وإنّني أبرهن للنّاس على أنّ الوعظ ـ إذا صحّ مضمونه شرعاً ـ مطلب لكلّ فكريّ طليعيّ فضلاً عن الفكر الأميّ، وذلك لأمور:

أوّلها: أنّ الوعظ لا يأتي لتأسيس الحقائق، ولكنّه يأتي للتّذكير بالحقيقة المنسيّة، ولهذا كانت الذّكرى تنفع المؤمنين.

ثانيها: أنّ الفكر الطّليعيّ يستعلي بحريّة فكره، ثم يذعن بعد ذلك لإيجابيّة فكره! ولا معنى لحريّة الفكر غير الالتزام بالحصيلة الفكريّة، ولا قيمة لإيجابيّة الفكر ما لم تتحوّل عقيدة في القلب، تفرض السّلوك وتوجّهه؛ ولهذا يأتي الوعظ لاستجاشة القلب وتذكيره بإيجابيّة فكره.

---

(١) الصويان، أحمد عبد الرحمٰن (١٤٢٤هـ): **الافتقار إلى الله لب العبودية**، كتاب مجلة البيان، لندن، المنتدى الإسلامي، ص١٠.

وثالثها: أنّ العقل من المواهب المخلوقة، ولكنّه ليس الوحيد في مملكة الإنسان، فهناك الرّوح والوعي والمشاعر، ولا يعمر هذه المواهب غير الوعظ»[1].

هكذا هي النفس الإنسانية بحاجة إلى خطاب العقل والبرهان؛ ولكنها كذلك لا تنفك عن مشاعرها وعواطفها، لذلك وجدنا القرآن على جلالة قدره وعظيم منزلته جاء بالموعظة ضمن خطابه المعجز، وجمع بين خطاب العقل وخطاب الوجدان بما يحقق التوازن بين الروح والعقل يقول محمد عبد الله دراز: «وفي النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير، وقوة وجدان، فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معا... وذلك ما لا تظفر به في كلام بشر، ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية.

فمن لك إذاً بهذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضي حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين، ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضي حتى أولئك الشعراء المرحين؟

---

(١) الظاهري، عبد الرحمٰن بن عقيل (١٤١٤هـ): العقل الأدبي، بريدة، مطبوعات نادي القصيم الأدبي، ١/ ٤٤.

ذلك الله رب العالمين الذي لا يشغله شأن عن شأن، وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معا يلتقيان ولا يبغيان»[1].

وإذا تقرر أن القرآن لم يهمل خطاب الوجدان وتحريك المشاعر وتنبيه العاطفة تبين فضل ذلك وأهميته، وحينها لا عبرة بحديث المنتقصين والمتنقصين مهما كان مبررهم؛ لأنهم بذلك يخالفون فطرة تطلبها النفوس وتأرز إليها.

ولذلك كان النبي ﷺ وهو من أوتي جوامع الكلم، وفي كلامه من العلم والحكمة ما دارت حوله دروس الفقه والعقائد والتشريع والآداب والفكر، يعظ ويذكر ويحرك المشاعر ويؤثر في الناس، ما انتقص هذا الفعلَ ﷺ، ولا نقص هو به، بل أمره الله تعالى بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٣].

ولذلك نجد في سيرته وسنته أنه وعظ ﷺ أصحابه وتخولهم بها، وكان لوعظه تأثير عليهم، ولكن لم يكن كل ما نطق به النبي ﷺ من الحديث وعظا، وإلا لما قال ابن مسعود ﷺ: كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا[2].

---

(١) دراز، محمد عبد الله (١٤١٢): النبأ العظيم، الدوحة، دار الثقافة، ص١١٥ ـ ١١٦.

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): الجامع الصحيح، ١/٢٧، حديث رقم (٦٨)، ومسلم بن الحجاج (د.ت): صحيح مسلم، ٨/١٤٨، حديث رقم (٧٣٠٥).

بل كان بعض من حديثة وعظاً وتذكيراً يتخولهم به ﷺ، مما يعني أن للوعظ أسلوباً خاصاً يعرفه الصحابة، وأنه ينبغي أن يكون في وقت دون آخر وهو معنى التخوّل.

وبه يتضح أن الذين بالغوا في الوعظ حتى جعلوا القرآن وعظاً بالمفهوم الاصطلاحي للوعظ الذي يمارسونه، وجعلوا وظيفة الأنبياء هي الوعظ[1] جانبوا الصواب فيما نرى، بل هو خطاب من ضمن الخطابات الدينية التي لها سمتها وميزانها الشرعي الذي يجب أن تلتزم به حتى لا تتحول من أداة نفع إلى أسلوب انحراف وبدع.

---

(١) انظر: بن صفية، سليمان العربي (١٤٣١هـ): منهج السلف في الوعظ، الرياض، دار المنهاج، ص٩٠.

بنية الخطاب الوعظي

- سمات الخطاب الوعظي.
  1 ـ الدفع والدفع المضاد.
  2 ـ سحر التأثير.
  3 ـ سحر الخطاب.
  4 ـ سحر الأداء.
- الخطاب الوعظي والخطاب الفقهي.
- سلطة الوعظ.
  1 ـ الدين.
  2 ـ أدبية الخطاب.
  3 ـ القصّ
  4 ـ الغرائب والعجائب.
  5 ـ الاستمالات الإقناعية.
  6 ـ ما وارء اللغة.

لأنْ أبتغي الدنيا بالمزمار والطنبور،
أحب إليّ من أن أبتغيها بدين الله.
[إبراهيم بن أدهم]

سمات الخطاب الوعظي

نستخدم الخطاب هنا بالمفهوم الذي سبق أن حررناه وهو مفهوم واسع الدلالة، وعليه فإن لغة الوعظ وملابسات الاتصال هي التي ستعيننا على تحديد أهم خصائص وسمات الخطاب.

وقبل أن نشرع في بيان أهم هذه السمات نبين الفائدة المرجوة من البحث عنها وتحديدها، وترجع الفائدة في ذلك إلى التمييز بين الخطاب الوعظي في كينونته الخاصة، وبقية الخطابات التي تندرج تحت الخطاب الديني كالخطاب الفقهي والأخلاقي... إلخ.

وأهم هذه السمات التي تميزه ما يلي:

١ ـ الدفع والدفع المضاد:

الخطاب الوعظي خطاب قائم على قوة الدفع باتجاهين متضادين (الأمر ـ النهي) فالأول دفع نحو الفعل، والآخر دفع معاكس نحو الترك.

فلغته لغة قائمة على هذه الفكرة الجوهرية (افعل ولا تفعل) ويستمد الفعل (افعل) قوته من طاقة الإغراء/الترغيب، ويستمد الفعل المعاكس (لا تفعل) قوته من التحذير/الترهيب، والإغراء يكون بمجوعة من المحبوبات التي تتعلق بها النفس الإنسانية، والتحذير من جملة مرهوبات تخافها.

هذه القوة في الحث (افعل ولا تفعل) الأمر والنهي بتعبير ابن تيمية وغيره، لا يراد بها فقط صيغة الأمر والنهي اللغوية النحوية المباشرة فحسب؛ لأننا ندرك تماماً أن هذا ليس هو الوعظ، بل تتوسع الدلالة لتشمل السياقات التي يمكن أن تفهم على أنها أمر أو نهي ولو عن طريق دلالة الإيحاء، وبمعنى آخر ما هو محصلة الموعظة النهائية (أمر أم نهي)؟

وبذلك يدخل صيغ الأمر والنهي عند الأصوليين أصالة وما خرج عن مقتضى الظاهر إلى دلالة الأمر أو النهي عند البلاغيين، وكل ذلك يحكمه دلالة السياق التي هي عنصر أساس في العملية التواصلية للغة، ودلالة الفحوى والمضمون التي يفهم منها الأمر بشيء والنهي عن آخر.

وعليه فقد تكون الخطبة الوعظية لا تحتوي الصيغتين الحرفيتين (افعل ولا تفعل) ولكنها في مجمل سياقها أمر أو نهي أو أمر ونهي (حث على الخير وتحذير من الشر)، وتتوسل إلى ذلك بقوة الترغيب والترهيب.

وعليه قد تكون بنية الخطاب قصة أو تذكيراً ولكن ما يفرقها

ويميزها عن أن تكون قصة أو تذكيراً علمياً صرفاً هو أن غايتها وهدفها هو الحث على مافيها من فضائل والنهي عن الرذائل.

وهذا التقرير يتقارب مع (أوستن) في (نظرية أفعال الكلام) أو (تداولية الكلام) والتي ترى أن اللغة ليست مجرد وصف للعالم، بل هي فعل يؤثر في الواقع ويعدل في السلوك ويثير ردود الأفعال، وتقسم أفعال الكلام إلى أفعال مباشرة كألفاظ العقود وغيرها (باع/اشترى/أعطى... إلخ) وأفعال كلام غير مباشرة تأتي في سياق يفهم منه طلب الفعل، نحو خروج الاستفهام للأمر؛ كأن تقول: «هل بإمكانك أن تناولني الكتاب؟» والمقصود ناولني الكتاب[1].

والنظرية التداولية للكلام هي التي تفسر لنا قضية التأثير؛ لأنها تنظر إلى اللغة ليس في مستوى التواصل المجرد بين المتخاطبين، بل في مستوى أعمق وهو مستوى إحداث الأثر في المتلقي عن طريق أفعال الكلام.

ومهما دار حول هذه النظرية التي قال بها (أوستن) وتلميذه (سارل) فإن قضية التأثير قضية حاضرة في الخطاب، ولكن يمكن أن تتدرج مستويات التأثير من خطاب إلى آخر، إلا أنها في الخطاب الوعظي أكثر ظهوراً وبروزاً.

---

(١) للاطلاع على نظرية أفعال الكلام انظر:
- أوستن، جون لانجشو (١٩٩١م): **نظرية أفعال الكلام العامة**، ترجمة: عبد القادر قنيني، الدار البيضاء، دار إفريقيا الشرق.

فالواعظ مثلاً حين يتحدث عن صفات المنافقين ويصورها في خطابه الوعظي بصور حقيقية ومجازية بشعة ومنفرة فإنه بذلك يقدم (نهياً) غير مباشر عنها، ويستخدم قوة الدفع نحو الترك بالترهيب العاجل والآجل.

وحين يقدم خطاباً وعظياً يقوم على بيان صفات المؤمنين ومآلهم وأجرهم العظيم مثلا، فإنه يقدم (أمراً) غير مباشر عن طريق الإغراء للعمل بأخلاقهم والاتصاف بصفاتهم وهنا تكمن قوة الدفع بالأمر.

إنه في خطابه الوعظي لا يسير باتجاه غير اتجاه الإغراء والتحذير والأمر والنهي، بغض النظر عن الأدلة والبراهين والحجج التي يمكن أن تشرعن للأمر أو النهي وتظهره في قالب عقلي مقبول.

وهذا لا يعني خلو الخطاب الوعظي من الأدلة، بل تحضر إن حضرت من أجل الدفع نحو الفعل أو الترك وليس من أجل بيان قوة الحكم أو الترجيح أو الاستنباط أو أي مستوى من مستويات الاستدلال والتحليل والتفكير.

وعليه فإننا يمكن أن نلاحظ في الخطاب الوعظي كثرة الجملة الإنشائية مقارنة بغيره من الخطابات، والبلاغيون يقسمون الجمل إلى قسمين اثنين: جمل خبرية هي التي تحتمل الصدق والكذب لذاتها، وجمل إنشائية لا تحتمل الصدق أو الكذب، ثم يقسمون الإنشاء إلى طلبي يشمل (الأمر والنهي والاستفهام

والتمني والنداء) وغير طلبي ويشمل (صيغتي المدح والذم، والترجي وألفاظ العقود، والتعجب والقسم)[1].

وهذا التقسيم من البلاغيين وعي مبكر جداً بتداولية اللغة ودورها في التأثير وليس في التواصل فقط، أو ما يمكن أن نسميه نفعية اللغة، ومن المهم أن ندرك أن الجمل الإنشائية بشقيها الطلبي وغير الطلبي هي الألصق بالعاطفة والوجدانيات، وهي الأقدر على التأثير على النفس الإنسانية، هذا إذا أضفنا إلى ذلك أن الإنشاء بشقيه يخرج عن ظاهره المراد إلى أغراض أخرى حررها البلاغيون والأصوليون في مواضعها.

ومن المؤكد ونحن نبحث في سمات الخطاب الوعظي ونركز على الإنشاء فيه، لا ننفي وجود الجمل الخبرية، بل هي كذلك حاضرة في سياقاته، ولكنها تحضر على اعتبارات من أهمها:

١ ـ قلّتها أحياناً مقارنة بالجمل الإنشائية.

٢ ـ خروج بعضها عن الغرض الأصلي وهو إفادة الخبر إلى أغراض أخرى[2].

---

(١) للاستزادة حول الجمل الإنشائية والخبرية عند البلاغيين انظر:
ـ القزويني، محمد بن عبد الرحمٰن (١٤١٤هـ): **الإيضاح في علوم البلاغة**، بتحقيق وشرح: محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت، دار الجيل.

(٢) يقسم البلاغيون أغراض الخبر إلى فائدة الخبر ولازم الفائدة، ثم الخبر قد يكون على مقتضى الظاهر فيكون إما خبرياً أو طلبياً أو إنكارياً وقد يخرج عن مقتضى الظاهر لأغراض أخرى، وللمزيد انظر المرجع السابق، ص٦٦ وما بعدها.

٣ ـ التفاوت من واعظ لآخر حسب معجمه اللغوي، وتمكنه من تقنيات الخطاب وإدراكه لمراميه التداولية.

وعلى كل حال فإن السياق الداخلي للجمل والتراكيب في الخطاب يلعب دوراً بارزاً في تبيين الأغراض التي يساق من أجلها الخبر أو الإنشاء، وكذلك السياق الخارجي الذي نعني به الموقف حال الاتصال اللغوي وهو ما يقترب كثيرا من مفهوم (مقتضى الحال) أو (المقام) عند البلاغيين.

٢ ـ سحر التأثير:

مرّ معنا في مفهوم الوعظ تركيز العلماء على حقيقة التأثير في الوعظ وأنه خطاب مؤثر يعمل على تليين القلوب وخشوعها، وهذه هي السمة الثانية من سمات الخطاب الوعظي التي تضاف إلى أنه حث بالأمر والنهي.

ويخيل إليّ أن هذه السمة التي دونها العلماء في كثير من تعريفاتهم للوعظ إنما اقتبسوها من حديث العرباض بن سارية المشهور، وفيه وصف موعظة النبي ﷺ.

قال العرباض بن سارية رضي الله عنه وعَظَنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة **موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب** فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟[1].

(١) الترمذي، محمد بن عيسى (د.ت): **الجامع الصحيح**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٥/٤٤، وقال عنه: هذا حديث صحيح.

وسواء كان مصدر سمة التأثير للوعظ هو حديث العرباض السالف الذكر أم هو الاستنتاج التجريبي والواقعي للوعظ وما يحدثه من أثر في نفوس المتلقين، فإن معرفة هذه السمة وما يتماس معها من ملابسات وكيفية حدوثها في الخطاب الوعظي هو ما نسعى إليه.

إحداث التأثير على جمهور المتلقين في عملية التواصل اللغوية هو أحد أهم أهداف اللغة التي يشير إليها فلاسفة اللغة المعاصرين، ولكن التأثير على درجات متفاوتة ومختلفة والذي يهمنا هنا هو التأثير الوجداني الذي يمكن أن يقاس حصوله وتحققه من خلال المشاهدة (البكاء أو فيضان الدموع أو الإقبال الشديد على الواعظ)، أو من خلال شعور المتلقي الداخلي (حضور القلب وخشوعه وخوفه أو فرحه وسروره)، أو من خلال التأثير بعيد المدى والذي يكون بتعديل السلوك من السلب للإيجاب أو التدرج من الحسن للأحسن.

إن مفهوم التأثير لا يمكن تحديده بمعايير محددة تظهر جملة وتختفي جملة، بل لكل متلقٍّ ما يخصه من تأثر وما يترتب على هذا التأثير من نواتج سلوكية واستجابات شرطية.

وإذا حاولنا أن نبحث عن سرّ التأثير في الخطاب الوعظي، أو بم صار الوعظ مؤثراً، يمكننا أن نضع أيدينا على سببين مهمين:

أ ـ سحر الخطاب.

ب ـ سحر الأداء.

أ ـ سحر الخطاب:

التأثير الحاصل من لغة الخطاب هو شيء مما يشير إليه حديث النبي ﷺ الذي أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ إن من البيان لسحراً، أو إن بعض البيان لسحر[1].

وفي الحديث يشبّه النبي ﷺ بعض البيان بالسحر لجامع التأثير الخفي الذي يحدثه البيان والسحر في نفوس الناس، ويكشف عن هذه العلاقة بين البيان والسحر بدر الدين العيني بقوله: «البيان على نوعين: بيان تقع به الإبانة عن المراد بأي وجه كان، وبيان بلاغة، وهو الذي دخلته الصنعة بحيث يروق السامعين ويستميل به قلوبهم، وهو الذي يشبه بالسحر إذا جلب القلوب وغلب على النفوس، وفي الحقيقة هو تصنع في الكلام وتكلف لتحسينه، وصرف الشيء عن ظاهرة؛ كالسحر الذي هو تخييل لا حقيقة له، والمذموم من هذا الفصل أن يقصد به الباطل واللبس»[2].

هنا يمايز العيني[3] بين نوعين من البيان: بيان يقع به

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، القاهرة، دار الشعب، ٧/ ١٧٨، حديث رقم (٥٧٦٧).

(٢) العيني، بدر الدين محمود (١٤٢١هـ): **عمدة القاري**، بيروت دار الكتب العلمية، ٩/ ٣٣٠.

(٣) يبدو أن العيني اقتبس هذا التقسيم من ابن التين الصفاقصي المتوفى (٦١١هـ)؛ لأن جزء من هذا الكلام نسبه الحافظ ابن حجر في الفتح لابن التين، ٩/ ٢٠٢، والله أعلم.

التواصل في الحد الأدنى من أهداف التواصل وهو الكشف عن مراد المتحدث بخطابه.

والآخر هو البيان الذي سماه البيان البلاغي الذي يتحقق فيه الكشف عن المراد من جهة والتأثير باستمالة القلوب وغلبة النفوس وجلب انتباه السامعين من جهة أخرى، وهذا التأثير الحاصل من البيان مرده وسببه إلى لغة الخطاب، ويكمن في تصنُّع الكلام والتأنُّق في تحسينه، وصرف الألفاظ عن مرادها الظاهر إلى أغراض أخرى ألطف وأدق، كما هو السحر الذي يعني في لسان العرب ما لطف وخفي سببه[1].

فمن الواضح هنا أن البيان الوعظي فيه شبه بالسحر، وأمام السحر يصبح المتلقي مكتوف اليدين، تستمليه رُقَى الكلام وجماليات اللغة وصرف الأمور عن ظواهرها، ولا يملك المتلقي إلا أن يلين قلبه وتذرف عيناه.

وتحوُّلُ البيان من مفهومه الإيصالي إلى مفهومه السحري هو سر التأثير الذي كان العرب يتفاخرون به في بيانهم، فأشدهم بياناً وبلاغة أقواهم سحراً وتأثيراً.

وحين صار عمر بن عبد العزيز خليفة على المسلمين ومنع الشعراء من العطاء؛ لأنهم كانوا يستميلون الخلفاء بشعرهم وبيانهم/سحرهم، دخل عليه جرير محاولاً أن يوقعه في فخ

---

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم (١٤١٠هـ): لسان العرب، ٣٤٨/٤.

(سحر الخطاب) وأنشده من الشعر ما أنشده، وحين عجز عن ذلك خرج ليقول للشعراء:

رأيت رُقَى الشيطان لا تستفزه   وقد كان شيطاني من الجن راقيا

ويعلق الزمخشري على هذا البيت فيقول: «وكذلك كل ما يُتَكلّم به من كلمات الخلابة والتّجْميش»[1]؛ أي: كلها داخلة في رقى الشيطان التي تستفز المخاطب!

والوعظ المتمكن من أدواته اللغوية يسير في هذا الفلك التأثيري على المخاطبين، بما يحويه من أدبية تكمن في:

- المجاز والذي من شأنه أن يقرب البعيد ويبعد القريب، ويصور الحسي في صورة المعنوي، والمعنوي في صورة الحسي، ويكوّن قاموساً جديداً للمتلقي، يرى من خلاله الأشياء.
- التشبيهات بطرائقها المختلفة وما يلحق بها من ضرب الأمثال.
- النظم على مقتضى المعاني النحوية ونقصد بها سياق الجمل على هيئة مخصوصة من تقديم وتأخير وذكر وحذف وغير ذلك.
- الاعتماد على الجمل القصيرة غالباً ذات القرع والإيقاع المؤثر على السمع.

---

(١) الزمخشري، محمود بن عمر (١٤١٢هـ): ربيع الأبرار، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ص٦١. والتجميش هنا المغازلة والملاعبة، وكأن المتحدث يغازل ويلاطف المخاطبين ليصل إليهم ويستميلهم كما تفعل المغازلة بين الرجل والأنثى.

- استخدام الجمل الإنشائية بنوعيها، والجمل الإنشائية أقدر على مخاطبة الوجدان واستثارة العواطف.
- الاستشهادات والتضمينات من القرآن والسُّنَّة وبليغ الكلام شعراً ونثراً.

إنها باختصار شديد أدبية الوعظ أو بلاغية الوعظ كما قال العيني سابقاً، وهو البيان الساحر الذي يتسلل إلى نفوس المتلقين فيحدث التأثير الذي هو أحد أهداف الوعظ ونتائجه.

ولكي يكون الكلام أكثر وضوحا فإننا سنعرض لخطبة من خطب سيد البلغاء ﷺ والتي تميزت بأمرين:

- أنها محفوظة ويمكن معرفة لغتها البليغة وما اتسمت به.
- أنها وردت في سياق قصة نقلت لنا التأثير الذي أحدثته الخطبة رغم قصرها.

تلك هي خطبته ﷺ في الأنصار بعد غزوة حنين، وتقسيمه للغنائم على كثير من المؤلفة قلوبهم، وما وجده بعض الأنصار في أنفسهم، وخوفهم أن يكون رسول الله ﷺ رغب عنهم إلى غيرهم.

وننقلها هنا بتمامها كما هي في مسند أحمد يرويها أبو سعيد الخدري ﷺ فيقول: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيءَ، وجد هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القالَةُ، حتى قال قائلهم: لقيَ رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه

سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قَسَمْت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء، قال: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**» قال: يا رسول الله ما أنا إلا امرؤ من قومي وما أنا؟ قال: «**فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة**»، قال: فخرج سعد فجمع الناس في تلك الحظيرة، قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، قال: فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل، ثم قال:

«يا معشر الأنصار ما قالةٌ بلغتني عنكم؟ وجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بل الله ورسوله أمنُّ وأفضل، قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المن والفضل؟ قال: أما والله لو شئتم لقلتم فَلَصَدقتم وصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأغنيناك، أَوَجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لَعاعةٍ من الدنيا تألفت بها قوماً ليُسْلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شِعباً لسلكت شعب الأنصار، اللَّهُمَّ ارحم

الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار». قال فبكى القوم حتى أَخْضَلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله وتفرقنا[1].

هذا البيان العالي والخطاب البليغ كان له أعظم الأثر في تطييب نفوس الأنصار والتأثير فيهم حتى بكوا وبللوا لحاهم، وسنعرض في جدول شيئاً مما وورد في هذه الخطبة البليغة من أدبية الخطاب وبلاغته المؤثرة لتتضح فكرة التأثير.

التركيب	نوعه
يا معشر الأنصار!	جملة إنشائية: نداء
ما قالةٌ بلغتني عنكم؟ وجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم؟	جملة إنشائية: استفهام خرج مخرج العتاب واللوم
ألم آتكم ضلالاً فهداكم وعالة فأغناكم الله؟ وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم؟	جملة إنشائية: استفهام تقريري وفيها الطباق والتضاد بين الضلالة والهدى والعداوة والألفة.
ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟	جملة إنشائية: نداء واستفهام خرج مخرج الحض والأمر
أما والله لو شئتم لقلتم	جملة إنشائية: قسم يراد به تأكيد المقسم عليه

---

(١) أحمد بن حنبل (د.ت): **مسند الإمام أحمد**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، القاهرة، مؤسسة قرطبة ٣/٧٦، وأصل الحديث في الصحيحين أخصر مما في المسند، البخاري، ٥/٣٨، حديث رقم (٣٧٧٨)، ومسلم: ٣/١٠٦، حديث رقم (٢٤٨٦)، وحديث المسند قال عنه محققه شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

التركيب	نوعه
أَوَجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لَعاعةٍ من الدنيا؟	جملة إنشائية: نداء واستفهام خرج مخرج الاستنكار وفيه استعارة تشبّه ما أعطاه من الغنائم بالجرعة من الماء في السقاء بجامع الحقارة والقلة
أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم؟	جملة إنشائية: استفهام يراد به التشويق وفيه المقابلة بين صورتين: رجوع الناس بالقليل الفاني (شاة وبعير) ورجوع الأنصار بالكثير الباقي (رسول الله ﷺ).
فو الذي نفس محمد بيده	جملة إنشائية: قسم لتأكيد المقسم عليه.
اللَّهُمَّ ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار	جملة إنشائية: دعاء يوحي بدلالة المحبة والرحمة
يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم؟ وجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم؟	سجع على غير تكلف في عبارات قصيرة متوازية
ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟ وعالةً فأغناكم الله؟	سجع كسابقه وطباق بديع بين الضلالة والهدى والفقر والغنى
أتيتنا مكذباً فصدقناك ومخذولاً فنصرناك وطريداً فآويناك وعائلاً فأغنيناك	سجع وتقسيم للجمل بطريقة بديعة، مع ما فيه من الطباق بين التكذيب والتصديق، والخذلان والنصر، والطرد والإيواء، والفقر والغنى.

وليس القصد هنا تحليل الخطبة تحليلا أسلوبياً؛ لأن هذا ليس من مقصود البحث ولكن هي إشارات إلى ما في الوعظ البليغ من الأدب الذي يستميل النفوس ويؤثر فيها، ونلاحظ أن الجمل الإنشائية قد قامت بدور كبير في هذا البيان، في النداء والاستفهام والقسم كما كان للجمل القصيرة بما فيها من سجع جاء على السجية أبلغ الأثر في مخاطبة الوجدان[1].

وهذا التأثير في الخطبة لا يعود فقط إلى لغتها التي سيقت بها بل هناك مسببات أخرى في مطلعها صاحب الخطبة ومكانته العلية في نفوس الأنصار، وما يتمتع به من قوة الأداء والبلاغ، وما في حديثه من الصدق والحب والنصح إلى غير ذلك مما سنأتي لذكره لاحقاً.

إن لأدبية الخطاب الوعظي درجة عالية من درجات التأثير، ذلك لأن الدراسات الحديثة تؤمن بقوة اللغة بغض النظر عن نوعها «فللغة قوة لا يستهان بها، ولها سلطان على أصحابها، وهذه القوة تأتي من مصدرين: أحدهما التكوين النسقي للغة في نظامها الدلالي، والآخر كونها أداة سهلة التطويع لجذب الآخرين لبعض الأفكار، وجعلهم ينقادون إلى ما يريده أولئك الذين يستغلون قوتها، فهي في المجال الأول قوة بحد ذاتها، وفي الثاني وسيلة وصول إلى القوة.

ومصدر قوة اللغة الذاتية كونها تحتوي طبقات من المعنى

---

(١) يُغفل كثير من الخطباء الجمل الإنشائية في خطبهم ويعتمدون كثيراً على الجمل الخبرية، مع أن الجمل الإنشائية أقدر على كسر اطراد الملل وتحريك النفوس.

في كل عنصر من عناصرها، الطبقة الأولى ما تشير إليه الكلمات مباشرة، أو ما يسمى الدلالة الذاتية، والطبقة الثانية ما تتضمنه أو توحي به أو ما يسمى بالإيحاء»[1].

ب ـ سحر الأداء:

لئن كان للغة بصفة عامة قوتها، وللخطاب الأدبي الذي يتذرع به الخطاب الوعظي أحياناً قوة أبلغ وأقوى بفضل أدبيته وإيحاءاته، فإن هذا لا يقلل من التأثير الذي يضفيه أداء الملقي على الجمهور، وهذا أحد أسرار تمايز الخطباء والبلغاء في التأثير وقوة السيطرة على الجماهير.

والتاريخ والواقع حافلان بأخبار هؤلاء الذين أوتوا من الأداء وجودة اللغة ما جعلهم محط الأنظار ومهوى الأسماع، وفي السير أن سهيل بن عمرو كان خطيب قريش المفوه، ولخطبه فيهم فعل السحر، فلما وقع في الأسر يوم بدر استأذن عمرُ بن الخطاب النبيَّ في أن يقلع ثنية سهيل حتى لا يقف عليهم خطيبا، فقال له النبي ﷺ: **«دعها فلعلها أن تسرك يوما»**[2].

وقد حفلت كتب السير والتاريخ والأدب بأخبار خطباء العرب الذين تميزوا بأدائهم المبهر والمؤثر[3].

---

(١) العجمي، فالح شبيب (٢٠٠٣م): **اللغة والسحر**، الرياض، (د.ن)، ص٦٠، وكثيراً ما تلجأ وسائل الإعلام والسلطة إلى استخدام مفردات معينة يتم شحنها بحيث يصبح لها تأثير شديد تماماً كما فعلت الإدارة الأمريكية بمفردة (الإرهاب) بعد أحداث ١١ سبتمبر.

(٢) البيهقي، أحمد بن الحسين (١٤٠٨هـ): **دلائل النبوة**، بيروت، دار الكتب العلمية، حديث رقم (٦/ ٣٦٧)، وقد كان الأمر كما قال النبي ﷺ فخطب سهيل يثبت قريشاً يوم الردة.

(٣) في البيان والتبيين للجاحظ شيءٌ من أخبار الخطباء وبلاغتهم.

إن مهارات الأداء الخطابي كثيرة جداً، ومن أهمها استخدام الصوت خفضا ورفعاً، بطريقة مؤثرة يتفاعل الخطيب بها مع إيقاع كلماته ووقعها في النفوس، فلا هو بالصوت الذي يسير على نغم ونهج واحد مشعر بالملل، ولا بالخفيض الذي لا يسمع ولا بالمرتفع المزعج بل يتدرج وفقا لجريان النفس والمعنى.

ويضاف إلى الصوت وحسنه تعبيرات الجسد وحركاته وإيماءاته، وما يظهر عليه من ملامح التأثر حماساً وحزناً، وكذلك حسن الوقف على الجمل تامة غير منقوصة، مع الابتعاد عن اللحن والخطأ المنفر، كل ذلك وغيره من مهارات إذا أحاط بها الواعظ علماً وتطبيقاً مع لغة راقية كان التأثير في أوجه وقوته.

وقد كان النبي ﷺ يؤثر في أصحابه بروعة أدائه وقوة تفاعله حتى قال جابر رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: صبَّحكم ومسَّاكم ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى»(١).

ولأهمية الأداء ومهاراته تعقد المعاهد والمراكز العديد من الدورات التدريبية؛ من أجل أن يحسن الشخص من إلقائه وحسن مواجهته للجماهير(٢).

---

(١) مسلم بن الحجاج (د.ت): صحيح مسلم، بيروت، دار الجيل، ٣/١١، حديث رقم (٢٠٤٢).

(٢) من المؤسف أن بعضاً من الخطباء لا يلقون بالاً إلى أهمية هذه المهارات وضرورة إتقانها وتطبيقها؛ لذلك تخرج خطبهم في الجمع والمناسبات باهتة لا روح فيها.

الخطاب الوعظي والخطاب الفقهي

من خلال ما مر من حديث عن مفهوم الخطاب الوعظي، وما حاولنا تلمسه من خصائص هذا الخطاب، من حيث تأثيره ولغته المستخدمة وسلطته التي يؤثر بها على المتلقين، يمكننا أن نمايز بينه وبين خطاب شرعي آخر هو الخطاب الفقهي.

ومن الأهمية بمكان أن نؤصل لهذا الافتراق والتباين، وندعو بإلحاح إلى عدم الخلط بينهما في الفهم وفي الممارسة أيضاً.

فالخطاب الفقهي هو خطاب يقوم على معرفة الأحكام العملية الشرعية[1] من خلال الأدلة التفصيلية والبحث فيها وبيان وجه دلالتها والراجح والمرجوح فيها، فهو خطاب مبني على

---

(١) التعريف بالفقه هنا المقصود به الفقه عند المتأخرين بعد أن استقر الاصطلاح عليه، وليس المقصود به الفقه في عرف المتقدمين الذي كان أكثر شمولاً، وللمزيد انظر: الباحسين، يعقوب (١٤٠٨هـ): **أصول الفقه الحد والموضوع والغاية**، الرياض، مكتبة الرشد.

عمل عقلي مكثف، يحلل ويقارن ويستنتج ويستدل ويرد ويثبت وينفي، ويصل إلى أحكام نهائية في الوجوب والحلّ والحرمة والندب والكراهة.

إنه خطاب في بنيته الداخلية يقوم على لغة علمية صارمة ودقيقة إلى حد كبير، تهدف إلى توضيح المعرفة والكشف عن الحكم بالبرهان والحجة، وهدفها بيان الحكم بدليله ومعرفة الراجح من المرجوح، وما يترتب على هذه الأحكام من مسائل ومتعلقات.

وهذا يفارق المفهوم السابق للخطاب الوعظي، الذي يقوم بناؤه على مخاطبة القلوب بلغة تنحو للبلاغية، وتحرك المشاعر وتستدر العواطف حثاً على فعل الخير وردعاً عن فعل الشر، وفيها من القصص والأخبار ما لا يتناسب مع سياقات الخطاب الفقهي.

فالتباين هنا واضح بجلاء من حيث البنية اللغوية للخطابين ومن حيث الهدف منهما، وكان هذا التمايز واضحاً وجلياً لدى كثير من علماء السلف؛ ولذلك كانت التحذيرات من الوعاظ والقصاصين تأتي من قبل الفقهاء لشدة الاختلاف بين السياقين.

يقول ابن الجوزي في بيان أسباب كراهة بعض السلف للوعظ والقصص: «إن التشاغل به يشغل عن المهم من قراءة القرآن، ورواية الحديث، والتفقه في الدين»[1].

ويعيد هذه الفكرة مرة أخرى في صيد الخاطر قائلاً: «وقد

---

(١) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤٠٩هـ): كتاب القصاص والمذكرين، ص٦.

كان جماعة من السلف يرون تخليط القصاص، فينهون عن الحضور عندهم، وهذا على الإطلاق لا يحسن اليوم؛ لأنه كان الناس في ذلك الزمان متشاغلين بالعلم، فرأوا حضور القصص صاداً لهم»[1].

ومجالس العلم هنا تباين مجالس الوعظ، والسياقات التربوية والتعليمية التي ينشأ عليها الناس في حلق الوعظ تختلف عن التي تكون في مجالس العلم، وإدراك أجلّاء العلماء للفرق بينها من الأمور التي يجب أن تؤخذ بالحسبان؛ لأن الأساس في الوعظ أن يكون على منهج (التخوّل) وليس على سبيل الديمومة والاستمرار؛ ولأنه يتجافى بطبيعته عن لغة العلم والعقل التي من شأنها أن تعرّف الناشئة بطرق الاستنباط ومعرفة الحلال والحرام وتنظم علاقتهم بالشريعة التي تنظم بدورها علاقتهم مع الله ومع الخلق ومع الوجود.

يقول عبد الله بن عون عالم البصرة المتوفى سنة ١٣٢هـ: «أدركت هذا المسجد، مسجد البصرة، وما فيه حلقة تنسب إلى الفقه إلا حلقة واحدة تنسب إلى مسلم بن يسار، وسائر المسجد قصاص»[2].

---

(١) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤١١هـ): صيد الخاطر، بيروت، دار القلم، ص١٠٠.

(٢) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤٠٩هـ): كتاب القصاص والمذكرين، ص١٧٢، ويبدو أن تواجد الوعاظ يختلف من مكان إلى مكان، وهناك اختلاف بين المؤرخين حول البداية الحقيقية للوعظ، فبعضهم يرى أنها في زمن عمر، =

لذلك فإن الخلط بين الخطابين في التربية والتنشئة أمر في غاية الخطورة، فالعلم هو أساس التربية والتعليم، أما الوعظ فهو أسلوب من أساليب التغيير والتأثير يقدر بقدره.

ومن الخطأ بناء على ذلك أن يتحول الخطاب الفقهي وهو يمارس الفقه ويعلمه إلى خطاب وعظي، فبدلاً من أن تقوم بنيته الشرعية على الاستنتاج والاحتجاج يتحول إلى إثبات الأحكام عبر تحريك العواطف واستدرار المشاعر، فيثبت الحكم الشرعي ليس بدليله التفصيلي من الكتاب أو السُّنَّة، بل بما تمليه عليه لغته الوعظية من تحسين أو تقبيح، ويكثر في خطابه الذي ينبغي أن يكون فقهياً جمل الإنشاء من دعاء وتعجب واستفهام إنكاري أو تقريري.

«فعندما تقدم المناهج خطاباً وعظياً عوضاً عن خطابها العلمي والتربوي؛ فإنها تكون قد خلطت الخطابات، وهذا الخلط يسبب تشويشاً واضطراباً في عقل المتلقي بين ما هو علمي وما هو غير علمي، فالخطاب الوعظي له مكانه وزمانه ومقامه، ويقدم بوصفه خطاباً وعظياً، وقد يستطيل ويتسلل إلى الخطابات الأخرى، وربما قدم ما هو وعظي على أنه علمي»[1].

= وبعضهم يرى أنها ظهرت مع الخوارج وهذا سبب التباين الموجود في وصف كثرة الوعاظ أو قلتهم وبدعية ظهورهم!

(١) السيف، عمر عبد العزيز (١٤٣٢هـ): **الخطاب الوعظي في المناهج الدراسية السعودية**، دراسة منشورة بمجلة المعرفة، الرياض، وزارة التربية والتعليم بالسعودية، عدد رقم (١٩٨)، ص٣٢.

وتقديم الخطاب الفقهي بطريقة وعظية أخطر من تقديم الخطاب الوعظي بطريقة علمية فقهية، فإن الثاني غاية ما يمكن أن يحدث من خطأ هو ضعف التأثير وجفاف العواطف والمشاعر، وإن كان الأفضل والأنفع أن يحتفظ كل خطاب بمساره وسماته.

ولسائلٍ أن يقول: ألا يمكن المزاوجة بين الخطاب الفقهي والوعظي في سياق واحد، بحيث يمارس الفقيه دوره العلمي والوعظي، وهنا نؤكد على أنه في بناء الدليل والبنية الفقهية للمسألة يستخدم لغة الفقه والاحتجاج، ولكن لو قرر المسألة فقهياً ثم انتقل ليعظ بناء على ما تقرر من حرمة أو وجوب في المسألة فإن هذا لا تعارض فيه؛ لأن ينتقل من خطاب لآخر.

وتجدر الإشارة هنا إلى أننا حين نمايز بين الخطاب الوعظي والفقهي العلمي لا يعني أننا ننفي العلمية عن الخطاب الوعظي، أو نصفه بأنه خطاب غير شرعي أو غير عقلاني، بل غاية ما نقصده أن مضمونه يجب أن يكون شرعياً علمياً عقلانياً في عدم مخالفته للشرع والعلم والعقل، ولكنه يستخدم في آلياته وأساليبه لغة تخصه وطرقاً تميزه، ويهدف وهو يستخدم هذه المضامين المقبولة عقلاً وشرعاً إلى إحداث التأثير وتغيير سلوك الناس ودفعهم للخير وتحذيرهم من الشر بتقوية إيمانهم وزيادة تقواهم.

سلطة الوعظ

تطلق السلطة في الاستخدام الثقافي على مستويين: حقيقي ويقصد به مؤسسات الحكم والإدارات التي تمتلك القرار، ومستوى مجازي يقصد به قوة التأثير التي تكاد تتحكم بالطرف الآخر في المعادلة.

ونستخدم المصطلح هنا بمستواه المجازي الذي تتحول فيه اللغة وخطابها إلى قوة تسلب المتلقي كثيراً من قدراته، وتتجاوز مناطق الدفاع وحصون المقاومة عنده، وتؤثر فيه أعمق التأثير، وفي لحظة يشعر أمامها أنه مستسلم للخطاب وسلطته، مسترسل مع حركة اللغة فيه لا يحير جواباً.

وواضح هنا أننا لا نقصد بسلطة الوعظ نفس المصطلح البنيوي (سلطة النص) الذي ظهر كردة فعل في فترة من الفترات على (سلطة المؤلف)؛ لأن هذين المصطلحين والمصطلح اللاحق لهما (سلطة القارئ) ظهرت في فلسفة التأويل والقراءة، وليست

في قوة النص وفي فرض نفوذه على المتلقين[1].

إن فكرة سلطة الوعظ نابعة من الاعتقاد بأن للوعظ سلطة مؤثرة على المتلقين تجعلهم في (لحظة سحر) أمام فيضه، تتجلى فيها التأثيرات التي تظهر على ملامح الموعوظين واستجابتهم واقتناعهم بالخطاب، وإن لم يكن فيه أدلة وبراهين بل ينبع التأثير والقناعة من الخضوع لأدوات أخرى هي شيء مما ذكرناه سابقاً في التأثير وما نحاول أن نضيفه هنا.

ومن أبرز هذه التقنيات السلطوية التي ينطوي عليها الخطاب الوعظي ما يلي:

١ ـ الدين:

إن العلاقة القائمة بين اللغة والدين علاقة من أعمق وأخطر العلاقات، ذلك لأن المفردات اللغوية تكتسب قوتها وسطوتها من حضورها الاجتماعي ومن قوة المؤسسة التي تنتمي لها، ومن الحضور الفاعل لها في الحياة وفي النفس قبل هذا وذاك.

وما من شك أن الدين ترتبط به مفردات وتراكيب وأفكار ينظر لها المخاطبون نظرة إجلال وتقديس، وتربطهم بها علاقة عمودية يكونون في حالة خضوع لها لأنها ترتبط بالمقدس في نفوسهم، وعلى قدر عمق التدين في نفوس المتلقين يكون للغة

---

(١) للمزيد حول سلطة النص ونظرية بارت حول موت المؤلف انظر:
ـ الغذامي، عبد الله (١٩٩٧م): **الخطيئة والتكفير**، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب.
ـ فضل، صلاح (١٤١٩هـ): **نظرية البنائية في النقد الأدبي**، القاهرة، دار الشروق.

التي تتوسل به أعظم الأثر؛ لأن كل مفردة تقع في منطقة خاصة في جهاز الاستقبال لدى المستقبل.

«وكل الدلائل المستنبطة من تجارب عملية تشير إلى أن الكلمات التي تستقبل وهي موضوعة في قالب ديني تتجه إلى إثارة المشاعر، وتستدعي الصورة الثابتة فيها، بشكل آلي دون التمحيص في دلالاتها أو التثبت من منطقيتها، حيث لا تعالج مطلقاً في الجزء الأيسر من الدماغ الجزء الخاص بالمعالجة المنطقية»[(١)].

وهذه الملحوظة في غاية الأهمية إذا أدركنا أن الدماغ يتكون من نصفين، وأن «الدراسات النفسية والفسيولوجية والطبية تتفق على أن النصف الأيسر من الدماغ يتضمن عمليات التحليل المنطقي واللغوي، بينما يتضمن النصف الأيمن من الدماغ عمليات التفكير غير المنطقي كمعالجة العمليات ذات العلاقة بالفراغ والذاكرة المكانية»[(٢)].

والذي يحصل أن المفاهيم والمشاعر الدينية تستثار عبر الكلمات مما ينتج عنه نشاط زائد في الجانب الأيمن من الدماغ

(١) العجمي، فالح شبيب (٢٠٠٣م): اللغة والسحر، ص٤٨.

(٢) حمدان، محمد زيدان (٢٠٠٩م): الدماغ والذكاء والإدراك والتعلم دراسة فسيولوجية، عمان، دار التربية الحديثة، ص٢٧، وهناك اعتراضات على هذا التقسيم من بعض علماء النفس وبعض التفصيلات اللصيقة به، انظر: ليلينفيلد، سكوت وآخرون (٢٠١٣م): أشهر ٥٠ خرافة في علم النفس، ترجمة: محمد رمضان، القاهرة، كلمات عربية، ص٥٤.

الذي يسمح بمرور هذه المفاهيم بغض النظر عن حجيتها ودلالتها، بل بمجرد الإحساس بها والشعور بقيمتها المستقرة سلفاً.

ويفسر هذا رواج بعض الخرافات والمبالغات غير المنطقية عند بعض الطوائف الإسلامية والمبالغة في تقديس الأشخاص والرموز بطريقة غير منطقية، ولا تتصف بالعقلانية مع عدم قبول النقاش أو الحوار أو الأدلة في ذلك.

ويفسر لنا كذلك استقبال بعض المتدينين لبعض المفاهيم المنتسبة للدين أو الصادرة من رموز إسلامية على أنها حقائق مطلقة لا تقبل النقاش والحوار[1]، ويفسر رواج القصص المؤثرة والتي تحمل مضامين دينية رغم أنها لا تثبت ولا أصل لها، ويبين لنا سرعة نشر هذه المقالات والقصص الوعظية عبر كل الوسائل المتاحة دون التثبت والتأكد من صحتها.

٢ ـ أدبية الخطاب:

وهو ما سبق أن تحدثنا عنه وما تقوم به اللغة الإبداعية الأدبية من عمليات برمجية تحيل المتلقي إلى منبهر مسحور أمام جماليات الخطاب، وهو ما يفعله الخطاب الوعظي في مستوياته الراقية لغوياً.

---

(١) يرى كثير من المحللين في السياسية وغيرها أن قوة تنظيم القاعدة تكمن في توظيفها لمقولات دينية تسيطر على شقي الدماغ، للمزيد انظر: اللغة والسحر، ص٥١.

٣ ـ القصّ:

يمكن أن نعتبر (القص/السرد) ضمن دائرة أدبية الخطاب ولكننا نفرده هنا لأمرين:

الأول: أن القص أقوى أنواع الخطابات الأدبية سلطة على المتلقين.

الثاني: لأنه أقرب أنواع الخطابات الأدبية التصاقا بالوعاظ، ولذلك كانوا يسمون بالقُصّاص، جمع قاصّ.

فالخطاب الوعظي كثيراً ما يتكئ على القصص القديمة، أو المحايثة للواعظ من أجل شد الانتباه إليه، والتأثير في المتلقين، وإحكام السيطرة على عواطفهم، وتوجيههم من خلال القصة.

والمتلقي أمام القصة أشبه بالمريد أمام شيخ الطريقة، أو بالميت بين يدي مغسله، يظل منصتاً أو خاشعاً بكل جوارحه، يتابع تموّجات الحبكة القصصية، منتظراً لكل التوقعات، مستشرفاً للحظة التنوير، وحل العقدة القصصية، وهو لا يستطيع أن يشارك بأي نوع من المشاركة، سوى المشاركة الوجدانية لأحداث القصة.

«وإذا ما قارنّا بين تلقّي الشعر وتلقّي القصّ، اكتشفنا كيف أن تلقّي الشعر يرتكز على أساس وثيق، من المشاركة في إنتاجه، فالسامع منفعل بما يسمع، يهتف حيناً ويصفق حيناً، ويطلب الإعادة أحياناً، ويسابق الشاعر إلى نهايات الأبيات، فإذا ما نجح في ذلك، استفزّه الفرح والطرب، واستحسن من الشاعر ذلك،

بينما فرحه واستحسانه، إنّما هو لما أتاحه له الشاعر، من فرصة المشاركة في كتابة النصّ، أما متلقِّي القصة أو الحكاية، فهو مستسلم ساكن، يتلقّى ما يُلقَى عليه، مستغرق في متابعته، والتفكير فيه، وانتظار خاتمته»[1].

وذلك لا يعني خلو النص الشعري من السلطة المؤثرة الخاصة به، لكنه في هذه الخاصية أقل منزلة من القص، ولا يخفى أن القص من معانيه التتبع ومنه سمي قصاص الأثر لأنه يتتبع الأثر على الأرض؛ ليميز صاحبه فهو والقصاص في الفن القصصي يتتبعان آثار الأحداث لدلالة الناس عليها، وهم في شوق لمعرفة ما يخرجانه لهما من هذه الآثار.

وقد ساهم القص الوعظي بالإضافة إلى السلطة على المتلقين في صناعة الرمز/النجم[2]؛ لأن القصص والحكايات والسرد مما يرغب أكثر الناس فيه ويبحثون عنه وكأن النفس البشرية في فطرتها ما يشدها إلى فن القصة؛ ولذلك يتكاثر الأتباع والقراء والمستمعون على القصاص ويتحلقون حولهم، ومن أجل ذلك تروج كتب القصص والروايات.

وبسبب تأثيرها العجيب وسلطتها نجدها من أكثر ما يمكن أن يؤثر في الأطفال رغم حركتهم الدؤوبة ونشاطهم المتزايد، إلا

---

(١) السريحي، سعيد (٢٠٠٢م): شهرزاد تقتل مرّتين: لذّة القصومغريات السرد مقال منشور في جريدة الحياة ٢٩/١/٢٠٠٢م

(٢) لذلك تجد بعض المشاهير في الوعظ كانت بدايتهم قصصاً وعظية لاقت رواجاً وانتشاراً واسعاً.

أنهم أمام الحكاية والقصة يتحولون إلى كيان آخر ساكن يستسلم في نهاية المطاف إلى النوم، والنوم سلطان آخر.

٤ ـ الغرائب والعجائب:

تميل الطبيعة النفسية إلى تتبع العجائب والغرائب من الأحداث والقصص ونحوها، وتستمتع بما فيها، خاصة إذا تعلقت هذه العجائب والغرائب بمفاهيم البطولة والشجاعة والانتصار أو بعض المفاهيم الدينية، أو كانت متعلقة بشخصية ذات طابع رمزي، مما يحقق لها رواجاً كبيراً من جهة، ويحقق لها قوة تأثير على المتلقي من جهة أخرى.

وهذه التقنية يستخدمها بعض الوعاظ من أجل خلق التأثير في المخاطبين منذ القدم، وهذا ما عناه ابن قتيبة بقوله: «والقصاص يمُيلُون وجوه العوام إليهم، ويستدرون ما عندهم بالمناكير والغريب والأكاذيب، ومن شأن العوام القعود عند القاصّ ما كان حديثه عجبا خارجاً عن فطر العقول»[١].

٥ ـ الاستمالات الإقناعية:

في علم الاتصال هناك ثلاث استراتيجيات في التأثير والإقناع وتسمى بالاستمالات وهي: الاستمالات العاطفية، واستمالات التخويف، والاستمالات العقلية، والذي يهم هنا

(١) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (١٣٩٣هـ): **تأويل مختلف الحديث**، بيروت، دار الجيل، ص٢٧٩.

استمالات العاطفة واستِمالات التخويف[1].

تستهدف الاستمالات العاطفية التأثير في وجدان المتلقي وانفعالاته وإثارة حاجاته النفسية والاجتماعية، ومخاطبة حواسه بما يحقق أهداف القائم بالاتصال، وهي هنا تركز على الجانب الوجداني للغة بعيداً عن الحجج والبراهين والأدلة العقلية وتستخدم كل ما من شأنه الحشد العاطفي والوجداني وتحقق بذلك تأثيراً على نفسية ومشاعر المتلقي.

أما استمالات التخويف فتشير إلى النتائج غير المرغوبة التي تترتب على عدم اعتناق المتلقي لتوصيات القائم بالاتصال، وتعمل استمالات التخويف على تنشيط الإثارة العاطفية لدى المتلقي، وغالباً ما تكون التخوفات التي يبثها الوعاظ ذات أثر كبير؛ لأنها تتعلق بأمور الآخرة ومصير الإنسان، وفي حالة التخوف يكون الإنسان في وضع شبه استسلام بحثا عن المأمن.

وكلما كان مصدر هذه الاستمالات مصدراً له موثوقية كبيرة كان أثر الاستمالة وسلطتها أشدّ على المتلقي، وفي الخطاب الوعظي الديني يتكئ على مصدري القرآن والسُّنَّة بغض النظر عن مدى صحة استدلال الواعظ بها، ولكن مجرد الاعتماد عليها يمكنه من تثبيت تأثيره وسلطته على المتلقين.

---

(١) للمزيد حول الاستمالات الإقناعية في رسائل الاتصال يمكن الاطلاع على:
- مصطفى، معتصم بابكر: **أساليب الإقناع في القرآن الكريم**، سلسلة كتاب الأمة، عدد رقم (٩٥).

٦ ـ ما وراء اللغة:

الوعظ ليس خطاباً لغوياً صرفاً يعتمد فقط على دلالات اللغة الظاهرة بل هناك ما يمكن تسميته ما وراء اللغة، مما يسهم في التأثير والسلطة على المتلقين.

يحدثنا القرآن في آية يخاطب بها الله تعالى نساء النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فالخضوع هنا بمعنى إمالة الكلام وإلانته... وهو تعبير مباشر عن نمط الاتصال غير اللفظي، الذي يستخدم خصائص ما وراء اللغة... والنهي عن تليين الكلام مرتبط بفعالية وتأثير هذه الرسالة غير اللفظية، حتى ولو تناقضت مع ظاهر الكلام، بما تثير من توقعات وآمال عند ذوي القلوب المريضة[١]، فالله يرشد أزواج النبي ﷺ إلى «دقائق من الأخلاق قد تقع الغفلة عن مراعاتها لخفاء الشعور بآثارها، ولأنها ذرائع خفية نادرة تفضي إلى ما لا يليق بحرمتهن في نفوس بعض من اشتملت عليه الأمة، وفيها منافقوها»[٢].

وهذا الخفاء وهذه الدقة هي ما نقصده بما وراء اللغة، إذ

---

(١) عبد الصمد، محمد كامل (١٩٩٣م): **الإعجاز العلمي في الإسلام**، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ص١٦، وانظر كذلك: المرجع السابق.

(٢) ابن عاشور، محمد الطاهر (١٤٢٠هـ): **التحرير والتنوير**، بيروت، مؤسسة التاج العربي، ٢١/ ٢٤٠.

نعني بها كل الأدوات غير الملفوظة لغوياً والتي من شأنها إحداث التأثير في المتلقي من الصوت والإشارة وتعابير الجسد، وكثيراً ما يتفنن الوعاظ في ذلك بقصد إحداث تأثيرات في المتلقين إما عن طريق البكاء أو رفع الصوت وخفضه والمدود وارتعاش النبرات وغير ذلك.

وهي أدوات مشروعة ما دامت تحقق هدفا مشروعا من الاتصال الوعظي، وليس فيها تدليس أو تشويه للحقائق العلمية والشرعية، وليست مجرد تمثيل وتقليد صوتي.

وأمام سلطة الوعظ يمكن أن نشير إلى حديث النبي ﷺ: **«لا يقص إلا أمير، أو مأمور، أو متكلف»** وفي رواية: **«أو مختال»**[1].

ومن خلال هذا الحديث تتضح العلاقة القوية بين الوعظ والسلطة في مستواها الحقيقي حتى صار الوعظ مختصاً إما بالأمير

---

(١) ـ أحمد بن حنبل (د.ت): **مسند الإمام أحمد**، ٦/ ٢٣، رقم ٢٣٩٧٤.
ـ أبو داود، سليمان بن الأشعث (د.ت): **سنن أبي داود**، بيروت، دار الكتاب العربي ٣/ ٣٦٢.
ـ البخاري، محمد بن إسماعيل (٢٠٠٩م): **التاريخ الكبير**، بيروت، دار الكتب العلمية، ٣/ ٢٦٦، رقم (٩١١).
ـ الطبراني، سليمان بن أحمد (١٤١٥هـ): **المعجم الكبير**، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ١٨/ ٦٢، رقم (١١٤)، وللحديث طرق كثيرة، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير، وإسناده حسن، انظر: الهيثمي، علي بن أبي بكر (١٤١٢هـ): **مجمع الزوائد**، بيروت، دار الفكر، ١/ ١٩٠، وقد صحح الحديث شعيب الأرنؤوط كما في المسند.

صاحب السلطة الحقيقية أو بمن يوليه الأمير فيكون أميراً صاحب سلطة بالنيابة أو بمن يختال ويتكلف فكأنه ولي السلطة ادعاء وتكلفاً.

إن سلطة الوعظ من أهم ما يفرض على الباحثين ضرورة مراجعة الخطاب الوعظي خوفاً من انحرافه عن الجادة، وما يترتب على الانحراف من تضليل للناس، وتجييش لهم في مسالك الخرافة والبدع، وربما تعدى ذلك إلى الاحتراب والاقتتال واستحلال الدماء.

وربما تكون هذه القضية هي أحد أسباب تحذير بعض السلف من القصاص والوعاظ والجلوس إليهم، ومن الواضح في كثير من قصصهم أن العوام كانوا يلتفون حولهم ويثورون من أجلهم، ولا يلقون بالاً للعلماء والفقهاء ومن ذلك أن أحد القصاص زعم أن النبي يجلس مع الله على عرشه في شرحه لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩]، فبلغ ذلك الإمام الطبري وغضب وأنكر ذلك وكتب على باب داره: سبحان من ليس له أنيس ولا له على عرشه جليس، فثارت عليه عوام بغداد، ورجموا بيته بالحجارة حتى استدّ بابه[1]، إنها سلطة لا يمكن أن تقاوم إذا

---

(١) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (١٣٩٤هـ): **تحذير الخواص من أكاذيب القصاص**، بيروت، المكتب الإسلامي، ص١٦١.

وهناك الكثير من القصص التي تبين سلطة القصاص وتأثر الناس بهم، ويمكن مراجعة كتاب القصاص والمذكرين لابن الجوزي، والإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لمحمد أبو شهبة.

استفحل أمرها وقد تقلب حين ذاك الحقائق فتجعل الباطل حقا، والحق باطلاً.

ولذلك قال النبي ﷺ: «**إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً بقوله، فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها**»[1]، وبمفهوم هذا الحديث فسر ابن صوحان قول النبي ﷺ السابق: «**إن من البيان لسحراً**»، قال الحافظ في الفتح: «قول صعصعة بن صوحان في تفسير هذا الحديث ما يؤيد ذلك، وهو أن المراد به الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجة من صاحب الحق، فيسحر الناس ببيانه فيذهب بالحق»[2]، ويؤيد ذلك الرواية الأخرى في البخاري أيضاً «**أبلغ من بعض**»[3].

فسلطة الوعظ قد تجعل من الباطل حقاً، وقد تزيّن القبيح، وتجعل من المفسدة مصلحة، وقد تكون سلطة تزيد الحق نوراً وبياناً.

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ٣/ ٢٣٥، حديث رقم (٢٦٨٠)، ومسلم بن الحجاج (د.ت): **صحيح مسلم**، ١٢٨/٥، حديث رقم (٤٥٧٠).

(٢) ابن حجر، أحمد بن علي (١٣٧٩هـ): **فتح الباري**، ٢٣٨/١٠.

(٣) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ٣/ ١٧٢، حديث رقم (٢٤٥٨).

نحو رؤية تأصيلية

- هدف الوعظ.
- لا يقص إلا أمير أو مأمور أو مختال.
  ١ ـ معنى القص.
  ٢ ـ معنى النفي.
- موقف السلف من الوعظ.
- الوعظ والسلطة.
- الوعظ وبراءة الكذب!
  أ ـ مستوى النقل والرواية.
  ب ـ مستوى تعمد الكذب.

«آخر الأشياء نزولاً من قلوب الصالحين حب السلطة والتصدر»

[الشاطبي]

هدف الوعظ

تحدثنا في مفهوم الوعظ وسماته عن التأثير باعتباره من أبرز سمات الخطاب الوعظي وباعتباره هدفاً للوعظ، ولكننا أشرنا إلى أنه ليس الهدف الغائي للوعظ، وإنما يتوسل به لهدف أكبر هو ما نحاول تحريره هنا.

وتكمن أهمية معرفة الأهداف في أي عمل أو خطاب في تقييم هذا العمل والخطاب ومدى نجاحه أو إخفاقه، كما أنها تساهم في تأطير العمل بحيث لا يخرج إلى مسارات أخرى لا ترتبط به من قريب أو بعيد.

ولذلك تعد الأهداف من أبرز سمات علم الإدارة والتخطيط حتى ظهرت نظرية الإدارة بالأهداف من أجل تحقيق أعلى درجات الانضباط في العمل[١].

---

(١) حول الإدارة بالأهداف انظر: عامر، سعيد يس (١٩٩٧م): **الإدارة بالأهداف**، القاهرة، مركز التميز لعلوم الإدارة والحاسب الآلي.

ولا مانع أن نقتبس هذه الفكرة في جوهرها العام للإفادة منها في التطوير والنجاح في الخطاب الوعظي أو غيره من الخطابات الشرعية والأعمال الدعوية، على أن أساس الفكرة أصلاً نابع من سؤال لماذا أعمل هذا؟

وهو نفسه سؤال النية والإرادة المرجوة من وراء الخطاب، وتأتي الإجابة على ذلك على مستويين: مستوى غيبي إيماني قيمي وهو الذي يعبر عنه علماء السلوك والتصوف بالإخلاص، ويقصدون به إرادة وجه الله وحده بالعمل وانصراف القلب عن غيره من المقصودات، وهو مستوى مطلوب ومهم جداً من أجل حصول الأجر وتمام الفضل، ومن أجل تحسين العمل ودوام المراقبة، وسلامة النفس من الحظوظ التي تمنعها من الإتقان أو تقبل النقد والتصحيح أحياناً.

أما المستوى الآخر فهو المستوى المشاهد ويخص العمل وليس العامل والخطاب وليس صاحب الخطاب وهو سؤال الثمرة والنتيجة ماذا تريد من هذا لعمل؟ وما هي ثمرته ونتائجه؟ وهذا المستوى مهم في تحديد مسار العمل وعدم خروجه عن إطاره العام إلى إطارات أخرى.

وعليه يمكن أن نتساءل بكل وضوح ما هدف الوعظ؟ وهذا سؤال في النظرية؟ ينتج عنه سؤال الواقع هل يسير الوعظ باتجاه هذا الهدف أو هو خارج عنه؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال نود أن نعرج قليلا على

مسألة التأثير ونتساءل هل هو هدف الوعظ؟ ذلك لأن كثيرين يظنون أن الهدف الغائي للوعظ هو التأثير في الناس؟

ونشير هنا إلى أن التأثير يكون عادة على مستويين:

المستوى الأول: التأثير الآني اللحظي الذي تحدثه الموعظة في النفس من اهتزاز وما يقع في القلب من تأثر ولين.

المستوى الثاني: تأثير بعيد المدى ويقصد به إحداث تغيير في سلوك المخاطبين، ونقلهم من دائرة المعصية إلى دائرة التوبة، وتعديل الأخطاء في المجتمعات.

أما المستوى الأول فهو وإن كان مطلوباً بل صار سمة يتميز بها الخطاب الوعظي عن غيره، إلا أنه ليس الهدف الغائي كما مر معنا، بل هو هدف مرحلي قد يتحول إلى وسيلة من أجل الهدف الأكبر للوعظ.

وليس من الخطأ أن هذا التأثير لحظيٌّ أو وقتي، فهو خاضع للطبيعة البشرية التي تتميز بطابعين طابع التذكر والانتباه وطابع النسيان والغفلة، وكل طبيعة تخضع للظرف الآني وملابساته وهو ما عبر عنه الصحابي الجليل حنظلة عندما شكى إلى النبي ﷺ قائلاً: «نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: **وما ذاك؟** قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً، فقال رسول الله ﷺ: **والذي نفسي بيده إنكم لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر، لصافحتكم**

الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات»[1].

ويعلق النووي على هذا الحديث بقوله: «أعلمهم النبي ﷺ أنه ليس بنفاق، وأنهم لا يكلفون الدوام على ذلك»[2] لأن هذا ليس بمقدور النفس البشرية وإلا لصافحتهم الملائكة في الطرقات.

وعليه ليس صحيحاً ما يعيب به بعض النقاد الخطاب الوعظي بأنه خطاب عاطفي لحظي لا يدوم أثره، ولا يستمر تغييره، وإنما الخطأ الذي نود الإشارة إليه أن يتحول التأثير إلى هدف غائي للوعظ يسعى الواعظ إلى تحقيقه بأي أسلوب كان من أجل أن يستدر عواطف الناس ويرقق قلوبهم ويذرف دموعهم؛ ولأجل هذا تجد بعضهم يتكلف في الصوت والأداء بما يخرج عن المعتاد والمقبول؛ وربما افتعل القصص المؤثرة وبالغ في الأوصاف بما يخرجه عن حد الصدق، وقد يستخدم بعضهم الصور البشعة والمنفرة والمفزعة، ويقيس نجاح خطابه بعدد المتأثرين من الذين ذرفت عيونهم ولانت قلوبهم!

إن التأثر نتيجة طبيعية للوعظ المسترشد بالوحي، ينتج عن المضامين الشرعية القائمة على الترغيب والترهيب، وعن البيان

---

(١) مسلم بن الحجاج (د.ت): صحيح مسلم، ٨/ ٩٤، حديث رقم (٧١٤٢).

(٢) النووي، يحيى بن شرف (١٣٩٢هـ): شرح صحيح مسلم، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٩/ ١١٤.

البلاغي المتميز وما عدا ذاك من الأساليب والمضامين غير المشروعة فهو خروج بالوعظ عن سبيله القويم.

وليس من شرط التأثير أن تذرف عيون المستمعين أو القراء، إذ قد يكون التأثير داخلي في أعماق النفس تشعر به ولا تراه.

وعليه فإن الهدف الذي يراد للوعظ أن يحققه هو تعميق الإيمان في نفوس الناس وهدايتهم إلى الحق والخير وصرفهم عن الضلال والشر، إنه عملية يراد بها نقل القلب من حال الغفلة إلى التذكر، ومن حال الشك والتردد إلى الإيمان العميق، كما قال تعالى ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

ويرصد ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ هذا التحول من الاهتمام بالمقاصد العظمى إلى ما دونها والانشغال بها فيقول في نص مطول في غاية الأهمية: «وكذلك كانت خطبته ﷺ إنما هي تقرير لأصول الإيمان: من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، وذكر الجنة والنار، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته، فيملأ القلوب من خطبته إيماناً وتوحيداً ومعرفة بالله وأيامه، لا كَخُطَب غيره التي إنما تفيد أموراً مشتركة بين الخلائق، وهي النوح على الحياة والتخويف بالموت، فإن هذا أمر لا يحصّل في القلب إيماناً بالله، ولا توحيداً له ولا معرفة خاصة به، ولا تذكيراً بأيامه، ولا بعثاً للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة غير أنهم

يموتون، وتقسم أموالهم ويبلي التراب أجسامهم، فيا ليت شعري أيُّ إيمانٍ حصل بهذا؟ وأيُّ توحيدٍ ومعرفة وعلم نافع حصل به؟

ومن تأمل خطب النبي ﷺ وخطب أصحابه، وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد وذكر صفات الرب ﷻ وأصول الإيمان الكلية والدعوة إلى الله وذكر آلائه تعالى التي تحببه إلى خلقه، وأيامه التي تخوفهم من بأسه، والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه، فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه إلى خلقه، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحببهم إليه، فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم، ثم طال العهد وخفي وصارت الشرائع والأوامر رسوماً تقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها، فأعطوها صورها وزينوها بما زينوها به، فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغي الإخلال بها، وأخلوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها، فرصّعوا الخطب بالتَّسْجيعِ والفِقَر وعلم البديع، فنقَصَ بل عدم حظُّ القلوب منها وفات المقصود بها»[1].

وحين يركز الواعظ وعظه على هذا الهدف المقاصدي الذي أشار إليه ابن قيم الجوزية وهو حظ القلوب من حب الله وتعظيمه، فإن مضامينه وأساليبه في الوعظ تصب في هذا الاتجاه ولا تخرج عنه؛ لأنه محور العملية الوعظية فهو التزكية التي تشمل تزكية الدنيا وتزكية الآخرة.

---

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (١٤١٢هـ): زاد المعاد في هدي خير العباد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١/٤٠٩.

إن الخطاب الوعظي يحتاج في مراجعاته المستمرة إلى الارتباط بمقاصده التي أشار إليها ابن القيم، وهي تزكية القلوب وإصلاح النفوس وحث الناس على الخير ونهيهم عن الشر ترغيباً وترهيباً، وفي سؤال المراجعة يتم تقييم الواعظ لنفسه ومدى التزامه بتحقيق هدف الوعظ، ولا يفهم من كلامنا هذا أننا ننزع صفة التأثير عن الوعظ بل هو سمة بارزة فيه، لكن لا تتحول هذه السمة إلى هدف غائي تجعل الواعظ يفعل من أجله كل ما أمكنه ولو كان شيئاً غير مشروع.

لا يقص إلا أمير أو مأمور أو مختال

هذا الحديث سبق أن مر معنا وهو قول النبي ﷺ: «**لا يقص إلا أمير أو مأمور أو مختال**»[1]، وفيها رواية «**متكلف**» وفي أخرى «مراءٍ».

وهذا النص بحاجة إلى قراءة في بعض معانيه التي تساعد في معالجة الخطاب الوعظي بمنهج نبوي، ونحتاج أن نجيب على أسئلة مطروحة للبحث والمناقشة.

١ ـ معنى القص:

من المتبادر إلى الذهن هنا السؤال عن المراد بالقص في هذا الحديث، وهل هو المعنى الذي يعرف به بعض العلماء القص وهو الحديث بأخبار الماضين فحسب أو هو شامل للوعظ والتذكير، أو غير ذلك؟

(١) سبق تخريجه انظر صفحة (٦٦) من هذا الكتاب.

والذي يظهر والله أعلم أن هذا الحديث إشارة مبكرة إلى أن معنى القص لا يعني فقط ما يتناقله بعض طلبة العلم من أنه مقصور على الإخبار بأحاديث الماضين بل هو مصطلح أشمل من ذلك، كما مر معنا.

ونجد بعض العلماء قصر معنى القص هنا على الخطب، وينقل الخطابي عن ابن سريج قوله: «هذا في الخطب وذلك أن الأمراء كانوا يتولونها بأنفسهم فيقصون فيها على الناس ويعظونهم»[1].

ومنهم من قصره على الفتيا ونقل ذلك أيضا الخطابي[2]، وبعض العلماء على أن الحديث يشمل القصاص والوعاظ والمذكرين ونحوهم كما قال الطيبي رحمه الله: «القص: التحدث بالقصص، ويستعمل في الوعظ... وكل من وعظ وقص داخل في غمارهم»[3]، «فالقص: التكلم بالقصص والأخبار والمواعظ»[4]، والذي يظهر أن تخصيصه بالفتيا أو خطبة الجمعة لا دليل عليه فيبقى المعنى على عمومه الشامل للوعظ والتذكير

---

(١) الخطابي: أحمد بن محمد (١٤٠٢هـ): غريب الحديث، تحقيق: عبد الكريم الغرباوي، جامعة أم القرى، ١/ ٦١٥، وكذلك في معالم السنن، ٤/ ١٨٨.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الطيبي، حسين بن محمد (١٤١٧هـ): شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، باكستان، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، ١/ ٣٩٧.

(٤) العظيم آبادي، محمد شمس الحق (د.ت): عون المعبود، المدينة المنورة، المكتبة السلفية، ٩/ ٥٥٤.

الذي أشار إليه بعض العلماء[1].

٢ ـ معنى النفي:

قد يتوهم متوهم أن (لا) في مطلع الحديث للنهي، وليس الأمر كذلك كما أشار إلى ذلك الطيبي بقوله: «لا يقص ليس بنهي، بل هو نفي وإخبار؛ أي: هذا الفعل ليس بصادر إلا عن هؤلاء الثلاثة... هذا كما إذا رأيت أمراً خطيراً قلت: لا يخوض في هذا العمل إلا أحد رجلين، حكيم عارف بكيفية الورود فيها والصدور عنها، أو غَمْرٌ جاهل، لا يدري كيف يدخل فيها ويخرج منها فيهلك... ولو حمل الحديث على النهي الصريح لزم أن يكون المختال مأموراً»[2]، قال ابن الأثير: «أي: لا ينبغي ذلك إلا لأمير يعظ الناس ويخبرهم بما مضى ليعتبروا...»[3].

ولكن هل يفيد هذا النفي والاستثناء بما وإلا تحريم الوعظ والقص إلا للأمراء أو من يأذنون لهم؟

ذهب بعض أهل العلم إلى ذلك معتبرين أن الوعظ ولاية دينية فكل من قص أو وعظ أمره موكول إلى الولاة[4]، وهو من

(١) انظر: ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر، ٤/١١٣، والمناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير، ٢/٩٧٦

(٢) الطيبي، حسين بن محمد (١٤١٧هـ): شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، ١/٣٩٧.

(٣) ابن الأثير، محمد أبو السعادات (١٣٩٩هـ): النهاية في غريب الأثر، بيروت، المكتبة العلمية، ٤/١١٣.

(٤) السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال وآخرون (٢٠٠٧م)، شرح سنن ابن ماجه، ١/ ٢٦٦.

وظائف إمام المسلمين فإن شاء خطب بنفسه وإن شاء نصب نائباً عنه، فالوعاظ والقصاص لا ينبغي لهم الوعظ والقصص إلا بأمر الإمام وإلا لدخلوا في المتكبرين[1].

واستدلوا بخبر استئذان تميم الداري من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وهذا القول الذي يرى أن هذا الحديث وغيره من الأدلة الأخرى التي توجب منع الناس من الوعظ ما لم يصرح لهم الإمام بذلك يدل دلالة واضحة على خطورة شأن الوعظ، وما يمكن أن يترتب عليه فيما لو ترك الحبل على الغارب دون انضباط علمي وتنظيمي.

لكن تبقى إشكالية تعليق الأمر بالسلطة والأمراء إذ ليس كل أمير يتقي الله في اختيار الأصلح والأكفأ، وفي ذلك تحجير للناس على قول الحق والخير وتضييق عليهم، قال القاضي سعد الدين الحارثي: «والصحيح عدم اعتبار الإذن؛ لأن الطاعات لا تتوقف على ذلك؛ لأنه ربما أدى إلى التعطيل، ولفعل السلف»[2].

والحق أن المسألة تحتاج إلى نظر من جهتين:

الأولى: أن اشتراط إذن الأمير في الوعظ والتدريس ونحوه يفضي إلى زيادة تسلطهم، واختيار من يلائمهم ويعينهم على ما يريدون في سلطتهم، ويمنعون من لا يلائمهم عن هوى وتجبر.

---

(١) العظيم آبادي، محمد شمس الحق (د.ت): **عون المعبود**، ٩/ ٥٥٥.

(٢) ابن مفلح، عبد الله بن محمد (١٤١٩هـ): **الآداب الشرعية**، ٣/ ٣٩٠.

الثاني: أن عدم الاشتراط يفضي كذلك إلى أن يتوسع الناس فيعظ ويذكر ويقص أهل الجهل والدجل، ويدخل في هذا الباب من ليس له أهل وهو ما شهده التاريخ ونشهده إلى يوم الناس هذا.

وعليه يمكننا أن نقول إن السلطة إذا كانت سلطة شرعية وولاية عن شورى ورضا من الأمة مدركة لمصالح الناس ساعية فيها فينبغي أن يكون لها شأن في منع من لا يصلح لهذا المكان من باب كف الأذى عن الناس، وحماية الدين من تلاعب الدجالين والمنتفعين والكذابين.

أما في حال كانت الأمة تحت وطأة المستبد المتغلب الظالم فإن إسناد مثل هذا الأمر إليه يمكّنه من العبث بدين الناس، وتكليف من لا يرقب في الناس إلّاً ولا ذمة، ولذلك كان العلماء يعظون ويحدثون دون أن يذكر أحد أنهم كانوا يأخذون في ذلك الإذن إلا ما كان من خبر تميم الداري مع عمر؛ لقرب العهد بالنبوة والخوف من الابتداع ولأنه سيكون في مدينة رسول الله ﷺ.

أما ما يخص الوعاظ ونحوهم فينبغي أن يكون لديهم من الوازع الديني ما يمنعهم من الوقوع في الصنف الثالث أهل الكبر والخيلاء والتكلف، «فعلى كل واحد منهم زاجر من نفسه أن لا يتصدى لما ليس له بأهل»[1]، وعلى الأمة حق الاحتساب عليهم ومنعهم من الوعظ والتذكير إن كان عن جهل وطيش وعدم حكمة.

---

(١) المرجع السابق.

ويحمل حديث النبي ﷺ على حكاية الغالب من أمر الوعظ والقص، وأن من يقوم به إما أن يكون أميراً أو مكلفاً بهذا الأمر أو يكون ممن دخل في قلبه الكبر والخيلاء وحب الظهور، وهذا يجعل الوعاظ أمام هذا المحك النفسي والمحاسبة الدقيقة، خاصة أن الوعظ هو مظنة اجتماع الجماهير والانتفاع بهم والاغترار بكثرتهم، والاعتداد بالنفس.

ويحدثنا المناوي عن دخول الكبر والخيلاء إلى نفس الواعظ فيقول: «القاص: الذي يقص على الناس ويعظهم ويأتي بأحاديث لا أصل لها، يعظ ولا يتعظ ويختال ويرغب في جلوس الناس إليه (ينتظر المقت من الله تعالى)[1]؛ لما يعرض في قصصه من الزيادة والنقصان؛ ولأنه مستهدف لكيد الشيطان فهو يقول له: أما تنظر إلى الخلق فهم موتى من الجهل، هلكى من الغفلة، قد أشرفوا على النار؟ أما لك رحمة على عباده تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك، وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذَلِقٍ ولهجة مقبولة، فكيف تكفر نعمته وتتعرض لسخطه وتسكت عن إشاعة العلم ودعوة الخلق إلى الصراط المستقيم، فلا يزال يستدرجه بلطائف الحيل حتى يشتغل بوعظ الناس، ثم يدعوه إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ وإظهار الفصاحة، ويقول إن

(١) جزء من حديث: «القاص ينتظر المقت...» عند الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٤٢٦، وهو حديث موضوع. انظر: الألباني، محمد ناصر الدين (١٤١٢هـ): سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الرياض، دار المعارف، ٩/٦٦، حديث رقم (٤٠٧٠).

لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلبهم، ولم يهتدوا إلى الحق، فلا يزال يقرر ذلك، وهو في أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء، ولذة الجاه والتعزز بكثرة العلم، والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار؛ ليستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك والمقت، فيتكلم ظانّاً أن قصده الخير، وإنما قصده الجاه والقبول، فيمقته الله وهو يظن أنه عنده بمكان»[١].

وقد ذكر الغزالي في الإحياء أن منصب الوعظ كثير الآفات وأدعى للرياء والتصنع عزيز فيه الإخلاص[٢].

ولا شك أن حديث النبي يشير بشكل قوي إلى هذه الحقيقة النفسية التي حاول المناوي ببراعة أن يسبر أغوارها ويتلمس وجودها، وهذا يستدعي أن يخلص الواعظ نفسه من هذا الوصف الذي يكاد يكون ضربة لازب إلا من رَحِمَهُ اللهُ وزكاه.

ويمكن أن نضبط ما سبق في النقاط التالية:

- أن لفظ القص يراد به مطلق الوعظ والتذكير منذ فترة مبكرة بناء على ورود ذكره على لسان المصطفى ﷺ.
- أن الأمة إذا كانت سلطتها عن رضاها واختيارها شرعاً وعقلاً، فلهذه السلطة أن تضع من التدابير ما يضبط الوعظ والتذكير بما لا يلحق ضرراً على الناس ويشوه الدين، وما لا يتدخل في منع الناس من البلاغ الحق بعلم وحكمة.

---

(١) المناوي، محمد بن علي (١٤١٥هـ): فيض القدير، ٦٩٦/٤.

(٢) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (د.ت): إحياء علوم الدين، ٣٢٨/٣.

- أن الوعاظ يجب أن يكون عليهم وازع من أنفسهم يقيهم شرّ وصف الكبر والخيلاء والتكلف.
- أن تحتسب الأمة على أهل الوعظ بما يردع السفهاء والدجالين منهم ويمنعهم من تضليل الناس والإضرار بهم.
- الغالب على الوعاظ الرياء والخيلاء والله العاصم.

موقف السلف من الوعظ

مر سابقاً أن فكرة القص والوعظ كانت طارئة وحادثة على المجتمع الإسلامي بمعنى أنه لم يكن هناك مجالس للوعظ وأناس مختصون في ذلك مهمتهم الوعظ والقص، وهذا لا ينفي أن النبي ﷺ وعظ وذكر وكذلك كبار الصحابة، ولكنه لم يكن في مجالس خاصة أو على الهيئة التي أحدثت بعد ذلك.

ولذلك فإننا نجد بعض السلف من الصحابة ومن بعدهم وقف موقفاً مانعاً للقص وكان أكبر مستند لهم في هذا الموقف أنه بدعة لم يفعلها الرسول ﷺ ولا الخلفاء الراشدون، قال ابن عمر رضي الله عنه: «لم يقص على عهد رسول الله ﷺ، ولا أبي بكر ولا عمر، ولكنه شيء أحدثوه بعد عثمان»[1]، ولذلك لما وقف ابن مسعود رضي الله عنه على عمرو بن زُرارة وهو يقص قال له: «يا عمرو

(١) المرجع السابق، ٥/٤٦٣.

لقد ابتدعت بدعة ضلالة، أو إنك لأهدى من محمد ﷺ وأصحابه»[1].

وهذا الرأي قاله به مع ابن مسعود وابن عمر وصِلة بن الحارث، وغضيف بن الحارث، وسفيان الثوري، وابن سيرين والنخعي والأعمش[2].

ومن الواضح أن الدافع الأكبر للوقوف في وجه هذه الظاهرة الجديدة هو التصدي للبدعة المحدثة، خاصة وأن ابن عمر وابن مسعود ممن عرفا بالتصدي للبدع ودفعها.

وإلى هذا السبب المهم أشار ابن رجب الحنبلي بقوله: «وإنَّما عنى هؤلاء بأنَّه بدعة: الهيئة الاجتماعية عليه في وقت معين، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يكن له وقت معيَّن يقصُّ على أصحابه فيهِ غير خطبه الراتبة في الجُمَعِ والأعياد، وإنَّما كان يذكرهم أحياناً، أو عندَ حدوث أمرٍ يحتاجُ إلى التَّذكير عنده»[3].

ويرصد ابن الجوزي في كتاب القصاص والمذكرين الأسباب التي جعلت بعض السلف يكره القصص ويحذر منها فذكر ستة أسباب هي:

١ ـ أحدها أن القوم كانوا على الاقتداء والاتباع، فكانوا إذا رأوا ما لم يكن على عهد رسول الله أنكروه.

---

(١) الطبراني، سليمان بن أحمد (١٤١٥هـ): **المعجم الكبير**، ٩/١٢٧.

(٢) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤٠٩هـ): **كتاب القصاص والمذكرين**، ص١٠.

(٣) ابن رجب، عبد الرحمٰن بن أحمد (١٤٠٨هـ): **جامع العلوم والحكم**، بيروت، دار المعرفة، ص١٩٦.

٢ ـ أن القصص لأخبار المتقدمين تندر صحتها، خصوصاً ما ينقل عن بني إسرائيل، وفي شرعنا غنية.

٣ ـ أن التشاغل بذلك يشغل عن المهم من قراءة القرآن، ورواية الحديث، والتفقه في الدين.

٤ ـ أن في القرآن من القصص وفي السُّنَّة من العظة ما يكفي عن غيره مما لا تتيقن صحته.

٥ ـ أن أقواماً ممن يدخل في الدين ما ليس منه قصوا، فأدخلوا في قصصهم ما يفسد قلوب العوام.

٦ ـ أن عموم القصاص لا يتحرون الصواب ولا يحترزون من الخطأ؛ لقلة علمهم وتقواهم.

لكنه يعلق بعد ذكر هذه الأسباب قائلاً: «فلهذا كره القصص من كرهه، فأما إذا وعظ العالم، وقصّ من يعرف الصحيح من الفاسد؛ فلا كراهة»[1].

وابن الجوزي يتخذ موقفاً وسطاً من الوعظ والقص بين الكارهين له على الإطلاق والمجيزين له على الإطلاق.

ثم إن هذه الأسباب الستة لم تكن وحدها هي التي جعلت بعض السلف يقف هذا الموقف من الوعظ والقص، بل مع مرور الزمن طرأ على الوعظ ملابسات أخرى انحرفت به بدرجات أكبر عن الجادة حتى قال ابن الأخوة: «وفي زماننا هذا لا يطلب

---

(١) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤٠٩هـ): كتاب القصاص والمذكرين، ص٣.

الواعظ إلا لتمام شهر ميت أو لعقد نكاح أو لاجتماع هذيان، ولا يجتمعون الناس عنده لسماع موعظة ولا لفائدة، وإنما صار ذلك من نوع الفرح واللعب والاجتماع، ويجري في المجلس أمور لا تليق من اجتماع الرجال والنساء ورؤية بعضهم لبعض، وأشياء لا يليق ذكرها وهذا من البدع المضلة وكان الأولى حسم الباب في ذلك والمنع منه»[1].

والذي يظهر أن بعضاً من المتصوفة وغيرهم بالغوا في مجالس الوعظ، وأحدثوا فيها أموراً لم تكن معهودة، واتخذوا مضامين جديدة تناسب مذاهبهم ونحلهم في وعظهم.

ومن الأسباب الجوهرية التي نقف عندها بعناية هو التمايز الذي كان يحرص السلف على أن يظل واضحاً جلياً بين حديث القلوب وحديث العقول، بين الخطاب العلمي الفقهي الذي يراد به التفقه في الدين ومعرفة الحلال والحرام، وبين الخطاب الذي يراد منه هز النفوس وتذكيرها ونقلها من الغفلة إلى الذكرى، بحيث يكون العلم هو الخطاب السائد لا يزاحمه غيره، وهذا واضح من الكلام السابق لابن الجوزي من أن القصص يشغل عن الأهم من القرآن والتفقه في الدين.

ولذلك قال أبو قلابة: «ما أمات العلم إلا القصاص يجالس الرجلُ الرجلَ القاصَّ سُنَّة فلا يتعلق منه بشيء، ويجلس إلى

(١) ابن الأخوة، محمد بن محمد (د.ت): معالم القربة في أحكام الحسبة، ص٢٣٥.

العالم فلا يقوم حتى يتعلق منه بشيء»[1].

ويعلق ابن الجوزي على كلام أبي قلابة بقوله: «أكثر كلام الواعظ الرقائق، فإذا تشاغل الإنسان بسماعها عن الفقه قل علمه»[2].

وهذا الحرص على التمايز بين الخطابين عند السلف هو ما عناه عبد الله بن عون عالم البصرة المتوفى سنة ١٣٢هـ حين قال: «أدركت هذا المسجد، مسجد البصرة، وما فيه حلقة تنسب إلى الفقه إلا حلقة واحدة تنسب إلى مسلم بن يسار، وسائر المسجد قصاص»[3].

ولذلك قال أبو عامر العقدي[4]: أنا كنت سبب عبد الرحمٰن بن مهدي[5] في الحديث، كان يتّبع القصاص فقلت له: «لا يحصل في يدك من هؤلاء شيء»[6].

---

(١) أبو نعيم، أحمد بن عبد الله (١٤٠٥هـ): **حلية الأولياء**، بيروت، دار الكتاب العربي، ٢/٢٨٧.

(٢) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤٠٩هـ): **كتاب القصاص والمذكرين**، ص١٤٢.

(٣) المرجع السابق، ص١٧٢.

(٤) الإمام، الحافظ، محدث البصرة، أبو عامر عبد الملك بن عمرو القيسي، العقدي، البصري من مشايخ الإسلام، وثقات النقلة مات سنة (٢٠٤هـ)، انظر: الذهبي، محمد بن أحمد (١٤٠٢هـ): **سير أعلام النبلاء**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ٩/٤٧١.

(٥) عبد الرحمٰن بن مهدي بن حسان بن عبد الرحمٰن العنبري الإمام، الناقد، المجود، سيد الحفاظ، أبو سعيد العنبري، توفي سنة (١٩٨هـ)، المرجع السابق، ٩/١٩٣.

(٦) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤٠٩هـ): **كتاب القصاص والمذكرين**، ص١٤٣.

وهذه الملاحظة التي نرصدها هنا في معرفة التمايز بين خطين من التفكير في نسيج المجتمع يدل دلالة واضحة على حرص كثير من السلف على الحفاظ على العلم القائم على التفكير والتأمل والعمليات العقلية أمام الخط الآخر القائم على الجانب الوجداني بحيث لا يطغى ويذوب فيه التفكير، ويتحول المجتمع إلى مجموعة غير مفكرة وغير فاعلة وبينها وبين العمليات العقلية مسافات، وتتحول إلى مجموعات انفعالية، ذلك أن الخطاب الوعظي مهمته التذكير وليس التأسيس، فإذا حصل انقلاب في هذه المعادلة فتحنا الباب على مصراعيه لدخول البدع والخرافات والأكاذيب لأنه لا فقه ولا عقل يردعها!

وعليه فإننا يجب أن نراعي ذلك باعتبار الزمان أيضا خاصة إذا كان زمن علم ومعرفة وتفكير ومعلوماتية، فبدل من أن نستثمر فيه بالعلم والمعرفة نكرس للخطاب القائم على الوجدانيات والعواطف.

ولا يعني هذا الحديث أن نلغي الوعظ الرشيد بل ينبغي أن يكون حضوره على مستويين:

الأول: أن لا يعارض خطابه التأصيل الشرعي ولا العقل والمنجز المعرفي المعاصر بالترويج للخرافات وما يناقض صريح العقول.

الثاني: أن يكون تخوّلاً بحيث لا يطغى على لغة العلم والمعرفة، بل يكون بالقدر الذي يذكر من الغفلة ويحرك من

الجمود الذي هو طبيعة العلوم العقلية والرياضية والمنطقية.

وعودة إلى موقف بعض السلف من الوعظ موقف الكراهة والتحذير نشير إلى أن من الأسباب المهمة هو كذبَ بعض الوعاظ بصفة عامة وعلى رسول الله ﷺ بصفة خاصة، واستباحة مثل هذا الفعل إما بوضع الحديث أو برواية الموضوع مما سنبينه لاحقاً بإذن الله تعالى.

وأمام هذا الموقف لبعض السلف موقف آخر هو ذلك الموقف الذي لا يرى بأساً بالوعظ والقص ولكنه يشترط فيه شروطاً لعل من أهمها الصدق كما قال أحمد رحمه الله: «ما أحوج الناس إلى قاص صدوق»[1].

ولعل ابن الجوزي بنقده للقصاص والوعاظ وموقفه المتوسط المنضبط تجاه الوعظ يلخص هذا الاتجاه بقوله: «قد أوضحنا في أول الكتاب فضيلة الوعظ والتذكير، ولا يخفى عموم نفعه للعوام وليس من ضرورة كونه نافعا أن يتشاغل به الفقهاء كلهم والزهاد، وقد ذكرنا عن أحمد بن حنبل أنه قال: ما أحوج الناس إلى قاصٍّ صدوق.

وقد روينا عن الصحابة والتابعين أنهم كانوا يعظون، فبان أن من كرهه إنما كرهه لأحد الوجوه التي سبقت في أول الكتاب، ثم قد غلب على أربابه قلة العلم وعدم الإخلاص، وأن

(١) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤٠٩هـ): كتاب القصاص والمذكرين، ص١٧٤.

يجتلبوا به الدنيا، وأكثرهم ليس بفقيه، ولأن الانعكاف عليه يشغل عن مهم العلم، فمتى تخلص من هذه الآفات فهو ممدوح»[1].

وما نقلناه عن ابن الجوزي وغيره من نقد للوعاظ وما آل إليه الوعظ يدل على أن المجتمع المسلم كان لديه قابلية جيدة للنقد، حتى وإن كان موجهاً إلى فئة تحسب على الدين وأهله، ولم يكن في ذلك غضاضة أو حرج، ما دام الناقد يتحدث بعلم وعدل، وإن كان وضع الانقسام الذي نعيشه والتخوف بين الأحزاب والتيارات لم يكن آنذاك بهذا العمق.

(١) المرجع السابق، ص١٧٦.

الوعظ والسلطة

يتناقل الكثير عبارة (وعاظ السلاطين) والمراد بها الإزراء على الوعظ باعتباره أداة سلطوية يراد منها تطويع الشعوب وتدجينها بما يحقق أهداف السلطة وتطلعاتها، إما عبر امتداحها والثناء عليها وتكريس مبدأ الطاعة العمياء لها، أو عبر صرف الناس عن حقوقهم وما يجب لهم على سلطتهم بإشاعة ثقافة الزهد والتقشف والتواكل والتعلق بالآخرة ونبذ الدنيا وبهرجها.

ويبدو أن علي الوردي في كتابه «وعاظ السلاطين» حين فتح النار على الوعاظ ساهم بشكل أو بآخر في هذه النظرة السلطوية للوعظ، وتنفير الناس من الوعظ لأنه ذراع ساهم في ظلمهم وقمعهم السياسي.

وما نحاول أن نجيب عليه الآن هو ما علاقة الوعظ بالسلطة؟ وهل ينبغي على الوعظ أن يكون خطابه موالياً للسلطة أو ثائراً عليها؟ وهل كان للوعظ فعلاً دور في تمجيد السلطة وتشييد بنيانها؟

تاريخياً يطالعنا «أن عبد الملك بن مروان بعث إلى غضيف بن الحارث الثمالي: فقال: يا أبا أسماء إنا قد أجمعنا الناس على أمرين، قال: وما هما؟ قال: رفع الأيدي على المنابر يوم الجمعة، والقصص بعد الصبح والعصر»[1].

وقبل ذلك نجد كما في تاريخ بغداد وسير أعلام النبلاء أن معاوية ﷺ لما توجه إلى العراق إبان الفتن، أقبل في ستين ألف معه القصاص يعظون عند كل صلاة ويحضون أهل الشام[2].

وهذه الأخبار ـ لو صحت ـ يصعب أن تكون مستنداً لتفسير حركة تاريخية اجتماعية دينية نصمها بأنها كانت مسيّسة منذ نشأتها، بسبب قلتها وضعف كثير منها.

وعلى كل حال فإن السلطة السياسية لا تكف عن استثمار أي خطاب يمكن أن يحقق تدعيما لسلطانها بقصد من هذا الخطاب أو بدون قصد، ولكن حديثنا هنا حول نشأة الوعظ وهدفه، وأنه ما كان إلا لهذا الغرض السياسي.

وفي هذا القول تجنٍّ واضح، وقلة عدل وإنصاف بالإضافة إلى ضعفه علمياً إذ لا حجة يستند عليها، بل كان الوعظ وما يزال في كثير من ممارساته خطاباً دينياً بالدرجة الأولى، وهدفه الديني

---

(١) أحمد بن حنبل (د.ت): مسند الإمام أحمد، ١٠٥/٤، وقال محققه شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

(٢) الذهبي، محمد بن أحمد (١٤٠٢هـ): سير أعلام النبلاء، ١٤٦/٣، والبغدادي، أحمد بن علي (١٤٠٦هـ): تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٨/١.

هو الذي يطغى عليه بغض النظر عن ما يمكن أن نرصده من ملاحظات نقدية.

ومع هذا فإن ذلك لا يعني أن السلطة لم يكن لها وعاظ يسبحون بحمدها، ويخطبون من أجلها ويباركون توجهها بدافع منها، ولا غرابة في ذلك إذ ليس الوعظ هو الذي ينفرد بهذا فالفقهاء والمفكرون والفلاسفة والمثقفون كذلك كان منهم مرتزقة في كل ثقافات العالم، وذلك لا يجعلنا نلقي بكل هذه الخطابات في سلة السلطة بجرة قلم.

وأمام هذه القضية هناك من يريد من الواعظ أن يكون ثائراً في وجه السلطة، ويطابق بينه وبينه مفهوم المثقف ودوره عند إدوارد سعيد في كتابه المثقف والسلطة، وهو دور يطلب من المثقف أن يكون ثائراً وعصياً على الاستقطاب من الحكومات والمؤسسات... إلخ[1].

ونفس هذا الدور هو الذي يطلبه علي الوردي من الوعاظ تحديداً وليس من المثقف بمفهومه الحديث فيقول: «الواقع أن الوعاظ والطغاة من نوع واحد، هؤلاء يظلمون الناس بأعمالهم، وأولئك يظلمونهم بأقوالهم، فلو أن الواعظين كرسوا خطبهم الرنانة على توالي العصور في مكافحة الطغاة وإظهار عيوبهم لصار البشر على غير ما هم عليه الآن»[2].

---

(١) الخراط، إدوارد سعيد (٢٠٠٦م): المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، القاهرة، دار رؤية، ص٤٣.

(٢) الوردي، علي (د.ت): وعاظ السلاطين، لندن، دار كوفان، ص٤٨.

وكلام الوردي وغيره ليس فيه إدراك تام لطبيعة الخطاب الوعظي، ويريد أن يخلط بين السياقات الخطابية، فالوعظ ليس ميدانه الصراع والمعترك السياسي، بل حين يدخل في هذا الميدان سواء كان في صف السلطة أو ضدها يصبح خطاباً مشوهاً، تستخدم فيه نصوص الدين وزواجره في ساحة لا تتعلق بمضامينه التي قام عليها.

إن السلطة ونقدها هو شأن المثقف والعالم والفقيه والمفكر بالدرجة الأولى، أما الواعظ فهو في فلك آخر يربط هؤلاء جميعاً تذكيراً بالله تعالى ترغيباً وترهيباً، وهذا لا يعني أن يهمل الواعظ عمداً أو دون عمد الخطايا التي تقع فيها السلطة والناس جميعاً من الظلم والبطش والقهر، لكنه ينظر إليها من منظور وعظي ديني وليس من منظور حزبي سياسي، وأن يكون لديه من البصيرة ما يعرف به تحيزات السلطة وطريقة استثمارها للخطاب الوعظي في تكريس رؤية معينة قد تكون صحيحة وصادقة في ذاتها، ولكنها من قبيل (الحق الذي يراد به الباطل)، ومن قبيل الرماد الذي يذر على العيون.

وفي الجملة يظل دور الواعظ في منطقة نائية عن السلطة وما يدار حولها، لكنه ابتعاد واعٍ يدرك تماماً أنه قد يكون لكلمته دور في خدمة السياسي أو في تعمية الناس وإلحاق الضرر بهم.

ولقائل أن يقول إننا بهذه الرؤية التي تعزل الخطاب الوعظي عن مقاومة السلطة ندعو الناس أن يكونوا دراويش لا علاقة لهم

بالسياسة والحقوق والواجبات وحركة المجتمع، وهو نفس ما تريده السلطة ونفس ما استخدمه الاستعمار حين دعم بعض الحركات الصوفية المستسلمة للواقع الراهن بحجة التعلق بالآخرة والرضى بالقدر!

والجواب على هذا الاعتراض المشروع ينطلق من محددات مهمة من أبرزها:

ـ أن الوعي السياسي والمجتمعي والحقوقي له قنوات أخرى وخطابات تختص به، ومختصون في مجاله يعون جيداً آلياته ومآلاته وكيفية التعامل معه، وليس من مصلحة خطاب ديني هدفه تذكير الناس وحثهم على الخير وردعهم عن الشر أن يخوض في فضاء ليس من ضمن اهتمامه ولا يدرك أبعاده.

ـ تغوّل السلطة من جهة، وتقصير المختصين في نقد السلطة وكشف تحيزاتها لا يعني أن نلقي باللائمة على الخطاب الوعظي لانشغاله باهتماماته وفضائه الخاص.

ـ ورغم هذا فإننا لا نعفي الخطاب الوعظي من إغراقه أحياناً في الجزئيات الهامشية وإغفاله لجوانب مهمة وخطيرة تقع فيها السلطة وتتلامس مع خطوط اهتمامه كالظلم والقهر وأكل أموال الناس بالباطل وغيرها من المحرمات شرعاً وعقلاً.

ـ أن الخطاب الوعظي لا يلتزم فقط بوعظ جماهير الناس ويتوقف عن وعظ أصحاب السلطة والمسؤوليات وتذكيرهم بالعدل والأمانة وحفظ الحقوق وعظم المسؤولية وتحذيرهم من الظلم

والبطش والقهر، وأكل أموال الناس بالباطل والرشاوي، إلى غير ذلك من الأخطاء التي تمارسها السلطة.

والتاريخ يسجل لنا مواقف لبعض العلماء الذين مارسوا الوعظ على السلطة ولم ينساقوا في استقطابها، وقد نقلت في كتب السير والتراجم، ومنها ما ذكره الغزالي في الإحياء من نماذج فيها قوة وشدة، وأعقبها بقوله: «فهكذا كان دخول أهل العلم على السلاطين أعني علماء الآخرة، فأما علماء الدنيا فيدخلون ليتقربوا إلى قلوبهم، فيدلونهم على الرخص ويستنبطون لهم بدقائق الحيل طرق السعة فيما يوافق أغراضهم، وإن تكلموا بمثل ما ذكرناه في معرض الوعظ لم يكن قصدهم الإصلاح، بل اكتساب الجاه والقبول عندهم»[1].

وابن الجوزي وهو من كبار الوعاظ ينقل عنه ابن مفلح قوله: «من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع السلاطين التعريف والوعظ، فأما تخشين القول نحو يا ظالم يا من لا يخاف الله، فإن كان ذلك يحرك فتنة يتعدى شرها إلى الغير لم

---

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (د.ت): إحياء علوم الدين، ٣/١١، والنماذج المساقة في معرض وعظ السلف للسلاطين والأمراء يضع النظرية التي تقول إن منهج السلف أن تكون الموعظة سرّاً أمام المحك، فإذا كان هذا منهجهم وطريقتهم فكيف وصلت مواعظهم للسلاطين إلينا؟!

وللمزيد منها يمكن الاطلاع على كتاب منهج السلف في الوعظ، لسليمان العربي، ص٦٨٤ وما بعدها والمؤلف يجعل السر ضابطاً وشرطاً في نصيحة السلطان، رغم النماذج التي ساقها!

يجز، وإن لم يخف إلا على نفسه فهو جائز عند جمهور العلماء»[1].

فوعظ السلاطين والأمراء وتخويفهم وتذكيرهم طريق مسلوكة عند المتقدمين، ووجود علماء الدنيا ووعاظها كما يسميهم الغزالي لا يعني أن الوعظ كله سلطاني فهذا من المجازفة في التقرير والأحكام!

- ينبغي أن يكون الوعظ تخولاً وأن يلتزم الوعاظ بذلك لأن إغراق الناس في الوعظ وحملهم عليه وإشغالهم به وتفرغهم له هو مما يحمده أصحاب السلطة؛ لأن فيه إشغال للناس عن حقوقهم.

- على الخطاب الوعظي كذلك أن يوازن بين خطاب الدنيا وخطاب الآخرة، فكونه يزهد من الدنيا لا يعني ذلك أن يعيش الناس على التواكل وترك حقوقهم وعدم السعي في إصلاح شؤونهم في الدنيا.

أما ما يخص وعاظ السلاطين وهم الذين تتخذهم السلطة ألسنة دينية لها فشأنهم آخر، وكما أن هناك وعاظاً للسلاطين فهناك مفتون لهم وفقهاء ومؤرخون، وهؤلاء شأنهم شأن آخر وهم يتساقطون وينكشف أمرهم للناس مع حركة التاريخ التي لا تتوقف.

---

(١) ابن مفلح، عبد الله بن محمد (١٤١٩هـ): الآداب الشرعية، ١/ ١٩٧.

الوعظ وبراءة الكذب!

أدرك تماماً حساسية هذا الموضوع وما قد يفهمه بعض القراء من تحميل للكلام على محامل لا تحتمل، ولكن مما شجع على اقتحامه أن السابقين من صالحي العلماء والفضلاء قد نبهوا عليه وأشاروا إليه دون مواربة أو استحياء؛ لأن حل أي مشكلة كامن في الاعتراف بها أولا والبحث عن أسبابها بكل جرأة وصدق مع النفس والذات.

إن هذه الحساسية لم تمنع يحيى بن سعيد القطان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أن يقول: «لم نر الصالحين في شيءٍ أكذبَ منهم في الحديث» ولم يمنع ذلك الإمام مسلم أن يضع هذه الكلمة في مقدمة صحيحة، ليلعق عليها بقوله: «يجرى الكذب على لسانهم ولا يتعمدون الكذب»[1].

ويبدو أن مقصود القطان هو ما بينه الإمام مسلم؛ لكون

(1) مسلم بن الحجاج (د.ت): مقدمة صحيح مسلم، ١/١٣.

كثير من الصالحين لا يدققون في الأخبار ويتقبلونها بحسن نية، أما أن يتعمدوا الكذب فكيف يوصفون بالصلاح وهذا حالهم!

ونقل الأخبار والأحداث على عواهنها والتساهل فيها، وتحديث الناس بغرائبها يعد من الكذب استناداً للحديث الذي خرّجه مسلم في مقدمته على الصحيح: «**كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع**»[(1)].

وعلى هذا يمكن أن ننظر للكذب على مستويين:

الأول: تعمد الكذب واختلاقه.

الثاني: نقل القصص والروايات والحكايات والأحداث المكذوبة دون التثبت منها والتساهل في روايتها.

ولا شك أن الأول أشد وأعظم؛ لأن الثاني يمكن أن يعتذر المعتذر بالجهل وعدم المعرفة وقلة الخبرة وحسن النية، ولكنه يظل في دائرة الخطأ.

والتساهل في نقل الأخبار هو أحد الأسباب التي أدت إلى الثورة العلمية الكبيرة في علم الحديث وظهور الإسناد والتدقيق في الروايات ونقدها ومعرفة المقبول والمردود بما لا مزيد عليه، وهذا ما عناه ابن سيرين رحمه الله لما قال: «لم يكونوا يسألون عن

---

(1) المرجع السابق، ١/ ١٠، والحديث رجح جماعة من المحققين أنه مرسل ومنهم أبو داود، ٤/ ٢٩٨، والدارقطني في الإلزامات والتتبع، ص١٧٥، وصححه موصولاً النووي في شرحه على مسلم على قاعدة زيادة الثقة مقبولة، ١/ ٧٤، وكذلك الحاكم في المستدرك، ١/ ١١٢، والله أعلم.

الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم»[1]؛ لأنه لما وقعت الفتنة كثر الكذب وتناقل الأخبار.

وإذ عدنا إلى الوعاظ فإننا نجد أن بعضاً من السلف وصفهم بالكذب، ونقلوا عنهم تماديهم في وضع الحديث على الرسول ﷺ ترهيباً وترغيباً للناس.

بل إن ابن الجوزي يعتبر القصاص أهم سبب في وضع الحديث حيث يقول: «معظم البلاء في وضع الحديث إنما يجري من القصاص؛ لأنهم يريدون أحاديث ترقق وتنفق، والصحاح تقل في هذا»[2].

وأيوب السختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «ما أفسد على الناس حديثهم إلا القصاص»[3].

قال ابن المديني: «كان عبد الله بن المسور الذي يحدث عن خالد بن أبي كريمة يروي عن جرير بن عبد الواحد، يضع الحديث عن رسول الله ﷺ، ولا يضع إلا ما فيه أدب وزهد، فيقال له في ذلك، فيقول: إن فيه أجرا»[4]، وفي الموضوعات

---

(١) مسلم بن الحجاج (د.ت): **مقدمة صحيح مسلم**، ١/ ١١.

(٢) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (د.ت): **الموضوعات**، بيروت، دار الكتب العلمية، ١/ ٤٤، وتلاحظ هنا أن ابن الجوزي استخدم مفردة القصاص بمعناها الذي يشمل الوعاظ كما نبهنا عليه في مبحث المصطلحات الشائكة!

(٣) أبو نعيم، أحمد بن عبد الله (١٤٠٥هـ): **حلية الأولياء**، ٣/ ١١، وابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤٠٩هـ): **كتاب القصاص والمذكرين**، ص١٥٣.

(٤) البلخي، عبد الله بن أحمد (٢٠٠٠م): **قبول الأخبار ومعرفة الرجال**، بيروت، دار الكتب العلمية، ص٧.

لابن الجوزي أن ابن مهدي سأل ميسرة بن عبد ربه: «من أين جئت بهذه الأحاديث، من قرأ كذا فله كذا؟ فقال: وضعتها أرغب الناس فيها»[1].

وابن قتيبة يقول إن القُصّاص يستميلون الناس بما لديهم من أكاذيب[2]، وابن الجوزي بعد أن ساق أخباراً من أكاذيب بعضهم يقول: «وهذا فن يطول وأكثر أسبابه أنه قد تعانى[3] بهذه الصناعة (يقصد الوعظ) جهال بالنقل، يقولون ما وجدوه مكتوباً، ولا يعلمون الصدق من الكذب، وفيهم كذابون يضعون الأحاديث على ما سبق ذكره»[4].

وينقل عن محمد بن طاهر المقدسي قوله: «كان أحمد الغزالي آية من آيات الله في الكذب يتوصل إلى الدنيا بالوعظ»[5]، والسيوطي رحمه الله يسمي كتابه تحذير الخواص من كذب القصاص.

ولا نريد أن نطيل في سرد الكثير من هذه الأخبار لكثرتها وشهرتها، والحديث عنها لا يعني تعميم الحكم على الوعاظ قديماً وحديثاً بأنهم يتعمدون الكذب أو أنهم كلهم لا يميزون بين الصدق والكذب ويحدثون بكل ما سمعوا، ففي الوعاظ أهل

---

(١) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (د.ت): **الموضوعات**، ١/١٧.

(٢) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (١٣٩٣هـ): **تأويل مختلف الحديث**، ١/٢٧٩.

(٣) **تعانى**: من العناية والاهتمام.

(٤) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤٠٩هـ): **كتاب القصاص والمذكرين**، ص٣١٨.

(٥) المرجع السابق، ص٣١٥.

صدق وتثبت وابن الجوزي نفسه الذي يروي أخبار كذب بعضهم ويحذر من ذلك كان واعظاً عالماً بالحديث.

وهنا سؤال يتبادر إلى الذهن مفاده إذا كان هؤلاء ممن ظاهرهم الصلاح فكيف يكذبون ولا يدققون مع أن الكذب من المحرمات التي يدرك حرمتها العوام قبل الخواص وصغار السن قبل كبارهم؟

ثم هل إرادة الخير ونفع الناس ترغيبا وترهيبا يجيز الكذب في الخبر والقصص؟ وهل الوعاظ يكذبون مستجيزين ذلك في الوعظ أم أنهم يكذبون وهم يعلمون بحرمة ذلك؟

ولكي نجيب على هذه الأسئلة نعود إلى التقسيم السابق لمستويات القضية وهي تعمد الكذب ورواية كل ما اتفق دون تدقيق وتصحيح وإن كان ظاهره الكذب كرواية الضعيف والموضوع من الأحاديث.

مستوى النقل والرواية:

ونقصد به كيف فُتح أمام الوعاظ التساهل في هذا الباب؟ والذي يظهر أنه بدأ مع تساهل وتسامح بعض أهل العلم في رواية الحديث عن الرسول ﷺ في أبواب معينة كالزهد والأدب والترغيب والترهيب وفضائل الأعمال.

وفي ذلك فيقول النووي: «قال العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم: يجوز ويستحب العمل في الفضائل والترغيب والترهيب بالحديث الضعيف، ما لم يكن موضوعاً، وأما الأحكام

كالحلال والحرام والبيع والنكاح والطلاق وغير ذلك فلا يعمل فيها إلا بالحديث الصحيح والحسن»[1].

ولذلك «تسامح العلماء قديماً في أحاديث الفضائل في روايتها عن كل، ولم ينتقدوا فيها كانتقادهم في أحاديث الأحكام»[2]، يقول عبد الرحمٰن بن مهدي الإمام الناقد كما يصفه الذهبي: «إذا روينا عن النبي ﷺ في الحلال والحرام والأحكام شددنا في الأسانيد، وانتقدنا الرجال، وإذا روينا في فضائل الأعمال والثواب والعقاب والمباحات والدعوات، تساهلنا في الأسانيد»[3].

وهذا التساهل والتسامح في النقل والرواية لم يكن على إطلاقه، بل وضعوا له شروطاً منها أن يكون الضعف غير شديد، وأن يكون الحديث مندرجاً تحت أصل عام صحيح، وأن لا يعتقد ثبوت الحديث، وأن يكون الحديث في فضائل الأعمال[4].

ولم يكن هذا القول في التساهل والتسامح قولاً مجمعاً عليه، بل كان بعض من أهل العلم على المنع من رواية الحديث

---

(١) النووي، يحيى بن شرف (١٤٠٩هـ): **الأذكار**، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ص١٣.

(٢) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله (١٤٢٤هـ): **جامع بيان العلم وفضله**، بيروت، مؤسسة الريان، ١/ ٥٣.

(٣) البيهقي، أحمد بن الحسين (١٤٠٨هـ): **دلائل النبوة**، ١/ ٣٤.

(٤) انظر في هذه الشروط السخاوي: القول البديع، ص٢٥٨، السيوطي: **تدريب الراوي**، ص١٩٦، ابن الصلاح: **علوم الحديث**، ص٩٣، وانظر مناقشة هذه المسألة الألباني: **تمام المنة**، ص٣٠ وما بعدها.

الضعيف في الفضائل وغيرها، وليس المقصد هنا مناقشة أي القولين أرجح فإن لذلك موضعه ولكن الذي نود الإشارة إليه هنا أن هذا التسامح، كان سبباً في فتح الباب للوعاظ للولوج منه إلى رواية الضعيف والموضوع وذلك على النحو التالي:

- كثير من الوعاظ لم يكن من أهل الحديث العارفين بنقد السند والمتن، حتى يعرف الضعيف وسبب ضعفه ويميز بينه وبين الموضوع الذي لا تجوز روايته مطلقاً، فيحقق الشرط الذي وضعوه حين تساهلوا في الرواية.

- كان الحديث قديماً في الوعظ وغيره يساق فيه سند الحديث فيتبين من له معرفة بالحديث مخرج هذا الحديث، ويكون المحدث قد أحال إلى غيره، وهذا أمر اختلف في العصور المتأخرة التي اكتفى فيها الوعاظ بذكر الحديث منسوباً إلى الرسول ﷺ[1].

- أن بعض الوعاظ جاوزوا الضعيف الصالح للاعتبار، إلى الواهي والمنكر والموضوع[2].

- أن كثيراً من الوعاظ أخذ بالقول دون النظر إلى الشروط وظن أن التساهل على إطلاقه وعضد ذلك عنده حسن نيته وإرادته للخير.

---

(١) الجديع، عبد الله يوسف (١٤٢٤هـ): **تحرير علوم الحديث**، بيروت، مؤسسة الريان، ٢/ ١١٣.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

وإذا تأملنا جيداً وجدنا أن هذا الخلاف سببه كون الحديث منسوباً إلى النبي ﷺ، وقد تساهل الوعاظ في ذلك رغم خطورة الأمر استناداً منهم على قول لبعض من علماء السلف مشروطاً بشروط، فلا عجب حين يكون تساهلهم أشد وأعظم مع غير الرسول ﷺ من القصص والأخبار التي تعج بها كتب التراجم والتاريخ والسير والأدب وما يتناقله الناس من المحالات والأعاجيب.

أقول إن هذا الباب ربما كان هو المدخل الذي منه ولجت هذه القصص والأخبار التي لا يشك عاقل في كذب كثير منها، سواء ما روي في كتب القدماء أو كان مما يسمعه بعض الوعاظ من الناس، ظناً منهم أنها ما دامت تخدم الدعوة وتؤثر في الناس فلا داعي للتدقيق فيها والبحث عن صحتها، وكيف نفعل ذلك وأهل العلم تساهلوا في هذا الباب فيما نسب إلى الرسول ﷺ؟!

ولئن كان هذا الأمر معيباً قديماً وأنكره أهل العلم والفضل، فإن قطعه أصبح أمراً ملحاً في هذا الزمان لاختلاف الأحوال، وتغير أمر الناس، فبعض الوعاظ ما زال يظن أنه يتعامل مع مصطلح (العوام) الذي يرد كثيراً في كتب القدماء، وما يدري أن كثيراً من الجماهير الذين يعظ فيهم أو تصلهم كلمته وقصصه هم من أهل العلم والفهم والتمييز وكثير منهم مثقفون على مستويات ومشارب مختلفة، حتى أصبحت كثيراً من هذه القصص وأصحابها محل تندر في المجالس والشبكات الاجتماعية، وأصبح بعض الوعاظ محل همز ولمز لكثرة ما ينسب

لهم من القصص والأخبار التي يتناقلها الناس لغرابتها.

وهذا الصنيع وإن جلب لبعض الوعاظ جماهير ودفع لانتشار وعظه بين الناس، لا يعني صحته وسلامة منهجه، فإن التغيرات السريعة التي تشهدها المجتمعات، والحراك الثقافي الكبير، وتنامي النقد والجرأة في الطرح والحرية في التعبير جعلت الوعاظ وخطابهم تحت العين الراصدة، ولو اقتصر الأمر على نقدهم لهان الأمر، ولكن بعض المتحمسين ينسحب كلامهم ونقدهم إلى الدين نفسه والتشكيك فيه، لعدم القدرة على الفصل بين الدين الإلٰهي وبين الممارسات التي تنتسب إليه، هذا مع تربص بعض المتربصين وتضخيمهم للأخطاء واستفادتهم من هذه القصص والروايات الواهية التي تبعث على السخرية والاستهزاء.

مستوى تعمد الكذب:

مر آنفاً أن بعض الوعاظ كان يضع الحديث على رسول الله ﷺ رغم شدة النكير عليهم، فلا غرابة إذا أن يضع بعضهم القصص والأكاذيب على غير الرسول ﷺ في الوعظ وتذكير الناس.

بل هناك من استجاز الكذب عليه بحجة أنه كذب له ومن أجل دينه وأشار إلى ذلك الحافظ ابن حجر قائلاً: «وقد اتفق العلماء على تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ وأنه من الكبائر، حتى بالغ الشيخ أبو محمد الجويني فحكم بكفر من وقع منه ذلك، وكلام القاضي أبي بكر بن العربي يميل إليه، وجهّل من

قال من الكرّامية وبعض المتزهدة إن الكذب على النبي ﷺ يجوز فيما يتعلق بتقوية أمر الدين، وطريقة أهل السُّنَّة والترغيب والترهيب، واعتلوا بأن الوعيد ورد في حق من كذب عليه لا في الكذب له، وهو اعتلال باطل؛ لأن المراد بالوعيد من نقل عنه الكذب سواء كان له أو عليه، والدين بحمد الله كامل غير محتاج إلى تقويته بالكذب»[1].

والذي يظهر أن هؤلاء الوعاظ الذين يتعمدون ذلك بررت لهم نواياهم جواز هذا الصنيع من أجل هداية الناس وتحذيرهم من الشر، واستندوا في هذا إلى بعض أقوال العلماء الذين لهم كلام حول الكذب لا يخلو من إشكالات تحتاج إلى إعادة النظر فيها.

وقبل البدء في نقلها ومناقشتها نشير إلى أنه «قد تظاهرتْ نصوصُ الكتاب والسُّنَّة على تحريم الكذب في الجملة، وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب، وإجماعُ الأمة منعقدٌ على تحريمه مع النصوص المتظاهرة»[2].

وهذا الحكم من المعلوم ضرورة ديناً وعرفاً، فإن الكذب من الأخلاق الذميمة التي تأنفها الفطر ويأباها الناس، وينفرون من صاحبه أشد النفور.

ولكن الإشكالية التي يستند إليها بعض من يتعمدون الكذب

---

(١) ابن حجر، أحمد بن علي (١٣٧٩هـ): **فتح الباري** ، بيروت، دار المعرفة، ٦/٤٩٩.

(٢) النووي، يحيى بن شرف (١٤٠٩هـ): **الأذكار**، ص٣٧٧.

في ترغيب الناس وترهيبهم مبنية على شقين: الشق الأول منها هو ثمرة لما ناقشناه في المستوى السابق، وأنه إذا كان التساهل وارداً في حق الرواية عن الرسول ﷺ بعدم التدقيق لأجل المصلحة المترتبة على ذلك ترغيباً وترهيباً، فإن هذه المصلحة التي أجازت ذلك تجيز أن يكذب المرء من أجل هداية الناس وإصلاحهم.

أما الشق الثاني هو اللبس الحاصل من كلام بعض العلماء الذين ربطوا تحريم الكذب بالضرر الناتج عنه، فمتى كان الكذب لا يلحق بأحد ضرراً فلا بأس به.

ومن هذه الإطلاقات المشكلة ما ذكره الغزالي في الإحياء حيث يقول: «اعلم أن الكذب ليس حراماً لعينه، بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه، فيكون جاهلاً وقد يتعلق به ضرر غيره، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذوناً فيه وربما كان واجباً»[(١)].

وابن الجوزي يقول: «وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب فهو مباح إن كان المقصود مباحاً، وإن كان واجباً فهو واجب»[(٢)].

وابن القيم يقول: «يجوز كذب الإنسان على نفسه، وعلى

---

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (د.ت): **إحياء علوم الدين**، بيروت، دار المعرفة، ٢/١٣٧.

(٢) نقله عنه: السفاريني، محمد بن أحمد (١٤٢٣هـ): **غذاء الألباب**، بيروت، دار الكتب العلمية، ١/١٠٨.

غيره إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير، إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب الحجاج بن علاط على المشركين حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت بالمسلمين من ذلك الكذب، وأما ما نال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن، فمفسدة يسيرة في جنب المصلحة التي حصلت بالكذب»[1].

والسفاريني يقول: «والحاصلُ أنَّ المعتمد في المذهبِ أنَ الكذب يجوز حيث كان لمصلحةٍ راجحة»[2].

ومن هذا الكلام وغيره قد يفهم بعض الوعاظ أن المصلحة الشرعية من هداية الناس بالكذب تجوز إذ ليس فيه ضرر على أحد!

ولذلك اتخذ بعض التيارات المناوئة للإسلاميين هذه النصوص وغيرها للطعن في الخطاب الديني والشرعي بحجة أنهم يستجيزون الكذب على الناس!، والحق أن هنا أموراً ينبغي أن تحرر ونوجزها في النقاط التالية:

- أنه لا خلاف بين أهل العلم قاطبة في تحريم واستقباح الكذب وأنه من أرذل الرذائل، ولذلك جعله النبي ﷺ في صفات المنافقين بقوله: «**وإذا حدث كذب**»[3]، وكلام أهل العلم في هذا أكثر من أن يحصر.

---

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (١٤١٢هـ): **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ٣/٣١١.

(٢) السفاريني، محمد بن أحمد (١٤٢٣هـ): **غذاء الألباب**، ١/١١٠.

(٣) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ١/١٥، حديث رقم (٣٤)، مسلم بن الحجاج (د.ت): **صحيح مسلم**، ١/٥٦، حديث رقم (٢١٩).

ـ الموضع الذي ناقش العلماء فيه إباحة الكذب هو النص الوارد عن النبي ﷺ عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليس الكذّاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً**»[1] وفي رواية زيادة قالت: «ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث، تعني الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها»[2]، فمنهم من قصر إباحة الكذب على هذه الثلاث، ولذلك قال ابن مفلح في الآداب: «ويحرم الكذب لغير إصلاح وحرب وزوجة»[3].

ومنهم من فتح باب القياس في ذلك وجعل العلة هي المصلحة المتحققة أو دفع المضرة المتحتمة على الصدق، وهذا معنى قول ابن الجوزي السابق: «وضابطه»؛ أي: ضابط الكذب الذي يقاس على هذه الحالات الواردة في النص.

«قال الطبري ذهبت طائفة إلى جواز الكذب لقصد الإصلاح وقالوا: إن الثلاث المذكورة كالمثال، وقالوا: إن الكذب المذموم إنما هو فيما فيه مضرة وليس فيه مصلحة، وقال آخرون: لا يجوز

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ٣/ ٢٤٠، حديث رقم (٢٦٩٢)، مسلم بن الحجاج (د.ت): **صحيح مسلم**، ٨/ ٢٨، حديث رقم (٦٧٩٩).

(٢) مسلم بن الحجاج (د.ت): **صحيح مسلم**، ٨/ ٢٨، حديث رقم (٦٧٩٩).

(٣) ابن مفلح، عبد الله بن محمد (١٤١٩هـ): **الآداب الشرعية**، بيروت مؤسسة الرسالة، ١/ ٣٨.

الكذب في شيء مطلقاً، وحملوا الكذب المراد هنا على التورية والتعريض»[1].

ـ أما قول الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الكذب ليس محرماً لعينه، بل للضرر المترتب عليه، فإن الضرر المترتب على الكذب لا يشترط أن يكون حسياً بل الضرر المعنوي داخل في ذلك بدون شك، فتجهيل الناس وتسفيه عقولهم والتزوير عليهم وما قد يترتب على المكذوب عليه مما لا يدركه الكاذب، فلا يفهم من كلام الغزالي قصر الضرر على الضرر الحسي فقط من تعد على النفس أو المال أو العرض، بل هو أشمل من ذلك، ولذلك اعتبر الغزالي كما في النص السابق اعتقاد المخبر الشيء على خلافه من أقل درجات الضرر، بقوله: «**فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه**»، فكيف إذا كان من الضرر المتحقق تشويه صورة الإسلام، وفتح باب السخرية والاستهزاء به على الشامتين والمتربصين، ونفور الناس من الحق!

ـ وكلام الغزالي كذلك لا يعني أن الأصل في الكذب الإباحة ما دام ليس محرماً لعينه، بل هو يرى أن أصل الكذب حرام ولا يباح إلا لضرورة؛ لذلك يقول بعد كلامه السابق ما نصه: «ينبغي أن يحترز منه ما أمكن؛ لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغني عنه، وإلى ما لا

---

(١) الشوكاني، محمد بن علي (١٤٢٦هـ): **نيل الأوطار**، القاهرة، دار الحديث، ٨/ ٦٤، وهكذا ساقه عن الطبري وهو تلخيص لما في كتاب تهذيب الآثار للطبري، ٤/ ٣١٥ وما بعدها.

يقتصر على حد الضرورة **فيكون الكذب حراماً في الأصل إلا لضرورة»**[1].

- من الواضح الجلي في النصوص السابقة أن المقصود عند من أباح الكذب للضرورة أن ذلك راجع للحقوق الخاصة وما يتعلق بها، وليس الأمر العام فمصالح الناس العامة لا يحتاج فيها إلا الكذب وإلا لما حرمه الله تعالى على الناس وهو يحقق مصالحهم، سواء كانت هذه المصالح دينية أو دنيوية، ولذلك في كلام ابن قيم الجوزية السابق قال: «**إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه**» والغزالي كذلك ينص على هذه الخصوصية بعد أن أورد الحديث السابق الذي رخص فيه بالكذب في ثلاث فقال:

«فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء وفي معناها ما عداها إذا **ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره**، أما ماله فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله، فله أن ينكره أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك... فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلماً وعرضه بلسانه وإن كان كاذباً، وأما عرض غيره فبأن يسأله عن سر أخيه فله أن ينكره وأن يصلح بين اثنين وأن يصلح بين الضرّات من نسائه»[2]، أما في الشأن العام فيظل مقصوراً على ما جاء النص به في الحرب والإصلاح بين الناس.

---

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (د.ت): **إحياء علوم الدين**، ٣/١٣٧.

(٢) المرجع السابق، ٣/١٤٠.

ـ ومما سبق يتضح أن الأمر ليس على إطلاقه كما قد يفهمه بعض الوعاظ أو يتشبث به بعض المناوئين، بل هو مقرون بالمصلحة الشرعية التي تكون الضرورة بوابة الولوج إليها في حق الفرد الخاص، ولذلك يقرر الغزالي هذا الكلام بعد أن ناقش صوراً من هذه الضرورات بقوله: «الحد فيه أن الكذب محذور ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور، فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشد وقعا في الشرع من الكذب فله الكذب، وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى **لأن الكذب يباح لضرورة**»[1].

ويلاحظ من كلامه تكراره أن الأصل في الكذب التحريم وأن الضرورة هي التي رفعت الحكم وأنها تقدر بقدرها، وأن هذه الضرورات هي التي تمس الشخص في نفسه وماله وعرضه.

وعليه فإن الغزالي رَحِمَهُ اللهُ وغيره من العلماء لا يجيزون صناعة الكذب في الوعظ، بل له نص صريح في هذا يقول فيه: «ومن الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة في الطاعات ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق، فهذه من نزعات الشيطان فإن في الصدق مندوحة عن الكذب وفيما ذكر الله تعالى ورسوله ﷺ غنية عن الاختراع في الوعظ»[2].

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (د.ت): **إحياء علوم الدين**، ١/ ٣٥.

ومسألة الضرورة هي التي يقررها العز بن عبد السلام بقوله: «والتحقيق في هذه الصور وأمثالها أن الكذب يصير مأذوناً فيه، ويثاب على المصلحة التي تضمنها على قدر رتبة تلك المصلحة من الوجوب في حفظ الأموال والأبضاع والأرواح، ولو صدق في هذه المواطن لأثم إثم المتسبب إلى تحقيق هذه المفاسد»[1]، وهذه المواضع التي ذكروها تخص الشخص في نفسه وماله وعرضه أو مال وعرض غيره.

لذلك فإن الطبري وبعد أن ساق أقوال العلماء في هذه المسألة والخلاف الدائر فيها ختم بقوله: «فأما صريح الكذب، فذلك غير جائز لأحد في شيء، كما قال عبد الله بن مسعود: لا يصلح الكذب في جد ولا هزل، للأخبار التي ذكرتها عن رسول الله ﷺ فيما مضى بتحريمه الكذب، وأما قول حذيفة إذ قال له عثمان: إنه بلغني عنك كذا وكذا وحلفه أنه ما قاله. . . فذلك من جنس إحياء الرجل نفسه عند الخوف عليها ببعض ما حرم الله عليه في غير حال الضرورة؛ كالذي يضطر إلى الميتة أو الدم المسفوح أو لحم الخنزير؛ فيأكل ذلك ليحيي به نفسه.

فكذلك الخائف على نفسه من عدو أو لص أو غيرهما، إذا خافه على نفسه أن يهلكها أو بعض حرمه أن ينتهكه أو مال له أن يسلبه، فقال في ذلك قولاً مما يرجو به النجاة منه أو السلامة، فلا حرج عليه في ذلك وإن كان مبطلاً في الذي قال من ذلك،

(١) العز بن عبد السلام (د.ت): **قواعد الأحكام**، بيروت، دار المعارف، ١/٩٦.

وذلك أن الله تعالى ذِكْره قد أباح في حال الضرورة لخلقه ما منع في غيرها، ووضع عنهم الحرج في ذلك، فغير آثم من كذب في تلك الحال لينقذ نفسه من هلكة قد أشفت عليها»[1].

وكذلك فعل الشوكاني رحمه الله بعد أن ذكر هذا الخلاف في حدود المباح من الكذب وهل يتوسع فيه أو هو مجرد التورية والمعاريض، وبعد أن نقل كلاماً في إباحة الكذب تبعاً لمقصوده قال: «والحق أن الكذب حرام كله بنصوص القرآن والسُّنَّة من غير فرق بين ما كان منه في مقصد محمود أو غير محمود، ولا يستثنى منه إلا ما خصه الدليل من الأمور المذكورة في أحاديث الباب»[2].

وقد أطلت الحديث في هذا الموضع لأهميته في باب الوعظ وما قد يجره التساهل في هذه المسألة من بعض الوعاظ من ضرر عظيم على الشريعة، ووصفها من قبل بعض الجهلة بإباحتها للكذب من خلال تعمد بعضهم وتبريره ذلك بمثل هذه الأقوال المجملة عن أهل العلم دون تحقيق وتمحيص وقد تلخص القول في نقاط مختصرة هي:

- حرمة الكذب شرعا وعقلا بإطباق العلماء والعقلاء.
- لا يرتفع هذا الحكم إلا بما ورد النص به، أو لضرورة تخص الفرد في نفسه يخشى منها الهلاك على نفسه أو ماله أو عرضه مقدر بقدرها.

---

(١) الطبري، محمد بن جرير (د.ت): **تهذيب الآثار**، القاهرة، مطبعة المدني، ٤/ ٢٢٣.

(٢) الشوكاني، محمد بن علي (١٤٢٦هـ): **نيل الأوطار**، القاهرة، دار الحديث، ٨/ ٦٣.

- أما في الشأن العام فإن صلاح الناس وهدايتهم وترغيبهم وترهيبهم لا تكون بالكذب ولا بغيره من المحرمات، بل تكون بما شرعه الله من الصدق والحق، فلا يجوز وعظ الناس بالكذب المتعمد ولا بنقل الكذب رواية وتساهلاً وتسامحاً بحجة تحقيق المصلحة في حث الناس على الخير وردعهم عن الشر، بل الشأن أن الكذب على الناس مفسدة ينتج عنها تشويه صورة الدين وتنفير الناس عنه وتعريضه للسخرية.

ولذلك فإن ما يتعلق به بعض المتربصين بالخطاب الإسلامي بأن الكذب مشرعَن بموجب ما نقلناه من نصوص، لا وزن له أمام الدرس والتحقيق، وأن ما قد يفهمه بعض الوعاظ من جواز ذلك من أجل الإصلاح لا يقرون عليه إطلاقاً.

وكما قال الحافظ ابن حجر: «**الدين بحمد الله كامل غير محتاج إلى تقويته بالكذب**»[1].

(١) ابن حجر، أحمد بن علي (١٣٧٩هـ): **فتح الباري**، بيروت، دار المعرفة، ٦/٤٩٩.

من أساليب الخطاب الوعظي

- التخوّل والتحوّل.
- سجع الكهان.
- المبالغة والتهويل:
  ١ ـ الإسرائيليات.
  ٢ ـ قصص السلف.
- التائبون الجدد.
- الشبكات الاجتماعية.

«الحكمة: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي»
[ابن قيّم الجوزية]

التخوّل والتحوّل

نعتقد في الغالب أن حديثنا محبب إلى الناس، وأن الناس حين يصغون إلينا في لقاء أو لقائين متيمون بنا وبما نلقيه على أسماعهم، وقد يكون لبعضنا من القدرة على التأثير ما يجعل الناس فعلاً يقبلون عليه، ولكن هذا الإقبال لا يدوم طويلاً كما قد نظن.

إن الإنسان عبارة عن طاقة محدودة من التحمل والنشاط يفقدها شيئاً فشيئاً، وتبدأ بالتلاشي مع كثرة التكرار ومع الإطالة، وهذه الطاقة: طاقة نفسية وطاقة عقلية، فالطاقة النفسية تبدأ بالنشاط وتنتهي بالسآمة والملل، والطاقة العقلية تبدأ بالانتباه والتركيز وتنتهي بالتشتت والغفلة.

وكلا الطاقتين محاصر بالزمان والمكان طولاً وقصراً، وهذه الحقيقة الإنسانية جلاها الرسول ﷺ في تعامله مع صحابته حين كان يعظهم ويذكرهم، مستخدماً طريقة التخوّل والتحوّل.

فما التخوّل وما التحوّل؟

في الصحيحين عن أبي وائل قال: كان عبد الله ابن مسعود يذكّر الناس في كل خميسٍ، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمٰن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أمِلّكم، وإني **أتخوّلكم** بالموعظة، كما كان النبي ﷺ **يتخولنا** بها مخافة السآمة علينا[1].

وقد وردت هذه اللفظة (**يتخوّلنا**) بالخاء المنقوطة، وذكر بعضهم أنها بالحاء المهملة (**يتحوّلنا**)[2]، ومعنى يتخوّلنا: أي يتعهدنا بالموعظة ويراعي الأوقات في تعليمنا ووعظنا ولا يفعله كل يوم خشية الملل كما يقوله الخطابي[3].

ومعنى يتحوّلنا: يتفقد أحوالهم التي يحصل لهم فيها النشاط للموعظة فيعظهم فيها ولا يكثر عليهم؛ لئلا يملوا كما حكاه الطيبي وغيره عن أبي عمرو الشيباني[4].

ومن هذا اللفظ يمكن أن نخرج بأسلوب متزن من حيث اعتبار الأمور التالية:

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ١/٢٧، حديث رقم (٧٠)، مسلم بن الحجاج (د.ت): **صحيح مسلم**، ٨/١٤٢، حديث رقم (٧٣٠٧).

(٢) لا شك أن رواية يتخولنا بالخاء المنقوطة هي الأصح والأشهر، ولكن المعنى في الضبط الآخر الذي قاله به أبو عمرو الشيباني صحيح المعنى؛ ولذلك رأينا إعماله والإفادة منه.

(٣) العيني، بدر الدين محمود (١٤٢١هـ): **عمدة القاري**، ٢/٤٨٨. وانظر: ابن حجر، أحمد بن علي (١٣٧٩هـ): **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ١١/٢٨٨.

(٤) المرجع السابق: عمدة القاري، ٢/٤٩٢، وكذلك **فتح الباري**، ١١/٢٨٨.

١ ـ عدم تكرار الوعظ والإكثار منه على الناس لأنه مدعاة للملل والسآمة، كما قاله الرسول ﷺ، وبينه ابن مسعود ﷺ، «فكان النبي ﷺ يعظ الصحابة في أوقات معلومة، ولم يكن يستغرق الأوقات خوفاً عليهم من الملل والضجر»[١].

٢ ـ اختيار الأوقات المناسبة التي يتقبل فيها الناس الكلام، ويتوقون إليه وأخذ ذلك بعين الاعتبار، خلافاً لما يفعله بعض الوعاظ المتحمسين من الوعظ في كل وقت تسنح لهم فرصة التحدث فيه، دون مراعاة للحال والمقام ومناسبته، ولذلك قال ابن عباس: «حدث الناس كل جمعة مرة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاث مرار، ولا تمل الناس هذا القرآن، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم، فتقص عليهم، فتقطع عليهم حديثهم فتملّهم، ولكن انصت، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه»[٢].

وهذه اللفتة المهمة التي ساقها ابن عباس ﷺ يفوتها بعض الوعاظ، فيقتحمون مجالس الناس ومناسباتهم دون إذن منهم أو رغبة في حديثهم، وربما قطعوا عليهم حديثاً أو شأناً أو لقاء بعد طول عهد فيما بينهم، بحجة إسماع الناس كلام الخير واستغلال الوقت بالنافع المفيد، دون مراعاة لتحقق هذا النفع من عدمه، ودون مراعاة لحرص الناس على السماع أو عدم رغبتهم فيه؛

---

(١) المرجع السابق: عمدة القاري، ٢/٤٩٣.

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ٨/٩١، حديث رقم (٦٣٣٧).

ولذلك يعلق ابن حجر على كلمة ابن عباس بقوله: «وفيه كراهة التحديث عند من لا يُقبِل عليه، والنهي عن قطع حديث غيره، وأنه لا ينبغي نشر العلم عند من لا يحرص عليه»[1].

وهو تماماً ما نشاهده في حفلات الزواج وغيرها من الاجتماعات الكبيرة التي ينصرف الناس فيها إلى الأحاديث فيما بينهم، بينما يظل الواعظ متحدثاً عبر مكبرات الصوت دون أن يعيره الجمهور اهتماماً وانتباهاً إلا لماماً.

لقد تحولت فكرة إسماع الناس الخير هاجساً يطغى على تفكير بعض الوعاظ، وغابت هذه المفاهيم السابقة، ظناً منهم أنهم بذلك قد بلّغوا ولو آية، وأقاموا الحجة، ومن شاء سمع ومن لم يشأ فلا يسمع، وتتحاشى أحياناً أن تشير إليهم بعدم مناسبة المقام وأن الناس متشاغلون بشؤونهم خشية أن يتم وصفك بعدو الخير وأنك تقف حجر عثرة في طريقه!

٣ ـ عدم الإطالة في الموعظة فمن التحول بالحاء المهملة مراقبة حال الناس ومدى إقبالهم للوعظ واستفادتهم من الخطاب، والتطويل في الوعظ فيه مع إملال الناس، تبغيض لهم في الخير وأهله كما قال عمر رضي الله عنه: «أيها الناس: لا تبغّضوا الله إلى عباده!، قالوا: وكيف ذاك أصلحك الله؟ قال: يكون أحدكم إماماً فيطوّل على القوم حتى يبغض إليهم ما هم فيه، ويقعد أحدكم قاصّاً فيطول على القوم حتى يبغض إليهم ما هم فيه»[2].

---

(١) ابن حجر، أحمد بن علي (١٣٧٩هـ): **فتح الباري** ، ١/١٣٩.

(٢) البيهقي، أحمد بن الحسين (١٤٢٣هـ): **شعب الإيمان**، الرياض، مكتبة الرشد، ٦/٢٧٦.

وهو قريب من قول عائشة للقاص عبيد بن عمير: «إياك وإملال الناس وتقنيطهم»[1]، «ومعلوم أن إملالهم إنما يكون بالإطالة عليهم في الكلام والزمان، ومعلوم أن قليل الموعظة مع نشاط الموعوظ وحضور قلبه خير من كثير وافق من الأسماع إعراضاً، ومن القلوب ملالة»[2].

وهذا الملحظ المهم الذي وعاه علماء السلف عن رسول الله ﷺ هو موافق تمام الموافقة للفطرة التي خلق الناس عليها من التعب والإرهاق وفقدان الانتباه مع الإطالة؛ ولذلك كان النبي ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة، إنما هي كلمات يسيرات، كما يصفها جابر بن سمرة رضي الله عنه[3].

وهذا ما لا نراه الآن إلا نادراً فإن بعض الوعاظ إذا أخذ في خطبته وموعظته نسي نفسه وجمهوره وشرق وغرب، وبعضهم ربما وعد المصلين والسامعين بأن موعظته لن تتجاوز خمس دقائق، ثم ينسى وعده ونفسه فيوقع نفسه في الحرج والموعوظين في الملالة والسأم، ظنا منه أن ذلك من الخير الذي لا يفوّت.

ويروي لنا أحدهم مشهداً من مشاهده التي رآها قائلاً: «شهدت في أحد المساجد واعظاً وقف بعد صلاة العشاء وقال

---

(١) المرجع السابق، ٢/ ٢١.

(٢) البغدادي، أحمد بن علي (١٤١٧هـ): **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢/ ١٢٨.

(٣) أبو داود، سليمان بن الأشعث (د.ت): **سنن أبي داود**، ١/ ٢٨٩، حديث رقم (٩٣٣)، وصححه الألباني.

للمصلين: خمس دقائق فقط، وكررها وكأنه يخشى من خروج المصلين دون أن يستمعوا له، وزيادة في التأكيد، وحتى لا يقوم أحد حذرهم بأنّ من لم يستمع فهو (محروم)، وبدأ بكلمته وعظته ونسي نفسه ونسي وعده واستمر وأخذ من الوقت أكثر مما وعد، وبعد انتهاء الموعظة بدأ بالدعاء، وأطال فيه! ترى كيف ستكون نظرة المصلين إلى هذا الشيخ الذي لم يلتزم بوعده، وهدد المصلين بأنهم محرومون إن لم يستمعوا له، فهل هذا وعظ أم تبكيت!؟»[1].

وهو مشهد يتكرر هنا أو هناك عن حسن نية في بعض الأحيان وعدم إدراك للعواقب ومعرفة للنفسيات ومدى استجابتها.

ولأجل ذلك أصبح بعض الناس يبحثون عن المساجد التي لا يطيل خطباؤها ويلقون عنتاً في البحث عنها والمسير إليها، فراراً من مساجدهم التي يطيل خطباؤها مع أن النبي ﷺ يقول: «**إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنّة من فقهه، فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة**»[2].

ولا شك أن هذا من تنفير الناس، وقد أجاد البخاري حين بوّبَ لحديث ابن مسعود رضي الله عنه السابق بقوله: «باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا»[3].

---

(١) العبدة، محمد: **إصلاح الوعظ**، مقال على الشبكة العالمية على الرابط:
http://www.almoslim.net/node/83990

(٢) مسلم بن الحجاج (د.ت): **صحيح مسلم** ٣/١٢، رقم (٢٠٦٤).

(٣) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ١/٢٧.

فإذا علمت عمق حب الصحابة لرسول الله وتشوفهم وتشوقهم لرؤيته والسماع منه، وعلمت مدى حرصهم وحبهم للخير والحق مما يقل معه في العادة خشية النفور، وفي ظل هذه المحبة والتشوق إلا أن النبي ﷺ جاء ليحبب الناس إلى ربهم ويخشى عليهم أن ينفروا، فكيف بمن ليس في مقام النبي الأكرم، وليس جمهوره بمقام السادات من صحابته الكرام، إذا علمت هذا تبين لك حجم الخطأ الذي يمارسه بعض الوعاظ وما يبثونه في النفوس من إملال وسآمة، وتبغيض لخلق الله في ربهم كما قال عمر رضي الله عنه[1].

ونحن هنا لا نعني في الإكثار والإطالة مجرد الوعظ المسموع في المساجد، بل الإكثار من الوعظ أصبح سمة بارزة لا تخطئه العين[2]، وهذه الكثرة للأسف كانت على حساب الجودة، رغم أن الزمن الآن أصبح زمن السرعة وإيصال الرسالة إلى المستقبِل في ثوانٍ معدودة، وتتنافس الشركات الكبرى في الدعاية والإعلان في تكثيف هذه الرسائل الاحترافية التي تؤثر في الجمهور أشد تأثير دون أن تأخذ من وقتهم وجهدهم!

---

(١) أجاب قرابة ٥٣٪ من أفراد العينة الاستطلاعية على أن الوعاظ يكثرون من وعظهم مما يشعر بالملل، وأجاب قرابة ٧٧٪ منهم أن الوعاظ يكررون موضوعاتهم، وأجاب ٣٤٪ منهم أن الخطباء يطيلون في خطب الجمعة، وهي نسب عالية تشير إلى أن الخطاب الوعظي يتجه نحو الملل والسآمة.

(٢) يكفي أن تلقي نظرة للواتس آب في جهاز الجوال وتحصي الرسائل اليومية التي تصلك تحمل مضموناً وعظياً، وكذلك البرامج الوعظية التي تقدم عبر القنوات الفضائية الإسلامية، والشبكات الاجتماعية واليوتيوب وغيرها!

ولو أن الخطاب الوعظي كرس هذا الوقت المهدر في إنتاج نوعي متميز ومتخصص في فواصل إعلانية لا تتجاوز دقيقتين يخاطب فيها أعماق اللاشعور الإنساني بمضامين إسلامية راقية لحقق نجاحات تفوق ما يحصل الآن من جهد ووقت مهدر.

سجع الكهان

مر سابقاً أن الخطاب الوعظي يتوسل بأدبيته وبلاغته إلى التأثير في المتلقين، وبسبب هذه الأدبية يعمد الوعاظ إلى استخدام المحسنات البديعية بأنواعها المختلفة، ويخصون السجع بمزيد العناية لسهولته وكثرة استخدامه(١).

والمقصود بالسجع انتهاء الجمل بحرف واحد يتكرر في عدد منها، ونحن نتحدث عن السجع الذي يخرج مخرج التكلف والتعمد بحيث يصبح طابعاً في الموعظة.

وقد ارتبط السجع بالكهان منذ العصر الجاهلي حيث كانوا يلقون تكهناتهم عن المستقبل، ورؤيتهم للأحداث في عبارات قصيرة مسجوعة غامضة.

والسجع والمحسنات البديعية المتكلفة سمة بارزة من سمات

---

(١) للاطلاع على المحسنات البديعية وأنواعها والسجع وتعريفه ونماذج منه انظر: العتيق، عبد العزيز (د.ت): **علم المعاني البيان البديع**، بيروت، دار النهضة العربية.

الأدب في عصور ضعفه وانحطاطه، ورغم ما طرأ على الأدب من نهضة في شعره ونثره إلا أن بعضا من هذه السمات ظلت كامنة في المواعظ والخطب.

«لقد أسرف الشعراء والأدباء في العصور المتأخرة غاية الإسراف في استعمال المحسنات البديعية، إما إعجاباً بها أو إخفاء لفقرهم في المعاني وبهذا انحط إنتاجهم الأدبي»[١]، هذا الإسراف والتكلف الممجوج هو الذي جعل كثيراً من النقاد يضرب الذكر صفحاً عن هذه المحسنات ويعدها ضرباً من الهذيان، مع أن الأمر كما قال أبو هلال العسكري: «هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف وبرئ من العيوب كان في غاية الحسن ونهاية الجودة»[٢].

ومن المؤسف حقاً أنه يتزايد في أوساط الوعاظ والخطباء، ويعود هذا الانتشار إلى تقليدهم لبعض رموز الوعظ والخطابة الذين يعتمدون عليه، ولم يسلم من تكلفات السجع حتى بعض خطب المسجد الحرام[٣].

ومما يدعو إلى العجب أن انتشاره فيه مخالفة للقيمة الأدبية وللقيمة الشرعية، فالقيمة الأدبية تعتبر التكلف في السجع

(١) المرجع السابق، ص٤٢٦.

(٢) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (١٤٠٩): كتاب الصناعتين، بيروت، دار الكتب العلمية، ص٢٥٠.

(٣) أجاب قرابة ٤٤٪ من أفراد العينة أن الوعاظ يستخدمون السجع والعبارات المتكلفة، وهي نسبة عالية.

والمحسنات البديعية بوجه عام دليل ضعف وانحطاط، حتى قال ابن الأثير عن بعض رسائل الحريري المتكلفة: «كل هذا وإن تضمن مشقة من الصناعة فإنه خارج عن باب الفصاحة والبلاغة؛ لأن الفصاحة هي ظهور الألفاظ مع حسنها على ما أشرت إليه في مقدمة كتابي هذا وكذلك البلاغة فإنها الانتهاء في محاسن الألفاظ والمعاني، من قولنا: بلغت المكان إذا انتهيت إليه، وهذا الكلام المصوغ بما أتى به الحريري في رسالته وأورده ذلك الشاعر في شعره، لا يتضمن فصاحة ولا بلاغة، وإنما يأتي ومعانيه غثة باردة؛ وسبب ذلك أنها تُسْتكره استكراهاً، وتوضع في غير مواضعها، كذلك ألفاظه فإنها تجيء مُكرهةً أيضاً غير ملائمة لأخواتها، وعلم البيان إنما هو الفصاحة والبلاغة في الألفاظ والمعاني، فإذا خرج عنه شيء من هذه الأوضاع المشار إليها لا يكون معدوداً منه ولا داخلاً في بابه، ولو كان ذلك مما يوصف بحسن في ألفاظه ومعانيه لورد في كتاب الله ﷻ، الذي هو معدن الفصاحة والبلاغة، أو ورد في كلام العرب الفصحاء، ولم نره في شيء من أشعارهم ولا خطبهم»[١].

أما القيمة الشرعية فقد جاءت بكراهة السجع والتحذير منه في الدعاء والكلام، ففي الصحيحين أن النبي ﷺ حين حكم في

---

(١) ابن الأثير، محمد بن محمد (١٩٩٥م): **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، بيروت، المكتبة العصرية، ٢/ ٣٣٤، وابن الأثير هذا هو أخو ابن الأثير المحدث صاحب **النهاية في غريب الحديث**، وأخوهما الثالث هو المؤرخ ابن الأثير صاحب **الكامل في التاريخ**، وذكرهم الثلاثة الزبيدي في تاج العروس، ١٠/ ٢٤.

شأن المرأة التي قتلتها ضرتها وفي بطنها حمل فقال له أحدهم: يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل فمثل ذلك يطل. فقال رسول الله ﷺ: «**إنما هذا من إخوان الكهان**»[1] من أجل سجعه الذي سجع، وفي رواية: «**أسجع كسجع الأعراب**».

قال النووي معلقاً: «قال العلماء: إنما ذم سجعه لوجهين:

أحدهما: أنه عارض به حكم الشرع ورام إبطاله، **والثاني**: أنه تكلفه في مخاطبته، وهذان الوجهان من السجع مذمومان، وأما السجع الذي كان النبي ﷺ يقوله في بعض الأوقات وهو مشهور في الحديث فليس من هذا؛ لأنه لا يعارض به حكم الشرع ولا يتكلفه»[2].

وفي الدعاء يقول ابن عباس: «فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإني عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك؛ يعني: لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب»[3].

ولعل السبب في كراهة السجع أدباً وشرعاً هو الانشغال به عن المعنى المقصود والانتفاع بالكلام، فيكون همّ المتكلم حشد الألفاظ المسجوعة دون مراعاة المعنى وحصول الفائدة، وهم

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ٨/٩١، حديث رقم (٦٣٣٧).

(٢) النووي، يحيى بن شرف (١٣٩٢هـ): **شرح صحيح مسلم**، ٦/٩٦.

(٣) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ٧/١٧٥، حديث رقم (٥٧٥٨).

المستمع تتبع هذه الأصوات المتناغمة، «وطلبه فيه تكلف ومشقة، وذلك مانع من الخشوع وإخلاص التضرع فيه، وقد جاء في الحديث أن الله لا يقبل من قلب غافل لاهٍ، وطالب السجع في دعائه همته في ترويج الكلام واشتغال خاطره بذلك، وهو ينافي الخشوع»[١].

وفي المسند أن عائشة قالت للسائب قاص المدينة: «اجتنب السجع»[٢]، والأخبار والأحاديث في كراهته كثيرة لا حاجة إلى استقصائها، ولكن المقصود الإشارة إلى أن هذه الكراهة يدخل فيها «كل سجع متكلف وكذلك التفاصح الخارج عن حدّ العادة، وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات... بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده، ومقصود الكلام التفهيم للغرض وما وراء ذلك تصنع مذموم»[٣].

وعلى ذلك فإن ما يفعله بعض الخطباء والوعاظ من إطالة المقدمات بديباجة مطولة كلها سجع ومحسنات، وبعض من الكلمات الغريبة مما حفظوه أو نقلوه من غيرهم يستهلك جزءاً كبيراً من وقت الموعظة دون أن يكون له فائدة تذكر سوى محاولة شد انتباه الناس بما لا طائل من ورائه[٤].

---

(١) العيني، بدر الدين محمود (١٤٢١هـ): **عمدة القاري**، ١٠/٨٧.

(٢) أحمد بن حنبل (د.ت): **مسند الإمام أحمد**، ٦/٢١٧.

(٣) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (د.ت): **إحياء علوم الدين**، ٤/١٩٨.

(٤) يقرأ كثير من الأئمة في رمضان من كتاب «مجالس شهر رمضان» لشيخنا العلامة محمد بن عثيمين، وهذه المجالس مفتتحة بمقدمات مطولة محشوة بالسجع والغريب =

ومن المؤسف أن بعض الأئمة والخطباء يعمد إلى أحاديث الرسول ﷺ وأدعيته المأثورة فيغير في ألفاظها ليحيلها إلى ألفاظ مسجوعة، ظنا منه أن فعله ولفظه أبلغ من قول الرسول ولفظه، وكل هذا من الولع بالتكلف ومما تسرب للخطابة من عصور انحطاط الأدب ومما يروج له بعض الدعاة المشاهير في مواعظهم المسموعة وما يحشدون فيها من زخرف القول.

وهذه الظاهرة رصدها ابن القيم رحمه الله وعاب بها مواعظ زمانه فقال في وصفها: «طال العهد وخفي وصارت الشرائع والأوامر رسوماً تقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها، فأعطوها صورها وزينوها بما زينوها به، فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغي الإخلال بها، وأخلوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها، فرصّعوا الخطب بالتّسْجيعِ والفِقَر وعلم البديع، فنقَصَ بل عدم حظُّ القلوب منها وفات المقصود بها»[1].

ولربما احتج محتج بأن السجع والمحسنات تضفي على الكلام جمالاً، وهذا الجمال يسهم في التأثير على المخاطبين ويقوي وقع الكلام، وهذا الكلام يصح إذا وقف عند الحد المقبول والمعقول مما يعرفه أهل البيان وأرباب النقد، ويدركه

= من الكلمات فهم لا يحسنون قراءتها ولايدركون هم والمصلون معناها ويمكنهم تجاوزها بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله والشروع في الكلام بدونها، وهو ما يفعله بعض المدركين لهذا الأمر.

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (١٤١٢هـ): زاد المعاد في هدي خير العباد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١/٤٠٩.

الشخص من نفسه فكل تعمد للسجع وإلزام للنفس به، والحرص على ذلك دون غيره من الألفاظ، والتركيز عليه دون الاحتفاء بالمعنى ودلالة اللفظ عليه، كله من التكلف الممقوت المذموم.

والتكلف يكون بالسجع وغيره من المحسنات بأنواعها المعروفة في علم البديع، ويكون كذلك بالتكلف في طريقة الأداء، والتلاعب باللسان والتشدق بالفم بحيث يظهر الواعظ بصورة مقززة أمام الموعوظين، ففي سنن أبي داوود باب ما جاء في المتشدق بالكلام أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يبغض البليغ من الرجال، الذي يتخلل بلسانه، كما تَخَلَّلُ الباقرة بلسانها**»[1].

ومما سبق يتضح أن التكلف والتنطع في إخراج الكلام وفي صناعته بالسجع أو بغيره من المحسنات البديعية يؤدي إلى:

- إضعاف اللغة العربية التي وصف لسانها بأنه لسان مبين، وتكريس هذا النمط الأسلوبي في الخطب والمواعظ يروج لمظاهر ضعفها.
- إهمال المعاني وجواهر المقاصد والاتكاء على الألفاظ والبحث عنها حتى في الغريب الموحش غير المألوف.
- مخالفة هذا الأمر لمقصود الشارع من البيان والتبيين وتوضيح الحقائق بعيداً عن التكلف والتنطع.

---

(١) أبو داود، سليمان بن الأشعث (د.ت): سنن أبي داود، ٣٠١/٤، رقم (٤٣٥٢)، وصححه الألباني.

- إضاعة وقت الخطبة في إطالة المقدمات والاستطرادات التي يدعو إليها البحث عن السجع والمحسنات اللفظية.
- إفساد ذائقة الناس حتى صار بعضهم لا يعد البلاغة والبيان إلا هذا التكلف الممقوت الذي يروج له بعض المشاهير من الوعاظ والخطباء.
- ومن الأمور المهمة التي نتجت عن التكلف في أساليب العربية هي نفور الناس من الخطب وعدم إدراك معانيها مما يستدعي أن يتنزّل الخطباء بخطابهم بما يناسب فهم الناس، ولا يعني ذلك طبعاً الحديث بالعامية أو الإخلال بقواعد اللغة.

المبالغة والتهويل

هذه الطريقة في أداء الخطاب الوعظي لها مركزية مهمة، ذلك لأنها امتداد لتاريخ الوعظ والقصّ، وهي بالإضافة إلى ذلك موضع نقد حاد منذ القدم، وهو الآن أكثر وأعمق خطراً بسبب التطور المعرفي عند كثير من الناس وعدم تقبلهم للمبالغات والتهويل والعجائب وهي عندهم محل سخرية بها وبقائلها[١].

وفي شأن الوعاظ والقصاص يقول شعبة: «يأخذون الحديث منا شبراً فيجعلونه ذراعاً»[٢]، وعادة ما تأتي المبالغات في القصص والحكايات والإسرائيليات وبعض القصص الواقعية التي ربما يكون لها أصل صحيح، فيضيف عليها الواعظ من أوصافه ولغته ما يحاول به شد المستمع والتأثير فيه.

---

(١) أجاب قرابة ٤٥٪ من أفراد العينة الاستطلاعية أن الوعاظ يستخدمون قصصاً تتسم بالمبالغة، وتقريب ٢٧٪ يرون أن موضوعات الوعظ تكثر من الخرافات والمبالغات الممقوتة.

(٢) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤٠٩هـ): كتاب القصاصوالمذكرين، ص٣٠٨.

ويبدو أنها طبيعة نفسية عند القصاص والوعاظ، توافق رغبة لدى الجماهير المغرمة بالعجائب، ولقد رصد هذه الطبيعة ابن قتيبة في كلمة له يقول فيها: «ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه عجيباً خارجاً عن فطر العقول، أو كان رقيقاً يحزن القلوب، ويستغزر العيون، فإذا ذكر الجنة قال فيها الحورآء من مسك أو زعفران، وعجيزتها ميل في ميل، ويبوئ الله تعالى وليَّه قصراً من لؤلؤة بيضاء، فيه سبعون ألف مقصورة، في كل مقصورة سبعون ألف قبة، في كل قبة سبعون ألف فراش، على كل فراش سبعون ألف كذا، فلا يزال في سبعين ألف كذا، وسبعين ألفا كأنه يرى أنه لا يجوز أن يكون العدد فوق السبعين ولا دونها... **وكلما كان من هذا أكثر كان العجب أكثر والقعود عنده أطول**»[1].

وقد مرّ سابقاً أن تسرب الكذب للخطاب الوعظي ساهم في تسويغ هذه المبالغات التي تصل حد السخف والخرافة.

ولذلك تجد بعض الوعاظ يبحث عنها في الإسرائيليات أو الموضوعات لأنها مليئة بمثل هذه الخرافات، ولا يزال بعض الوعاظ والخطباء متأثرين بذلك يقول أبو شهبة: «لا يزال بعض الخطباء، ومقيمي الشعائر الدينية الذين ليس له علم بالحديث رواية ودراية، ولا سيما من لم يتأهلوا التأهل اللازم لمن يتولى الإمامة والخطابة، والذين لا يزالون يخطبون من الدواوين، أو يعتمدون في خطبهم على الكتب التي لا يُعتمد

(١) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (١٣٩٣هـ): **تأويل مختلف الحديث**، ص٢٨٠.

عليها في معرفة الأحاديث والتمييز بين صحيحها وضعيفها وموضوعها، والذين جعلوا غايتهم استرضاء الجماهير، فيذكرون لهم أحاديث في الترغيب والترهيب، وحكايات وقصصاً مثيرة عجيبة، أغلب الظن أنها من وضع القصاص، وجهلة الزهاد الذين استجابوا ذلك، وكان جل همهم تملق الجماهير، واستمالتهم بذكر المبالغات، والتهاويل والعجائب والغرائب، وما أجدر هذه الفئة بأن يحال بينها وبين الخطابة والوعظ والتذكير، حتى لا يسمموا أفكار الناس ويفسخوا القيم الدينية والخلقية الصحيحة»[1].

وأكثر ما تظهر المبالغات في نوعين من القصص والأخبار هي الإسرائيليات وبعض قصص السلف:

- **الإسرائيليات:**

يراد بها ما ينسب إلى اليهود والنصارى من قصص وأخبار وأحاديث ويقرر أبو شهبة أن «التوراة وشروحها، والأسفار وما اشتملت عليه، والتلمود وشروحه، والأساطير والخرافات، والأباطيل التي افتروها، أو تناقلوها عن غيرهم: كانت معارف اليهود وثقافتهم، وهذه كلها كانت المنابع الأصلية للإسرائيليات التي زخرت بها بعض كتب التفسير، والتاريخ والقصص والمواعظ، وهذه المنابع إن كان فيها حق، ففيها باطل كثير، وإن

(١) أبو شهبة، محمد بن محمد (د.ت): الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، القاهرة، مكتبة السُّنَّة، ص١٩.

كان فيها صدق ففيها كذب صراح، وإن كان فيها سمين ففيها غث كثير»[1].

ويبدو أن التحديث عن بني إسرائيل دخل إلى الوعاظ وغيرهم من المفسرين استناداً إلى حديث «**وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»[2]، فأخذه بعضهم على الإطلاق فحدث بما علم صدقه وما علم كذبه، مع أن المراد هو ما ذكره الحافظ ابن حجر عن الشافعي «قال: من المعلوم أن النبي ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب، فالمعنى حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه، وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم، وهو نظير قوله: إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، ولم يرد الإذن ولا المنع من التحدث بما يقطع بصدقه»[3].

ومع وضوح هذه المسألة ألا أنها تشابهت في طريقة تناولهم مع ما سبق ذكره من رواية الضعيف والموضوع من الأحاديث في الترغيب والترهيب[4]، وبعض من هذه القصص قد يكون فيها انتقاصٌ لأنبياء الله ولا يبالي بعض الوعاظ من نقلها، كما في القصة المشهورة التي تداولها بعض الوعاظ عن موسى عليه السلام

---

(١) المرجع السابق، ص١٢.

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ٤/٢٠٧، حديث رقم (٣٤٦١).

(٣) ابن حجر، أحمد بن علي (١٣٧٩هـ): **فتح الباري**، ٦/٤٩٩.

(٤) انظر صفحة (٩١) في هذا الكتاب.

وشكواه إلى الله من رجل كان يؤذيه فأذِن الله للأرض أن تطيع موسى لعقابه، فأمرها موسى بابتلاعه فابتلعته وجعل الرجل يستغيث بموسى فلا يجيبه فقال الله لموسى: ما أقسى قلبك يا موسى[1].

ومثل قصة المرأة العقيم مع موسى عليه السلام وهي أيضا منتشرة بين الوعاظ مع أنه لا أصل لها وتنافي العقل[2].

يقول ابن تيمية في نقد قصة من الإسرائيليات التي تشابه ما نحن بصدده وهي أن موسى قال: «إلٰهي دلني على عمل إذا عملته رضيت عني فقال: إنك لا تطيق ذلك، فخر موسى ساجداً متضرعاً فأوحى الله إليه: يا ابن عمران رضائي في رضاك عني. فهذه الحكاية الإسرائيلية فيها نظر؛ فإنه قد يقال: لا يصلح أن يحكى مثلها عن موسى بن عمران، ومعلوم أن هذه الإسرائيليات ليس لها إسناد ولا يقوم بها حجة في شيء من الدين إلا إذا كانت منقولة لنا نقلاً صحيحاً، مثل ما ثبت عن نبينا أنه حدثنا به عن بني إسرائيل، ولكن منه ما يعلم كذبه مثل هذه؛ فإن موسى من أعظم أولي العزم وأكابر المسلمين؛ فكيف يقال: إنه لا يطيق أن

---

(١) القصة أخرجها الطبري في تاريخه، ٤٤٨/١، وابن أبي حاتم في تفسيره، ٣٠١٨/٩، وابن عساكر في تاريخه، ٩٨/٦١، ٩٧ بأحداث متقاربة، وهي من الإسرائيليات وفيها تناقض في إذن الله لموسى أن يعاقب هذا الرجل ثم يلومه على ذلك، وفيها وصف نبي الله بقسوة القلب، وقد كتبتُ في نقدها مقالاً منشوراً في شبكة الإنترنت، والقصة موجودة في أشرطة سمعية وعظية وفي اليوتيوب مقاطع متعددة لدعاة يستخدمون هذه القصة الواهية.

(٢) في اليوتيوب مقاطع متعددة مشاهداتها بالآلاف عن هذه القصة.

يعمل ما يرضى الله به عنه، والله تعالى راض عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، أفلا يرضى عن موسى بن عمران كليم الرحمٰن»[1].

ولهذا يعلق الرازي في تفسيره على قصة «ما أقسى قلبك يا موسى» آنفة الذكر بقوله: «والذي عندي في أمثال هذه الحكايات أنها قليلة الفائدة... ثم إنها في أكثر الأمر متعارضة مضطربة، فالأولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب»[2].

ولو أردنا أن نتتبع كثيراً من هذه القصص الإسرائيلية القائمة على المبالغات لطال بنا الحديث وإنما نكتفي هنا بما سبق مع إعادة القول أن هذه القصص والمبالغات التي كانت قديماً محل نقد واستهجان من العلماء وأهل الحكمة والعقل، هي في هذا الزمن أشد استنكاراً، خاصة في صفوف الشباب الذين لم يعد ينطلي عليهم الخطاب المموه أو المبالغ فيه، ويعدونه مثلبة ونقصاً، وربما اتخذوه سخرية به وبمن يحمله وقد يتعدى ذلك إلى السخرية بالدين نفسه دون إدراك ووعي.

- **قصص السلف:**

أدرك السلف من المبالغات في أخبارهم وقصصهم ومواقفهم وزهدهم وعبادتهم وخوفهم ورجائهم ما أدرك قصص

---

(١) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (١٤٢٥هـ): **مجموع الفتاوى**، ١٠/٦٨٧.

(٢) الرازي، محمد بن عمر (١٤٢٨هـ): **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٥/١٧.

الأنبياء، فقد نسجت القصص حول بعضٍ منهم بقصد الاقتداء والتأسي، وفي بعضها من المبالغات والمغالطات ما يجدر بنا أن نقف عنده.

وهذه القصص التي تنسج نسج الخيال تجد من يفتي بجوازها وجواز ترويجها للناس بقصد العظة والعبرة[1]، مع ما فيها من الكذب وعدم المعقولية والسذاجة وتشويه صورة الدين بحجة الدعوة إليه، والدين في غنى عن هذه الأساليب الملتوية كما قال الحافظ بن حجر رحمه الله: «والدين بحمد الله كامل غير محتاج إلى تقويته بالكذب»[2].

والوعظ بقصص السلف رحمهم الله يمكن أن نجعله على مراتب وكيفية التعامل معه وفقا لهذه المراتب وما يترتب عليها:

١ ـ ما علم كذبه واستحالته إما من سنده أو من متنه ومثل هذا يجب اطّراحه وعدم الالتفات إليه إلا لبيان ضعفه ووهنه.

٢ ـ ما كان صحيحاً ثابتاً يصف كثرة عبادة بعضهم وزهده وزيادته فيها فوق ما هو معروف من سُنَّة النبي ﷺ، وهذا النوع من القصص يحتاج إلى تنبه من ثلاث جهات:

---

(١) يستفتي أحدهم حول قصة لا أصل لها في حكم نشرها وتداولها ويجيبه مركز الفتوى: «لا مانع شرعاً من تناقل مثل هذه القصة لما فيها من العظات والعبر والحث على الورع والعفة والبعد عن الحرام ولا يستبعد وقوعها وصحتها من السلف الصالح والرعيل الأول».
انظر الفتوى محررة على موقع (إسلام ويب) وهو من المواقع المشهورة في تقديم الفتوى، ورقم الفتوى فيه (١٣٦٧٤٩)، على الرابط:
http://fatwa.islamweb.net/fatwa/index.php?page = showfatwa&Option = FatwaId&Id = 136749

(٢) ابن حجر، أحمد بن علي (١٣٧٩هـ): فتح الباري، ٦/ ٤٩٩.

الأولى: جهة مخالفته لهدى النبي ﷺ، مثل الاستشهاد بمن ترك الزواج لأجل العلم أو العبادة.

الثانية: أن كثيراً من هذه القصص المروية عنهم تدعو الناس إلى أمر لا يطيقونه ولا يستطيعونه، فيكلف الناس شططاً من أمرهم، وربما أصابهم ذلك باليأس من حالهم، فبدلاً من أن يكون محفزاً للسلوك يصبح مثبطاً وعائقاً؛ كمواصلة بعضهم في الصيام، أو صلاته للفجر بوضوء العشاء كذا سَنَة!

ولذلك يقول ابن رجب «كثيراً ما يذكر في مناقب العباد من الاجتهاد المخالف للشرع ينهى عن ذكره على وجه التمدح به والثناء به على فاعله»[1].

الثالثة: أن مفهوم السلف أصبح له مكانة كبيرة عند الناس، بل تحول في تطبيقات بعضهم إلى حجة تحت مسمى منهج السلف، دون تحقيق بيّن لمعنى السلف وكيفية التعامل مع ما ورد عنهم، ولذلك صار بعض الوعاظ إذا أراد أن يحث على سلوك أو يحذر منه ينسب ذلك إلى السلف دون تحقيق أو تدقيق، وربما يكون ورد عن أحد من السلف، ولكنه ينسبه إلى السلف بقوله كان السلف يفعلون كذا أو كان هذا منهج السلف[2].

---

(١) ابن رجب، عبد الرحمٰن بن أحمد (١٤٢٢هـ): **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، الدمام، دار ابن الجوزي، ١/ ١٥٠.

(٢) مفهوم السلف لحقه من المبالغات ما يحتاج إلى تحرير في مفهومه الاصطلاحي والتاريخي، وما يمكن أن ينسب للسلف جميعهم أو إلى آحادهم، فقد أضحى بعضهم يتخذ هذه الكلمة معياراً ودليلاً في وجه المخالف، والمحققون لا ينسبون =

٣ ـ ما يُروى عنهم مما يثبت سنداً ومتناً ويكون موافقاً لهدى النبي ومما يطيقه الناس قولاً وعملاً وتدركه عقولهم فهذا لا إشكال في نقله والوعظ به.

إن كتب التراجم والطبقات مليئة بكثير من القصص والأخبار وفي بعضها مبالغات صنعها الأتباع لشيوخهم بدافع الحب أو بدافع التعصب، وهذه تكاد تكون طبيعة في الأتباع، ينسجون حول علمائهم قصصاً وأساطير كما قال ابن تيمية عن بعض ما يروونه عن علي ﷺ: «ولكن المروي أنه ما قلع باب الحصن حتى عبره المسلمون، ولا رمى في منجنيق قط، وعامة هذه المغازي التي تُروى عن علي وغيره قد زادوا فيها أكاذيب كثيرة؛ مثل ما يكذبون في سيرة عنترة والأبطال»[1].

والجدير بالذكر والتأمل هنا أن هذه المبالغات صبغت بعض القصص بالأسطورية، وجعلت للأجيال مبرراً في أن ذاك الزمن لا يمكن الاقتداء بهم فبدلاً من أن تسهم في التحفيز صارت داعية للتبرير حتى بت تسمع من بعضهم (هؤلاء الصحابة) أو (كيف تقارننا بهم)!، ويزيد هؤلاء تهرباً من الاقتداء، ويزداد الوعاظ

= للسلف إلا ما ثبت أنهم مطبقون عليه كما هو صنيع ابن تيمية رحمه الله، وتجده مبثوثاً في كتبه كقوله: «وأما ما أذكره فأذكره عن أئمة القرون الثلاثة بألفاظهم وبألفاظ من نقل إجماعهم من عامة الطوائف». الفتاوى، ٣/٢٢٩، فهو لا يثبت ذلك إلا بنقل محقق عنهم أو عن غيرهم من جميع الطوائف، بحيث يكون القول المنسوب إليهم معلوماً تمام العلم، وليس هو مجرد نقل عن واحد منهم أو بعض منهم قد يصح وقد لا يصح، وقد يكون له مخالف من السلف أيضاً.

(١) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (١٤٢٥هـ): مجموع الفتاوى، ٤/٤٩٣.

رجوعاً إلى الوراء، حفراً عن قصص وغرائب من أجل التحفيز والاقتداء!، في تناقض بين الأداة ونتيجتها!

ومما زاد الطين بِلّة أن هذه القصص الواهية متناً وسنداً يتناقلها بعض حملة الشهادات العليا، ويروجون لها، وهم محسوبون على العلم والعقل ولهم انتشار واسع، وهذا مما لا شك من الأخطاء التي أسهمت في إلغاء النقد والنظر العقلي لما يقرأ ويقال، وشككت الأجيال الحاضرة في الخطاب الوعظي الذي يقوم على مثل هذه القصص المكذوبة[1].

وقد أكثر بعض الوعاظ من القصص الواقعية تارة ينسبها إلى نفسه، وتارة يقول حدثني الثقة بها، وغالب هذه القصص تدور في فلك ترهيب الناس من الموت ولحظة الاحتضار وعذاب القبر وسوء الخاتمة، وتمتلئ التسجيلات الإسلامية والمواقع الشبكية بمواد سمعية قديمة وحديثة مثقلةٍ بمثل هذه القصص.

وقد زاد من شهرتها وتناقلها أن الجماهير مغرمة بتناقل هذه العجائب والغرائب كما قال ابن قتيبة، مع أنهم لا يعلمون مدى صحتها سوى أن الواعظ الفلاني وهو ثقة عندهم حدثهم عن ثقة لا يعرفونه.

---

(١) النماذج كثيرة في الإنتاج الوعظي على هذه القصص الواهية مثل قصة أبي قدامة الشامي وهو مجهول ومن فيها مجاهيل، ومثل قصة ثعلبة بن عبد الرحمٰن التي قال عنها ابن الجوزي: «هذا حديث موضوع شديد البرودة، ولقد فضح نفسه من وضعه... وقد اجتمع في إسناده جماعة ضعفاء». الموضوعات، لابن الجوزي، ٣/ ١٢٣، وفي اليوتيوب والأشرطة السمعية كثير من ذلك.

ثم هذه القصص لا تقع إلا لناس مخصوصين؛ كالتي تنسب لبعض مغسلي الموتى وما شاهده من أحداث، ولا ندري ما الذي جعل مثل هذه العجائب والغرائب لا تقع إلا له، ولا يرويها إلا هو، رغم كثرة مغسلي الموتى!

وقل مثل هذا عن بعض الأطباء الذين يروون قصصاً للموتى في غرف الإنعاش ولا تنقل إلا عنهم ولا تحصل إلا لهم، مما يدعو إلى الشك والريبة في مثل هذه القصص، ثم على افتراض صحتها ينبغي للعاقل من الوعاظ أن يصون نفسه وعرضه عن التهمة بترك الإكثار منها، والتحديث بها والترويج لها، وهي إلى ذلك ذات آثاراً سلبية تضاف إلى عدم التحقق من مصداقيتها منها:

- أنها وإن أخافت بعض المستمعين لها وأثرت فيهم أثراً حسناً، فإنها نفرت آخرين كثر وصاروا يتعاملون معها ومع الخطاب الوعظي بريبة وشك وتحذير للناس منه، بسبب ما فيه من غرائب.

- أنها لا تناسب ـ على فرض صحتها وصدقها ـ طبيعة الزمن الذي نعيشه، فالناس ما عادت عقولهم تتقبل إلا ما علموا صحته وصدقه، وصار ضررها في تشويه الخطاب الإسلامي كبيراً وخطيراً.

- أن بعض هذه القصص المخيفة يستمع إليها بعض المضطربين نفسياً والذين يزيدهم سماعها تدهوراً في حالتهم الصحية والنفسية، خاصة أولئك المصابين بالاكتئاب الحادّ ومرض

الهلع، فيتأثر منها حزناً وبكاء ويظن الواعظ أنه من زيادة إيمانه وتوبته، وما يدري أن هذا الأثر بسبب مرضه.

- بعض القصص التي تتناقل حول المشكلات الأسرية والخيانات الزوجية وما يدور في فلكها، أوقعت بعض الأزواج في الشك في أهله وحرمه أو الزوجة في زوجها، وجلبت لهم من البلاء ما هم في غنية عنه[1].
- بعض هذه القصص فيها من الألفاظ والعبارات والإيحاءات الجنسية ما يخدش الحياء خاصة إذا استمع لها الفتيان والفتيات والنساء في بيوتهن.
- وبعض منها تحكي صورا لفواحش فظيعة وبطرق لا تخلو من مبالغة مما تقزز لسماعه النفوس وتنفر منه الطباع السليمة.

---

(١) يوجد مواد سمعية ومرئية عن قصص للخيانات الزوجية ووقوع الفتيات في الحرام وعن اللقطاء وما يدور في هذا الفلك، وكثير منها يتداول عبر الشبكات الاجتماعية وموقع اليوتيوب، وبعضها إما كذب محض أو لا يعلم أصحابها وفيها من البشاعة والشناعة ما تنفر منه الفطر السليمة!

التائبون الجدد

يمن الله بالتوبة على من يشاء من عباده وهو عظيم الرحمة والفضل، ويعمد بعض الدعاة إلى دفع هؤلاء التائبين للوعظ عبر الاستفادة منهم في نقل أخبارهم قبل التوبة وكيف تابوا وأقلعوا عما كانوا عليه.

والدعوة إلى الله وتبليغ الدين ليست حكراً خاصاً على أحد من الناس، فللتائبين وغيرهم أن يبلغوا ويدعوا إلى الله ما داموا مؤهلين لذلك علما ومعرفة.

الإشكالية التي نود أن نشير إليها هنا هي الزّج ببعضهم في الوعظ والتذكير دون أن يكون عندهم من العلم الشرعي والحكمة ما يؤهلهم لهذه المهمة، ظناً منهم أن الوعظ باب مفتوح يلج منه كل أحد.

وفي كثير من الأحيان يستشهد بعض المتحمسين لهذه الفكرة

بحديث النبي ﷺ «**بلغوا عني ولو آية**»[1]، واستشهادهم بهذا الحديث في غير محله؛ لأن البلاغ عن الله ونبيه على نوعين:

- بلاغ بما قاله الله وقاله رسوله ﷺ.
- بلاغ عن مراد الله ورسوله ﷺ.

والحديث شامل للأمرين معاً، والأول منهما المطلوب فيه البلاغ بكلام الله وكلام رسوله لأنه هو الذي يصدق عليه لفظ (الآية)، أما النوع الثاني: فيحتاج المبلغ له أن يكون على علم وفهم وإدراك بمعرفة مراد الله ورسوله؛ لأن نسبته إلى الله ورسوله بغير علم ونقله إلى الناس هو من القول على الله بغير علم.

«قال القاضي البيضاوي إنما قال آية أي من القرآن، ولم يقل حديثاً فإن الآيات مع تكفل الله بحفظها واجبة التبليغ، فتبليغ الحديث يفهم منه بالطريق الأولى، وقيل: إنما قال آية ليسارع كل سامع إلى تبليغ ما وقع له من الآي ولو قل؛ ليشمل بذلك نقل جميع ما جاء به»[2]؛ أي: جميع ما جاء به النبي، وهي أقواله وأحاديثه التي رواها الرواة الأثبات عنه، وكلا النوعين البلاغ بما قاله الله ورسوله والبلاغ بمرادهما يحتاج إلى الحكمة والتدرج ومراعاة حال المخاطبين.

وما يقوم به التائبون الجدد في وعظهم لا يقتصر على نقل

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ٤/٢٠٧، حديث رقم (٣٤٦١).

(٢) العيني، بدر الدين محمود (١٤٢١هـ): **عمدة القاري**، ١٠/٤٥٩.

الآيات والأحاديث بل هو من كلامهم وحديثهم وقصصهم وأخبارهم، وقد يقعون في محاذير منها:

ـ الحديث في أمور الشرع والوعد والوعيد دون علم، وقد يأخذ بعض الناس حديثهم على أنه حقيقة وشرع وفي هذا تحريف وتشويه للدين.

ـ يعمد بعضهم إلى نقل تجاربه وقصصه مع الذنوب والكبائر التي كان يمارسها، وربما استغرق وفصل فيها وفي كيفية وقوعها ويتحول الوعظ إلى ما يشبه المجاهرة، بل قد يستفيد ضعفاء النفوس من حديثه عن هذه الذنوب فيستفيد مما فيها من الحيل والجرأة، أو قد تدله على معصية وطريقة كان غافلاً عنها، أو تفتح له باباً كان منغلقاً!

وقد نبه الغزالي إلى شيء مما وجده عند بعض الوعاظ الذين ينقلون هفوات بعض السلف في وعظهم فيحذر من نقل «أحوال تومئ إلى هفوات أو مساهلات يَقْصُر فهم العوام عن درك معانيها، أو عن كونها هفوة نادرة مردفة بتكفيرات متداركة بحسنات تغطي عليها، فإن العامي يعتصم بذلك في مساهلاته وهفواته، ويمهد لنفسه عذراً فيه، ويحتج بأنه حكي كيْت وكيْت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر، فكلنا بصدد المعاصي فلا غرو إن عصيتُ الله تعالى، فقد عصاه من هو أكبر مني، ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لا يدري»[١].

---

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (د.ت): إحياء علوم الدين، ١/ ٧٠.

وكلام الغزالي وإن كان محكياً عن ما يروى عن السلف، فإن ما يحكيه بعض التائبين عن أنفسهم يشبه هذا من هذا الوجه، وقد يشعر المتلقون له والسامعون لوعظه المتضمن هذه الهفوات عن نفسه إلْفاً لها مع مرور الزمن.

ـ بعض القصص التي يسوقونها عن أنفسهم فيها من البشاعة والفضاعة ما تقشعر له الأبدان، فيكدر على الناس أنفسهم وينفرهم، فإذا أضفت إلى ذلك أن بعضهم ربما نقل مثل هذه القصص والأخبار البشعة في مواسم مباركة كرمضان والحج وبعد الصلوات ازدادت فضاعتها ونفور الناس منه ومن وعظه، وهو أمر مشاهد وملموس.

ـ يتحول بعضهم رغم قرب عودته وتوبته إلى مستشار يقدم للشاب استشارات نفسية وتربوية في التعامل، خاصة ما يتعلق بمشكلات المخدرات وفي بعضها ضرر على الشباب لأنها صادرة من غير أهلها، وهو وإن كان يدرك بعض هذه المشكلات وطرائقها، لكنه ليس مؤهلاً تربوياً وعلمياً لكيفية التعامل معها بالطريقة المثلى المنضبطة شرعاً وعلماً وحكمة.

وهذا الحديث ليس من قبيل التقليل من شأنهم، فإننا نسأل الله لنا ولهم التوفيق والسداد والثبات على الحق، ولكن ينبغي أن ينظر للأمر بعين الاعتبار، ويمكن الاستفادة منهم ومن مساهمتهم في توجيه الشباب وغيرهم تحت إشراف علمي

مختص، يرسم لهم الطريقة التي يتحدثون بها، والمحاذير التي قد يقعون فيها بلطف وحسن عبارة، أو من خلال تأهيلهم تأهيلاً شرعياً قبل إن يتصدروا لهذا العمل الجليل.

الوعظ والشبكات الاجتماعية

نقصد هنا بالشبكات الاجتماعية هذه الثورة العالمية الرقمية في التواصل الإنساني الذي أتاح للناس التواصل عبر شبكة الإنترنت وتبادل أخبارهم وصورهم وحالاتهم ونشر أفكارهم بدون قيود تتحكم في منعهم من ذلك.

ويعرفها أحد الباحثين بأنها: «شبكات اجتماعية تفاعلية تتيح التواصل لمستخدميها في أي وقت يشاءون وفي أي مكان من العالم، ظهرت على شبكة الإنترنت منذ سنوات قليلة وغيرت في مفهوم التواصل والتقارب بين الشعوب، واكتسبت اسمها الاجتماعي كونها تعزز العلاقات بين بني البشر، وتعدت في الآونة الأخيرة وظيفتها الاجتماعية لتصبح وسيلة تعبيرية واحتجاجية، وأبرز شبكات التواصل الاجتماعي هي (الفيس بوك، تويتر، واليوتيوب) وأهمها هي شبكة (الفيس بوك)، التي لم يتجاوز عمرها الست سنوات وبلغ عدد المشتركين فيها أكثر

من (٨٠٠) مليون شخص من كافة أنحاء العالم»[١].

ومنذ بداية هذه الشبكات وتعرف الناس عليها كان الخطاب الديني من أهم الفاعلين فيها على اختلاف أنواعه، ومن بين أهم الفاعلين فيها الخطاب الوعظي.

وتتميز هذه الشبكات عن الطرق الكلاسيكية في التواصل بميزات تضع المشاركين والمتفاعلين فيها على المحك من أهمها:

- سرعة انتقال وتداول المعلومة ووصولها لقطاع عريض دون اعتراض أو حد من انتشارها.

- سرعة التفاعل مع المعلومة أو الحدث والتعليق عليه، وبقدر حجم الحدث أو المعلومة وأهميتها أو طرافتها تتحول إلى موضوع ساخن خاصة على (تويتر) حيث تتحول إلى وسم (هاشتاق) يتم تداول الحديث فيه عن تداعيات المعلومة.

- حرية المشاركة وإبداء الرأي والتعليق من أطياف وفئات المجتمع، وهذه الحرية هي التي أعطت لها دوراً بارزاً في الثورات العربية، حيث تشير دراسة في جامعة واشنطن إلى أن «الناس استفادت كثيراً من المشاركة في الشبكات الاجتماعية سعياً للديمقراطية، وأصبحت مختلف وسائل الإعلام من صحافة ومواقع جزءاً هاماً من الأدوات الساعية للحرية.. حيث وجدنا إن

(١) المنصور، محمد (٢٠١٢م): **تأثير شبكات التواصل الإجتماعي على جمهور المتلقين**، رسالة ماجستير في الإعلام والاتصال مقدمة إلى الأكاديمية العربية في الدنمارك، ص٢٥.

التعليقات في (تويتر) قد ارتفعت من (٢٣٠٠) تعليق في اليوم الواحد لتصل إلى أكثر من (٢٣٠٠٠٠) في اليوم الواحد، وهذا يعكس نوعاً من الانفجار والعطش للحرية والديمقراطية والتغيير»[١].

وفي مثل هذه الأجواء يصبح جميع مستخدميها متساوين في أمرين:

- تحرير المحتوى ونشره دون قيد إلا القيود الذاتية.
- نقد المحتوى مهما كان مصدره.

وبسبب هذا التساوي في النشر والنقد كانت شرائح كبيرة من النخب التي شاركت فيها محل نقد قوي وشديد، وقد نجح بعض النخب في التفاعل الإيجابي مع هذه الشبكات وشعبويتها الطاغية، وأخفق كثير منهم وسقط في فخ المحتوى الجديد، حين تعامل معها بالطريقة الكلاسيكية السائدة قديماً.

ولقد كان للأسماء البارزة المعروفة بالوعظ حضورٌ مشاهدٌ وكبيرٌ فيها خاصة (تويتر)، والملاحظ أنهم حصدوا جماهيرية عالية تشبه إلى حد كبير الجماهيرية على الأرض، ومتابعوهم أكثر بكثير مقارنة بالعلماء والمفكرين والمتخصصين في مجالات علمية أخرى.

والمتابع للمضمون الوعظي الذي يبثه هؤلاء عبر الشبكة

(١) المرجع السابق، ص٣٠.

يجده يتراوح بين مضمون قديم وهو ما يخص الحث على الخير والتحذير من الشر والتذكير بالله والدار الآخرة بعيداً عن القضايا المعاصرة، وبين موضوعات ساخنة تدخل في إشكالات الفتوى والتحليل السياسي، أو بعض المشكلات الاجتماعية وهي أماكن ملغومة وشائكة لدى كثير من الشباب ذكوراً وإناثاً تحسس منها.

وبعض مشاركات الخطاب الوعظي تتسم أحياناً بالعجلة وعدم التريث والتثبت خاصة في نشر بعض الأخبار أو القصص التي لا تصح، أو تكون ملفقة في أصلها، مما أوقع بعضهم في حرج مع الخطاب النقدي المضاد الذي يكشف زيفها في لحظات يسيرة.

لذلك فإن طبقة الوعاظ خاصة يتعرضون في تويتر لمتابعة دقيقة من اتجاهات مضادة مهمتها أحياناً الترصد وجمع الأخطاء وتحويلها إلى موضوع للتداول والسخرية والتهكم.

وقد ساعد في ذلك الأجواء الحرة وكذلك ما يقع فيه بعض المتحمسين من تصرفات تلقيهم في كماشة النقد اللاذع، خاصة حين يتعلق الحديث بالمرأة والحجاب والتحرش والحريات والإفتاء وغيرها[١].

ومن أبرز ما يمكن تسجيله من ملحوظات تحتاج إلى تدارك في الخطاب الوعظي الشبكي التواصلي ما يلي:

---

(١) في تويتر ظهر أكثر من وسم تداعياً على تغريدات بعض الوعاظ حول قضية قيادة المرأة والتغريب والتحرش ومن عادة المشاركات في الوسم المبالغة في النقد والسخرية، تبعاً لما في هذه التغريدات من تهويل أو مبالغة!

ـ عدم التثبت في نقل الخبر أو المعلومة أو التهويل منها والمبالغة فيها، وهناك الكثير من التغريدات التي تستشهد لموضوعاتها بدراسات غير موجودة أو إحصاءات خاطئة أو معلومات مغلوطة.

ـ الجرأة على مقام الفتيا بدون علم وبدون تقدير لمآلات الخطاب، ومعرفة نفسيات وتقبل الجماهير وردات أفعالهم، وإدراكهم المعرفي[1]!

ـ الدخول في صراعات حوارية ونقاشات مع شخصيات أخرى ذات توجهات ليبرالية أو علمانية دون التسلح بالعلم في المجال الذي يتم النقاش فيه، وقد يدفع ذلك إلى استخدام لغة غير لائقة سواء كانت تحمل تفسيقاً أو تكفيراً أو سباباً أو شتائم تحطُّ من قيمة الواعظ أمام الجماهير، وقد يكون في أحيان مستدرجاً لهذا المنحنى لإيقاعه في إحراج أمام الجماهير التي تتناقل عباراته بطريقة غير لائقة.

ـ اتجاه بعضهم نحو بنية التشدد في أحكامه ووعظه وتذكيره دون مراعاة لعنصر الزمان والمكان ومدى ملاءمة الخطاب لعقول الجماهير الذين يتابعونه وينقلون عنه.

ـ لدى بعض الوعاظ ضعف إدراك للفروقات الجوهرية بين شبكات التواصل الاجتماعي والأماكن الواقعية الحقيقية التي يعظ

(١) في تويتر أفتي أحد الوعاظ بتحريم السفر لدبي وكان لها صدى واسع وأثير حولها لغط كثير مما حدى به للكتابة معتذراً عنها.

ويذكر فيها، مع وعي ضعيف بالتغييرات الكبيرة التي طرأت على الناس في كيفية تلقيهم للوعظ والخطاب الديني، إذ يتوقع أنهم في فضاء الشبكات يُصيخون بأسماعهم كما يفعلون في المساجد، وأنهم يتجاوزون عن الهفوات والأخطاء كما هو الحاصل في الوعظ الحقيقي.

ـ يضاف إلى ما سبق عدم الاهتمام بفهم قول ابن مسعود: «حدثوا الناس بما يعقلون» فيخرج من بعض الوعاظ من الحديث والأخبار ما يشكك الناس ويشوش عليهم وإن كان في أصله حقيقة، لكن من المهم معرفة مدارك الناس من جهة ومعرفة مدى استفادتهم وفهمهم للخطاب من جهة أخرى.

ـ نشر بعض الصور الوعظية أو مقاطع الفديو التي يكون في محتواها ما تشمئز منه النفس إما لسوء فكرتها أو لبشاعتها أو لغير ذلك مما يخلق تنفيرا للناس من هذا الخطاب.

والخلاصة أن الخطاب الوعظي يحضر بقوة في الشبكات الاجتماعية عبر الكلمة والصورة وفيه تفاعل جيد من بعض الذين تميزوا فيه بوسطية واعتدال، ولا يخلو بعضه من الملاحظات التي ذكرناها سابقاً مما يستدعي من المؤسسات المعنية بالمجال الوعظي أن تهتم بتقديم مواد علمية وتدريبية في كيفية التعامل مع الشبكات الاجتماعية وإدارة الجماهير فيها.

ومن المهم في عمليات التقييم أن يكون ضمن المعيار العلمي الشرعي أولا، مع عدم إغفال جانب المتلقين ومدى

استجابتهم لأن هذا العنصر مهم شرعياً أيضاً، لكن هذا لا يعني أن نقع أو نوقع الواعظ تحت سلطة الجماهير وسطوتهم، فيكون سؤال المحتوى ينطلق من مدى شرعية ومعقولية ما يكتبه، ثم مدى فهم الناس وتعقلهم له، حتى لا يكون في الحق الذي يأتي به فتنة لغيره.

من مضامين الخطاب الوعظي

- ترغيب أم ترهيب.
- المرأة في سياق الوعظ.
- سقف المثالية.
- الصراعات والتشهير.
- الوعظ والسياسية.
- الدنيا والآخرة.
- الوعظ ومسائل الخلاف.

«عظ الناس بفعلك، ولا تعظهم بقولك»

[الحسن البصري]

ترغيب أم ترهيب

نتحدث عن الترغيب والترهيب هنا باعتبارهما مضمونان من مضامين الوعظ وإن كان بعض الدارسين يرى أنهما أسلوبان وهو خلاف لا يضير كثيراً، والترغيب والترهيب في الوعظ شأنهما شأن آخر، ذلك لأنه مر معنا في مفهوم الوعظ وتحليلنا للخطاب الوعظي أن الترغيب والترهيب هما ركنا الخطاب الوعظي، فالخطاب الوعظي قائم على ترغيب وترهيب مؤثر في النفوس، ولذلك عددناه مضموناً وليس أسلوباً.

وفي الخطاب الوعظي وغيره من أساليب الدعوة والتربية يتساءل الكثيرون أيهما يقدم على الآخر؟

ويرصد أحد الباحثين ثلاثة أقوال للعلماء في المفاضلة بين الترغيب والترهيب هي:

١ ـ التساوي بينهما فلا يرجح أحدهما على الآخر ونسبه إلى جمهور السلف.

٢ ـ ترجيح الترهيب على الترغيب.

٣ ـ التفصيل بحسب حال الموعوظ[١].

وقد ساق الباحث بعض الأقوال الواردة عن العلماء في ذلك ورجح القول الثالث منها، ولكي تتحرر المسألة يجدر بنا أن نفرق بين نوعين من الخطاب الوعظي، هما خطاب الجمهور، وخطاب الأفراد.

ففي الخطاب الذي يخص به الفرد دون غيره وهو ما يسمى بالنصيحة فإن الواجب هنا مراعاة حال الفرد وما يصلح له، وهو ما عناه الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «اعلم أن الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليها فيعتريه شك في أن الأفضل أيهما؟ وقول القائل: الخوف أفضل أم الرجاء؟ سؤال فاسد، يضاهي قول القائل الخبز أفضل أم الماء؟، وجوابه أن يقال: الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل، وإن استويا فهما متساويان، وهذا لأن كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه، والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل»[٢].

---

(١) ابن صفية، سليمان العربي (١٤٣١هـ): منهج السلف في الوعظ، ص٢٩٢.

(٢) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (د.ت): إحياء علوم الدين، ٦/ ٨٢.

وهذا يدعو الواعظ والناصح إلى معرفة حال الموعوظ لأن معرفة ذلك تفيده في اختيار الأنسب؛ لأننا خاصة في جانب التخويف قد نقع في أخطاء، فبعض الموعوظين فيهم خوف زائد عن الحد سببه مرض نفسي كالاكتئاب والهلع، فإذا تعرض لتخويف وترهيب زادت حالته بلاءً وسوءاً.

وبقي أن نقول ما الشأن في الخطاب العام الذي يكون على المنابر ورؤوس الأشهاد؟ والجواب على ذلك يكون بتقرير أمور من أهمها:

- أن التوازن في حياة الناس وشؤونهم مطلب مهم؛ ولذلك تجد أن العلماء يقررون كثيراً هذا المطلب ولكننا في التطبيقات نغلب جانباً على آخر، فيكون لدينا فجوة كبيرة بين النظرية والتطبيق، وينتج عنه خلل واضح في الممارسات والنتائج الصادرة عنها.

- من المهم مراجعة الخطاب القرآني لأنه استخدم الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، ولو تأملنا لوجدنا «أن من أساليب القرآن حيث ذكر الرحمة والعذاب أن يبدأ بذكر الرحمة كقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، وعلى هذا جاء قول النبي ﷺ حكاية عن الله تعالى: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[1]،

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ١٥٣/٩، حديث رقم (٧٤٢٢).

وقد خرج عن هذه القاعدة مواضع اقتضت الحكمة فيها تقديم ذكر العذاب ترهيباً وزجراً»[1].

وهذه الطريقة القرآنية يمكن أن تكون مؤشراً مهما للخطاب الوعظي في توازنه المطلوب في حديثه إلى الجماهير.

ـ إذا نظرنا إلى مصدر الترغيب والترهيب وجدنا أن الترغيب مرتبط بالرحمة الداعية للمحبة والتعلق بالله على خلاف الترهيب الذي تكون ممازجة المحبة له أقل، وعن هذا يقول الغزالي: «وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء، فالرجاء أفضل لأنه مستقىً من بحر الرحمة، ومستقى الخوف من بحر الغضب، ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب، وليس وراء المحبة مقام، وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضي العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء»[2].

ـ وإذا نظرنا إلى الغالب على أحوال الناس في زمن من الأزمان ووجدنا أن الغالب عليهم الإفراط والتساهل كان الترهيب أولى وأصلح «وأكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء وذلك لأجل غلبة المعاصي»[3].

إن الاعتبارات التي ينظر بها إلى موضوع الترغيب والترهيب

---

(١) الزركشي، محمد بن عبد الله (د.ت): البرهان في علوم القرآن، حلب، دار إحياء الكتب العربية، ٤/ ٦٣.

(٢) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (د.ت): إحياء علوم الدين، ٦/ ٨٢.

(٣) المرجع السابق.

كثيرة والزوايا متعددة بحيث يصعب الجزم بالأصلح على وجه العموم، لكن مراعاة زوايا النظر وأحوال الناس ومحاولة التوازن هو الأمر المطلوب مع ملاحظة متابعة الخطاب الوعظي وواقعه وما هو الغالب عليه؛ لأن الدعوة إلى التوازن لا تكاد تكون موجودة واقعياً، فغلبت الخطاب الترهيبي أكثر بشكل ملاحظ ويتجلى ذلك من خلال ما يكتب في الشبكات الاجتماعية عن الخطب والمواعظ وشكوى الشباب من الإفراط في التخويف[1].

وعليه فإنه ينبغي على الوعاظ مراعاة هذا الأمر لأن كثرة الترهيب وتخويف الناس داعية إلى تقنيطهم من رحمة الله، وإصابة نفوسهم في مقتل خطير، وقد نقلنا عن عائشة وابن عباس فيما مضى تحذيرهما من تقنيط الناس.

إن النفوس التي تنشأ على الخوف والقلق والاضطراب لا يمكن أن تنتج عملاً نافعاً، وتصبح علاقتها بالله علاقة مضطربة يتلاشى فيها الحب الذي لا غنى للعبد عنه في عبوديته لله، وليست هذه دعوة لمخاطبة الناس بخطاب الإرجاء؛ لأن لدينا إشكالية في الفهم فحين تتحدث لبعضهم عن أهمية إشاعة روح الرجاء في الله تذهب أذهانهم إلى الإرجاء والتحذير منه، وهو خلط عجيب بين مفهومين مختلفين تماماً، فالإرجاء خطاب آخر يقول للناس لا يضر مع الإيمان معصية وأن الإيمان ثابت لا يزيد ولا ينقص.

---

(١) والدراسة الاستطلاعية التي أجريناها على عينة من المفحوصين يرى ٦٥٪ منهم تقريباً أن الترهيب يطغى على الترغيب وهي نسبة عالية ويمكن مراجعة الدراسة في ختام هذا الكتاب.

بينما خطاب الرجاء يقول إن المعصية تضر الإيمان وتنقصه ولكن باب التوبة مفتوح ورحمة الله عظيمة فأقبلوا على الله بها وتحدثهم عن عظيم رحمة الله لمن عاد وأقبل إليه.

وحين يشعر الواعظ أن المجتمع الذي يعظ فيه، أو المسجد الذي يخطب فيه بحاجة إلى أحد نوعي الخطاب، إما بسبب تقصير ظاهر وأمن من العقوبة وجرأة على المعصية فإنه يختار لهم من الزواجر ما يناسب حالهم والعكس بالعكس.

والخلاصة من هذا الكلام أن نصل إلى معرفة جيدة بالزوايا التي يمكن أن ينظر لها في الخطاب الوعظي الجمعي بحيث لا يغلب أحد الخطابين غلبة ظاهرة تضر بالجانب الآخر وينشأ عنها خلل نفسي ومنهجي.

المرأة في سياق الوعظ

لقد خص النبي ﷺ النساء بالوعظ والتذكير وهو أمر معلوم من السُّنَّة حتى عقد البخاري باباً سماه (باب عظة الإمام النساء وتعليمهن) وفيه موعظة النبي ﷺ للنساء[1].

ولأن المرأة تشكل نصف المجتمع فإنها تشترك في الخطاب الوعظي الموجه للرجل في غالب أمرها، ولكنها تختص بمواعظ أخرى يركز فيها الوعاظ على قضايا المرأة كالحجاب وطاعة الزوج ونحوها.

والخطاب الشرعي الموجه للمرأة بصفة عامة بحاجة إلى مراجعة شرعية جادة، قائمة على العلم والتحليل، تكشف عما علق به من شوائب اختلط فيها الشرعي بالقبلي، وبالعادات بأنواعها، سواء عادات قائمة على التشدد والاحتياط، أو على التساهل والانفتاح.

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ١/ ٣٥.

والخطاب الوعظي على وجه الخصوص تأثيره على المرأة أكثر من الرجل بصفة عامة؛ لاعتماده على العاطفة والوجدانيات وهي أمور تتفوق فيها المرأة، وفي الحديث الذي في الصحيح أن النبي ﷺ لما وعظ النساء جعلت المرأة تلقي القرط والخاتم وبلال يأخذ في طرف ثوبه[1].

إن جهاز الاستقبال النسوي سريع التأثر، والرسالة الوعظية في أصلها قائمة على التأثير في المخاطب، وهذا قد يفسر إقبال النساء على المواعظ وتبادلهن لها بكثرة عبر وسائل الاتصال الحديثة[2].

والخطاب الوعظي الموجه للمرأة يعاني من بعض السلبيات التي تحتاج إلى مراجعة من الوعاظ ومن أهم ما يمكن التذكير به هنا:

ـ الإكثار من تصوير المرأة في قالب الفتنة وصورة الشيطان الذي يتربص بالرجال الدوائر، وربما اعتمد بعض الوعاظ على بعض الأحاديث الصحيحة ولكن طريقة التوظيف من خلال الإكثار والترديد للمقولات ذاتها وتطعيمها بالقصص والغرائب أحياناً يجعل المرأة تظهر أمام الخطاب في صورة المتهم والمدان.

هذا إذا علمت ما يضاف إلى ذلك من وصفهن بالمكر

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة، حديث رقم (٩٨).

(٢) وكان مما يؤكد هذا أن الدراسة الاستطلاعية التي أجريت على عينة من الذكور والإناث كشفت عن فروق ذات دلالة إحصائية لصالح الذكور وأنهم أكثر نقدا للخطاب الوعظي، والدراسة في آخر هذا الكتاب.

والخديعة مدعوماً بالأخبار التي يرفدها الرافد القبلي وليس الشرعي، وهذا وغيره قل أو كثر يشعر المرأة بالدونية والنقص خاصة مع كثرة التكرار والترداد.

مع أن الوصف الوارد في حديث «**ما رأيت ناقصات عقل ودين**»[1] والذي يتخذه بعض الوعاظ طريقة دارجة في وعظه لا يدل على ذمهن يقول العيني: «فإن قلت: أليس ذلك ذما لهن؟ قلت: لا وإنما هو على معنى التعجب بأنهن مع اتصافهن بهذه الحالة يفعلن بالرجل الحازم كذا وكذا»[2] وابن حجر يقول: «وليس المقصود بذكر النقص في النساء لومهن على ذلك لأنه من أصل الخلقة»[3]، كما أن النقص الوارد فسرته السُّنَّة بما يحد عن تمادي الأهواء والانفعالات في تهويله والمبالغة فيه[4].

لكن ما يجري على ألسنة بعض الوعاظ في تضخيم دلالات هذا الحديث وغيره من الأحاديث قد أضر بالخطاب الشرعي والوعظي.

- تحويل مفهوم القوامة الوارد في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ٨٣/١، حديث رقم (٣٠٤)، مسلم بن الحجاج (د.ت): **صحيح مسلم**، ٦١/١، حديث رقم (٢٥٠).

(٢) العيني، بدر الدين محمود (١٤٢١هـ): **عمدة القاري**، ٢٧٥/٣.

(٣) ابن حجر، أحمد بن علي (١٣٧٩هـ): **فتح الباري**، ٤٠٦/١

(٤) في صحيح البخاري لما سأل النسوة النبيّ ﷺ عن نقصان العقل والدين قال لهن: «**أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان دينها**». البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ٨٣/١.

﴿قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤]، إلى مفهوم ضغط وتحريض، وعليه يتحول الخطاب الموجه للرجل بشأن المرأة إلى خطاب تحريضي ضدها يستحث الغيرة فيه والقوامة عن طريق القوة والحزم والعنف.

فتجد الخطيب أو الواعظ وهو يصف بعض مخالفات النساء في الأسواق أو غيرها يستحث الرجال أين غيرتكم وأين قوامتكم كيف ترضون بهذا، بل ربما وصفهم بعدم الغيرة أو بالدياثة أو بغيرها من الأوصاف غير اللائقة، وقد يتحول الموعوظ أمامه إلى أداة غير واعية تجاه أهله.

- تصوير المرأة في بعض الأحيان بصور مقززة[١] متخذين المخالفة التي قد تقع فيها ذريعة لهذا التصوير سواء كان بالكلمات أو بالصور في الإنتاج الوعظي المصور.

- حضور المرأة المجازي في سياق الوعظ أحياناً يكون له دلالات ضمنية مزعجة تظهر فيها كائناً ضعيفاً هشاً ساذجاً أمام ذئاب بشرية وهي استعارة تجري كثيراً على ألسنة الوعاظ، عبّر بعض النساء عن الامتعاض منها في الوسائل الاجتماعية؛ لأنها لا تعدو أن تكون (بهيمة) غبية يمكن أن تفترس في أي لحظة، وتظهر كذلك في صور تدل على النفعية حتى وإن كان ظاهرها

---

(١) في الدراسة الاستطلاعية التي أجريناها على عينة يرى (٣٩٪) منهم أن المرأة تظهر في الوعظ بصورة غير موضوعية بينما (٢٥٪) يرونها تظهر كذلك أحياناً، وتظهر الدراسة أن المرأة أكثر تحسساً من الرجل تجاه هذه الصورة غير الموضوعية كما سيأتي في نهاية هذا الكتاب.

المدح فهي درة مصونة وجوهرة مكنونة، وهذه الدرة أداة نافعة يحتفظ بها فقط لصالح الرجل المالك لها، وهي إلى ذلك لا تستطيع أن تدفع عن نفسها أو تحافظ على نقائها، فهي في النهاية مجرد (تحفة) تنتقل من مالك لآخر، وإن كان الوعاظ يستخدمونها بفهم آخر يعبر عن نفاستها وعلو شأنها، ولكن إنسانيتها وعقلها ودينها أنفس من الجواهر والدرر، وتتحول في بعض السياقات إلى طعام أو حلوى مكشوفة يمكن للذباب البشري أن يقع عليها!، في سياقات تعمل في أعماق اللاشعور وتكرس لصورة سلبية لا داعي لها[1].

- تجد في بعض الخطاب الوعظي الموجه للمرأة تخوفاً شديداً عليها يوحي بأنها هي سبب البلاء؛ وأنها لا يعول عليها في حماية نفسها فضلاً عن حماية المجتمع وكأنها كائن مسلوب الإرادة، ولذلك يجب محاصرتها بالتذكير والتخويف، ونظرة سريعة في بعض عناوين المواد الوعظية تكشف لنا هذا الجانب (يا فتاة الإسلام احذري/أيها المرأة: الحجاب أو النار/لا تخلعي الحياء/كفى عبثاً باللباس/ينابيع الشر/تذكري أختاه/عندما ينتحر

(١) والخطاب الوعظي عموماً يستخدم أحياناً مجازات لا يدرك أبعادها ودلالاتها الإيحائية السيئة، ففي رسالة تتداول عبر الواتس آب تصور المرأة المتحجبة بالسيارة الخاصة والمرأة غير المتحجبة بسيارة الأجرة تستخدم من الجميع، وفي تغريدة لأحد الوعاظ في تويتر يقول فيها: «في الصحيحين أن رجلاً ركب بقرة فالتفتت إليه وقالت: لم أخلق لهذا، خلقت للحراثة، ليت شبابنا يقولون لكل صارف لهم عن غايتهم لم نخلق لهذا»!!

العفاف/الشياطين وإفساد المرأة)[١]، بينما تقل عناوين أكثر إيجابية ووقوفاً إلى جانب المرأة مثل (أنصفوا المرأة)، والذي يظهر أن صورة المرأة في المخيلة الشعبية أثرت كثيراً على العقل الشرعي، فهي تحضر في الشعبيات (ساحرة/شيطانة/مكّارة/مخادعة) ويستقي هذا من هذا بدرجة أقل.

ـ لدى بعض الوعاظ والمتصدرين في الخطاب الإسلامي ما يشبه الوسواس تجاه قضايا المرأة والتشكيك فيها، ولذلك تجده ينحاز ضد قضاياها، وقد يكون بسبب ما يتعرض له من قضايا شائكة فيها من البشاعة ما فيها، فصار يقيس غيرها عليها، حتى بلغ الحال ببعضهم إلى تفضيل ظلم المرأة على الاستشارة، خوفا عليها من (ذئاب المستشارين)، ويقرر أنه ينبغي أن يخصص الوليّ وقتاً لاستعراض ملابس الزوجة والبنات!

ـ ينظر بعض الوعاظ إلى المرأة المتبرجة أو التي تلبس البرقع أو العباية على الكتف نظرة ريبة واتهام في عرضها، وأنها تمارس دور الإغراء[٢]، وقد يتلفظ بعضهم بألفاظ قاسية وجارحة في حقهن، أو حق اللاتي يعملن في أماكن مختلطة[٣].

---

(١) الحديث هنا ليس عن المضامين بل عن العناوين التي يمكن أن تكون أكثر إيجابية، واليوتيوب مليء بمثل هذه العناوين.

(٢) على اليوتيوب مقطع وعظي فيه مقابلات مع شباب ينتقصون الفتيات اللاتي يلبسن هذه الألبسة ويتهمونهن بطريقة غير لائقة!

(٣) أحدهم كتب في التويتر عن العاملات في المطاعم: «يريدونهن نادلات في الصباح عاهرات في الليل»، وبعضهم اتهم أولياء أمور العاملات في الأماكن المختلطة بالدياثة!

ومثل هذه التصرفات من النساء لا تدعو أبداً للاستطالة عليهن ووصفهن بما لا يليق لأن هذا من الظلم والتعدي!

الإشكالية أن المجازات التي تستخدم في التعامل مع المرأة مع كثرة التداول والانتقال والتكرار والعدوى الثقافية تتحول إلى قوة وسلطة لها هيمنتها، وتعمل تلقائياً على برمجة المجتمع، وهذا ديدن المجازات الجمعية وخطورتها[١].

وربما يضيّق عليها في مسائل خلافية خاصة مع اختلاف البيئات وتنوعها كالحجاب مثلاً ومسألة تغطية الوجه، ففي أحد الأفلام القصيرة جداً التي تستخدم كفواصل في القنوات الفضائية تصور المرأة المتحجبة وغير المتحجبة والتي تقتصر في الحجاب على تغطية الرأس بصورة حلوى مغطاة أو مكشوفة أو مكشوفة جزئياً يحوم عليها عدد هائل من الذباب ويقع عليها في مشهد غير لائق فكرة ومضموناً[٢].

ومن الأمور التي أدخلت في الخطاب الوعظي إضفاء السخرية عليه واستجلاب النكتة خاصة فيما يتعلق بالموضوعات الخاصة بالمرأة، وتدوّن إحدى الكاتبات هذه الظاهرة بقولها في مقال لها بعنوان النكتة في الخطاب الوعظي: «تتكرر النكتة حول

---

(١) للمزيد حول فكرة المجاز وما يصنعه من رؤية جمعية تشكل برمجة للمجتمع وتكوين الثقافة. انظر: الديري، علي (٢٠٠٧م): **مجازات بها نرى**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(٢) موجود على اليوتيوب ومشاهداته بالآلاف على هذا الرابط:
http://www.youtube.com/watch?v=gSfO4uc2sVb

موضوعين بالذات هما (المرأة قائدة للسيارة)، و(المرأة لاعبة كرة القدم)، في الموضوعين تبدو المرأة كائناً شاذاً عن طبيعته الأصلية، فهي عندما تقود السيارة سيفتقدها زوجها في البيت، ثم سيكتشف أنها جمعت حريم الحارة في الوانيت وخرجت إلى الكورنيش!، وفي مشهد آخر تترافق القيادة بصورة حتمية مع السُّكر، ويتصور الواعظ المرأة السائقة امرأة مسطولة تطبخ العشاء في بيتها وتقدمه في بيت الجيران! بما تحمله هذه الجملة من إيحاءات»[1].

ورغم ما في هذا المقال من مبالغة تناسب المقالات الصحفية إلا أن حضور النكتة في الخطاب الوعظي على المرأة وغيرها بدأ يتشكل بصورة واضحة، واليوتيوب مليء جدا بمقاطع من هذا النوع، وفي بعضها سخرية واستهزاء يحضر أحياناً مجتزءاً[2] ويقدم في قنوات الاتصال مفصولاً عن سياقه، ومثل هذه النكت الساخرة وإن نظر إليها بعض الوعاظ على أنها عامل جذب وتحبيب للناس، إلا أنها إذا نحت منحى السخرية والاستهزاء والانتقاص كان مردودها السلبي أكبر وأخطر.

إننا لا نصف الخطاب الوعظي في مجمله بالتحيز ضد

---

(١) القويفلي، إيمان (٢٠١٠م): النكتة في الخطاب الواعظي، مقال منشور في صحيفة الوطن، السعودية، بتاريخ ٢٠/ ٥/ ٢٠١٠م.

(٢) كثير من هذه المقاطع في اليوتيوب يتم اقتصاصها من محاضرات وسياقات من قبل بعض رواد هذه الشبكات وقد لا يكون سياقها استهزاء لذلك لا يمكن نسب كثير منها إلى الإنتاج الوعظي وهي في هذه الحالة من الاجتزاء!

المرأة أو الإساءة لها، بل هناك خطاب متزن يستحث كوامن الخير في نفوس النساء، ولكننا نشير إلى بعض السلبيات التي قد يكون في التمادي فيها كسراً لنفسيات النساء وحطّاً من قدرهن، وما يترتب على ذلك من نفور وتمرد وعدم استجابة، وقد ينسحب هذا النفور من الخطاب الوعظي إلى الدين نفسه، فمثل هذه الأساليب والطرق لا تعبر عن الدين في روحه ومنهاجه، بل هي اجتهادات شخصية خاطئة، يغذيها حماس مفرط وجهل شرعي، وغياب لمفهوم الحكمة وطريقة إدارة الخطاب[1].

(١) في حين إنك تجد الخطاب الذي يصف نفسه بالليبرالي يقدم نفسه على أنه المدافع عن المرأة، ويتحدث عن حقوقها ويحاول أن يقدم صورة أكثر إيجابية عنها من أجل التأثير، وإن كان لم يسلم حتى هو من فلتات تنبئ عن كمون القبلي في داخل الطليعي!

سقف المثالية

الوعظ خطاب يدعو إلى الفضائل واجتناب الرذائل التي حرمها الله تعالى، وهو يمارس هذا الخطاب على بشر يخطئون ويصيبون ولهم سقف من القدرة على الامتثال يختلف من شخص لآخر.

وتكمن الإشكالية حين لا يراعي الخطاب مقدرة الناس وطاقاتهم ونفسياتهم، ويملي عليهم من الأوامر المتكررة والنواهي المتجددة، ويروي لهم من أخبار العباد والزهاد ما يعجزون عنه ولا يطيقونه، ويطالبهم بأن يكونوا على نفس المنوال وذات المثال.

إن الخطاب الوعظي يكاد يسير في اتجاهين اثنين تقريباً:

الأول: خطاب الدفع نحو المثل العليا والذي يطالب بكمال صفات الإنسان، وقد يكون أحياناً في حدود طبيعية وأحيان يتجاوزها إلى مثاليات يصعب تطبيقها.

الثاني: خطاب اللوم والتقريع، فتجد الموعظة تتجه إلى الناس والذات باللوم بسبب تقصيرها وعصيانها وضعف إيمانها وتفريطها في جنب الله، وأن ذلك سبب البلاء والمصائب التي نعيش فيها، بل وفي المواسم العظيمة تجد نفس النمط من الخطاب يتكرر حتى في خطب العيد مثلاً، تجد من يخطب على الناس مقللاً من شأن عبادتهم وتتكرر العبارة ذاتها (ياليت شعري من المقبول فنهنّيه ومن المردود فنعزيه)، وهي عبارة وإن كانت صادقة في ذاتها، لكن دلالاتها الإيحائية وتكرارها في كل حين توحي باليأس والقنوط، وفي رمضان يصف بعض الوعاظ المقبلين على الله بعباد رمضان، وأن الله في غنى عنهم وعن عبادتهم، وغير ذلك من التقريع الذي يقل ويكثر تبعا لكل واعظ وطريقته.

جمهور المخاطبين يقعون بين خطاب يطالبهم بالارتقاء للمثال، وخطاب يقرعهم ويصفهم بالضعف والتقصير والنزول للقاع[1]، وبين الخطابين تظل النفسية رهينة كبت نفسي خطير يورثها ما يسمى بعقدة التقصير وعقدة الذنب حتى تشعر بالذنب ولو لم يقع منه كما يقول يونج: «إن المرء يمكن أن يشعر بالذنب لا على أثر فعل ممنوع، ولكن أيضاً عندما لا يستطيع الوصول إلى تحقيق ذاته، وإبراز فرديته الخاصة والعميقة»[2].

---

(١) في الدراسة الاستطلاعية في آخر الكتاب يرى ٣٨٪ من أفراد العينة أن الخطاب الوعظي يدعو إلى مثاليات يصعب تطبيقها.

(٢) حجازي، مصطفى (٢٠٠٧م): **التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكيلوجية الإنسان المقهور**، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ص٣١.

هذه النفسية التي تتأثر بهذا الخطاب التقريعي الذي يشعرها بالدونية والخوف والقلق في علاقتها مع الله نفسية تفتقد التأثير، ومع مرور الزمن وتزايد الخطاب تتحول هذه الخطب إلى اتهامات وإدانة للنفس وشعور بقلة الحيلة وعدم الجدوى أمام طوفان من المغريات والشهوات، وأمام هذا القدر الكبير من اللوم له رغم بذله واجتهاده.

وإذا أضفنا إلى ذلك القدر الكبير من المواعظ والخطب التي تتحدث عن واقع المسلمين من حروب وإبادات وقهر وتشريد، وما يصحب ذلك من لوم لنا نحن الشعوب المغلوبة على تقصيرنا، واتهامنا بالتخاذل، مع عجزنا شبه التام أمام كل هذا البلاء يشعر الناس بالعار وعدم الجدوى[1]، مع أن الخطاب الوعظي لم يكن هدفه الوصول إلى هذه النقطة النفسية الجارحة، ولكنه يقع فيها لأنه لا يدرك إلى أي مدى تساهم هذه التقريعات المتكررة في تدمير النفسية وإدخالها في عقدة الذنب وقتل روح المبادرة فيها.

إن الواعظ يجب أن يدرك الواقع جيداً ويدرك تحدياته وضغوطه الهائلة على الناس؛ لأن الواقع بضغطه يقوم بعملية تغيير سلوكية عملية، والواعظ لا يملك إلا التذكير بالكلام والكلام الذي يدعو إليه وإن كان حقاً في مجمله، لكنه يسير في طريق آخر غير الذي ينجرف إليه سيل الواقع.

---

(١) يمكن الرجوع للمرجع السابق للقراء حول عقدة النقص وعقدة العار وغيرها من المظاهر النفسية، ص٣٧.

يقول علي الوردي بلغة لا تخلو من سخط على الوعاظ «لقد جرى مفكرونا اليوم على أسلوب أسلافهم القدماء، لا فرق في ذلك بين من تثقف منهم ثقافة حديثة أو قديمة، كلهم تقريباً يحاولون أن يغيروا بالكلام طبيعة الإنسان، وكثيراً ما نراهم يطالبون الناس بمواعظهم أن يغيروا من نفوسهم أشياء لا يمكن تغييرها، فهم بذلك يطلبون المستحيل، وقد أدى هذا بالناس إلى أن يعتادوا سماع المواعظ من غير أن يعيروا لها أذنا صاغية»[١].

ولسنا هنا بصدد مناقشة الوردي في بعض مبالغاته هنا، ولكن من المهم أن نعترف أن الخطاب الوعظي يسير باتجاه جعل الناس لا يبالون بما يقال من كثرة اللوم والتقريع ومصادمة نفسياتهم البشرية.

ولسائل أن يقول هنا هل المطلوب هنا إيقاف الخطاب الوعظي ومنعه من ممارسة توجيهه وإرشاده؟

والجواب أننا لا نريد أبداً حجب الخطاب أو منعه ولكن ينبغي أن يعي الخطاب الوعظي حجم تأثيره الحقيقي على الناس في خضم الحركة الاجتماعية، وأن يعي كذلك تأثيره النفسي على الناس وهذا الوعي كفيل بأن يكون الخطاب في مستوى من المعقولية والقبول، وأن يلجأ إلى أسلوب التحفيز والتبشير كما قال النبي المصطفى ﷺ: «**بشروا ولا تنفروا**»[٢]، خاصة كلما

(١) الوردي، علي (د.ت): **وعاظ السلاطين**، ص٦.

(٢) مسلم بن الحجاج (د.ت): **صحيح مسلم**، ٥/١٤١، حديث رقم (٤٦٢٢).

كانت الوقائع تحمل من هذه البشائر ما يوحي للنفس بالرحمة والفرج كما في مواسم الخير في رمضان والحج والأعياد وتعليق الناس بمحبة الله ورحمته وجوده وإحسانه ومضاعفته للأجور وفرحه بعودة عباده إليه وغيرها من المعاني التي تشرح النفس وتشعرها بقيمتها وذاتيها وإمكانيتها في الوجود.

ما نركز عليه هنا هو محاولة إبعاد الخطاب الوعظي عن منهج (هلك الناس) الذي حذر منه النبي ﷺ حين قال: «**إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم**»[1].

قال ابن الأثير: «يروى بفتح الكاف وضمها فمن فتحَها كانت فعلاً ماضياً، ومعناه: أن الغالين الذين يُؤيسون الناس من رحمة الله يقولون: هلك الناس؛ أي: استوجبوا النار بسوء أعمالهم، فإذا قال الرجل ذلك فهو الذي أوجبه لهم لا الله تعالى، أو هو الذي لما قال لهم ذلك وآيسهم حملهم على ترك الطاعة والانهماك في المعاصي فهو الذي أوقعهم في الهلاك.

وأما الضمُّ فمعناه أنه إذا قال لهم ذلك فهو أهلكُهم؛ أي: أكثرهم هلاكاً وهو الرجل يولع بعيب الناس ويذهب بنفسه عجباً ويرى له عليهم فضلاً»[2].

---

(١) مسلم بن الحجاج (د.ت): **صحيح مسلم**، ٨/٣٦، حديث رقم (٦٨٥٠).

(٢) ابن الأثير، محمد أبو السعادات (١٣٩٩هـ): **النهاية في غريب الأثر**، ٥/٦٢٨، ويرى الإمام مالك أن هذا الذم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس واحتقارهم وتفضيل نفسه عليهم وتقبيح أحوالهم لأنه لا يعلم سر الله في خلقه، وأما من قال ذلك تحزُّناً لما يرى في نفسه وفي الناس من النقصفي أمر الدين =

وتأمل جيداً قول ابن الأثير هو الذي حملهم على ترك الطاعة والانهماك في المعاصي، وهو عين ما نحاول تحريره هنا، فكثيراً ما يكون الخطاب متجهاً في عكس هدفه، ويقول للناس عكس ما يريد، ولذلك يحقق مع الزمان نتائج عكسية!

والخلاصة من هذا المبحث أن الوعظ بحاجة إلى أن يتخفف من أمرين في خطابه المعاصر، **الأول منهما**: خفض سقف المثالية التي يدعو الناس إليها ويقارن ذلك بواقع الناس المعاش وما يطيقون وما لا يطيقون، وأن لا يقارنهم بسير العباد والسلف الزهاد مطالبا لهم بأن يكونوا كذلك وهو نفسه عاجز عن ذلك.

والثاني منهما: التخفيف من لغة اللوم والتقريع واتهام الناس بالتقصير والإهمال والتخذيل، بل ينبغي أن تفتح أبواب التحفيز للناس ويبين لهم دورهم وقدرتهم ومسؤوليتهم وأن الله شاكر لمسعاهم لا يضيع أجر العاملين، وهو الجواد الكريم المتفضل، ويتأكد ذلك في مواسم الخير والبركة والفرح.

= فلا بأس عليه، وقال النووي اتفق العلماء على ذلك: النووي، شرح مسلم، ١٦/ ١٧٥، ولفظ الحديث بالروايتين تحتمل كلا المعنيين اللذين ذكرهما ابن الأثير، والخطابي كما في: معالم السنن، ٤/ ١٣٢.

الصراعات والتشهير

لا تخلو الحياة الاجتماعية من أحزاب وصراعات تدور بينها سواء كانت هذه الأحزاب ذات مرجعية واحدة أو مرجعيات متعددة، ومن المؤسف حقاً أن تغدو المنابر أدوات تستخدم في هذه الصراعات بحق وبغير حق.

إنه من المهم أن ندرك أن مجال الوعظ كما مر سابقاً في مباحث متقدمة هو الترغيب والترهيب، الترغيب في امتثال أوامر الله والترهيب من مخالفتها أو ارتكاب ما حرمه تعالى، فتكاد تكون موضوعات الوعظ ضمن دائرتين هي دائرة الواجب في التذكير به ترغيباً فيه وترهيباً من تركه، ودائرة الحرام ترهيباً من فعله وترغيباً في تركه، ويدخل في ذلك الترغيب في فضائل الأعمال الثابتة.

وكثير من الصراعات التي تشهدها الحياة الاجتماعية والسياسية هي من قبيل خلافات الدنيا التي يلتبس فيها الحق بالباطل وتدخلها حظوظ النفوس وبعضها تلعب السياسة والسلطة

دوراً كبيراً في إدارته واستقطاباته، وما لا يدرك أبعاده الوعاظ والخطباء ويندفعون فيه بحماسة متناهية وربما تعرضوا فيه لأشخاص بأعيانهم تحذيرا منهم وطعناً فيهم، ثم يتبين لهم بعد زمن أنهم انساقوا خلف شعارات لم يكونوا على علم بها.

ومثل ذلك يقال عن الصراعات الطائفية فتتحول الخطب والمواعظ في بعض الأحيان إلى نوع من السباب والشتم والطعن في المذاهب دون عدل وحكمة، بل بلغة هي أقرب للتحريض منها إلى بيان الحق وكشف الباطل وإقامة الدليل والحجة.

وتتحول حينها المواعظ إلى احتراب مضاد عبر ردات الأفعال، ولا شك أن جميع الطوائف والأجناس والأحزاب لدى كل فريق منها من المخالفات ما لديه، لكن طريقة معالجة هذه المخالفات ينبغي أن تكون في دوائر العلم والفكر بالدرجة الأولى، ثم إذا عولجت أو بينت تكون بعدل وحكمة بعيداً عن التشنج والسب والشتم.

وهذه الظاهرة وهي ظاهرة التأجيج الطائفي عبر الخطاب الوعظي بحاجة إلى معالجة جادة من أصحاب الرأي والحكمة؛ لأنها ليست في صالح المجتمع بكافة أطيافه، ذلك لأن الخطاب الوعظي كما مر معنا خطاب عاطفي تأثيري وهو خطاب سلطوي ويستخدم بعض الوعاظ في خطبهم تجاه الطوائف لغة عدائية انفعالية قد تدفع بعض الجماهير لسلوكيات خاطئة تجاه الآخرين، ربما لم يكن يتوقعها الواعظ نفسه، وهذا كله مضر بالسلم الاجتماعي.

إن مناقشات الطوائف ومعرفة الخطأ والصواب فيها لا يكون على مجرد الانفعال وردود الأفعال، بل عبر النقاش العلمي القائم على المحاجة بالأدلة والبراهين والإقناع العقلي مصحوباً بالعدل والإنصاف والرحمة بالخلق، وهذا لا يدخل ضمن المجال الوعظي الذي يتخذ من اللغة خطاباً تجييشياً ضد الآخر.

وهنا لا ننحاز إلى طائفة ضد أخرى، أو حزب ضد الآخر فكل من الموجودين في الساحة يمارسون هذا النوع من الخطاب وإن كانوا يختلفون في القلة والكثرة وطريقة الاستعمال[1].

وفي أجواء هذه الصراعات ينحو بعض الوعاظ إلى أسلوب التشهير بأسماء الأشخاص في وعظهم وخطبهم بحجة التحذير منهم ومن بدعهم وضلالهم، وهنا نشير إلى بعض المتعلقات المهمة ومنها:

ـ أن هدي النبي ﷺ الأكمل المعروف عنه هو عدم تعيين المقصود، ففي حديث النفر الذين سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمل النبي في السر وقالوا مقالتهم المشهورة فخطب النبي ﷺ قائلاً: «**ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[2]، يقول

---

(١) يرى ٤٧٪ من عينة الدراسة الاستطلاعية أن الخطاب الوعظي لا يؤجج الصراعات الطائفية في مقابل ٢٩٪ يرون أنه يؤجج الصراع الطائفي، وهو مؤشر إيجابي يدعو إلى التفاؤل بتلاشي هذه الظاهرة وإن كانت الأحداث الراهنة التي تمر بها المنطقة تعزز الصراعات الطائفية.

(٢) مسلم بن الحجاج (د.ت): صحيح مسلم، ٤/١٢٩، حديث رقم (٣٤٦٩).

النووي: «هذا موافق للمعروف من خطبه ﷺ في مثل هذا، أنه إذا كره شيئاً فخطب له ذكر كراهيته ولا يعين فاعله، وهذا من عظيم خلقه ﷺ، فإن المقصود من ذلك الشخص وجميع الحاضرين وغيرهم ممن يبلغه ذلك، ولا يحصل توبيخ صاحبه في الملأ»[1].

وهذا هو الأصل من فعله ﷺ لأن فيه «رفقاً بهم وستراً لهم»[2]، وهذا من أعظم مرادات الشرع في الرفق بالناس.

- أن الحكمة ينبغي أن تتسيد مثل هذه المواقف التي يتعجل فيها المتعجلون على أن يكون سؤال الحكمة هل من الحكمة في هذا الموضع مخالفة الأصل النبوي بعدم التشهير بالناس بأعيانهم والاكتفاء بالتعريض؟

لأن مخالفة الأصل والهدي النبوي في مثل هذه الأمور ينتج عنه أخطاء تضر بالعمل الإسلامي، وكم من متهور جر على الدعوة بسبب تقحمه هذه المسالك جريرة كان في غنى عنها.

- يتذرع بعض طلبة العلم والمتحمسين لأسلوب التشهير بأن أهل البدع المجاهرين ببدعهم والذين لهم احتكاك بالناس ويخشى على الناس منهم ينبغي أن يحذر منهم، ويفضح أمرهم حتى لا يغتر بهم الناس، كما فعل أصحاب الحديث والجرح والتعديل مع الرواة.

وهذه الحجة التي يحتج بها هؤلاء فتحت الباب على

---

(١) النووي، يحيى بن شرف (١٣٩٢هـ): شرح صحيح مسلم، ٩/١٧٦.

(٢) ابن حجر، أحمد بن علي (١٣٧٩هـ): فتح الباري، ٩/١٠٥.

مصراعيه لبعض المتحمسين يبدعون عباد الله ويفسقونهم ويشهرون بهم ظنا منهم أنهم يمارسون ما كان يفعله أئمة الجرح والتعديل في الذب عن حديث رسول الله ﷺ!

وإذا نظرت إلى الحصيلة العلمية لهؤلاء الوعاظ التي تؤهلهم لأن يكونوا كأئمة الجرح والتعديل واستباحة أعراض الناس تشهيرا وتحذيرا لم تجد منها شيئاً!

وزاوية النظر التي في الجرح والتعديل تختلف من جهتين عن زاوية التحذير التي يمارسها بعضهم، الأولى تمكنهم من الأهلية العلمية التي ينتج عنها نظر في حال الموصوف بعلم وعدل، والثانية اختلاف الهدف في الحالتين ففي الأولى كان الهدف صيانة حديث الرسول ﷺ في باب الرواية، وما يجري على ألسنة بعض المتحمسين لا علاقة له في باب الرواية وحفظ الحديث، بل هو في بعض الأحيان مواقف حزبية أو طائفية، يتذرعون فيها بحفظ عقيدة الناس!

- في باب المواعظ والخطب ينبغي أن يتلفت إلى المجال الذي يتحرك فيه الوعظ وهو مجال يبتعد كثيرا عن هذه الدوائر الملغومة التي تكون في الغالب من الملتبسات وقد يترتب عليها بسبب سلطة الخطاب الوعظي تحريض على بريء وقد يندفع بسببها متهور إلى سلوك يندم عليه ساعة لا ينفع الندم.

- الناظر لبعض التشهير الذي وقع على بعض المعروفين والمشهورين يدرك أموراً من أهمها:

- أن هذا التشهير لم يحقق الهدف الذي أرادوه، فما زال لمن حذروا منهم جمهورهم وحضورهم وطرحهم المتجدد.
- أن التشهير في كثير من الأحيان يخدم المشهر به، ويعلي من شأنه ويعرف به من كان يجهله، ويطلع على إنتاجه وفكره من كان غافلا في شؤون حياته، وكثير من الروايات والمسلسلات والقنوات وأصحابها رُوِّج لها على المنابر في الخطب والمواعظ بدون قصد وبحسن نية.
- أن التركيز على الشخصيات بأسمائها وأعيانها نقداً وتحذيراً يتطلب من الوعاظ متابعة كل متحدث من هؤلاء للتحذير منه، ولو اكتفى هؤلاء بالتحذير من الأخطاء المعلومة بالأدلة المعقولة لكان هذا كافياً ووافياً.
- وبسبب الحماس في باب التشهير وقع بغي على بعض الناس ووصفوا بما ليس فيهم، واتهموا في دينهم وأخلاقهم بما تبين فيما بعد براءتهم منه، واعتذر من اعتذر وأصرّ من أصرّ، وكان الجميع في غنى عن هذا لو اتخذوا منهج النبوة سبيلاً.

وبالجملة إذا عرف الواعظ أن هدفه كسب قلوب الناس والتأثير فيهم بالحق وهدايتهم وإرشادهم أدرك ما قاله الزمخشري: «يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح»[1] وما قاله الغزالي من أن «التصريح يهتك حجاب الهيئة ويورث الجُرأة على الهجوم

---

(١) الزمخشري، محمود بن عمر: الكشاف، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٣/١١٦.

بالخلاف، ويهيّج الحرص على الإصرار»[1] أما التعريض فإنه «يتضمن إعلام السامع على صورة لا تقتضي مواجهته بالخطاب المنكر؛ كأنك لم تعْنِه، وهو أعلى في محاسن الأخلاق وأقرب للقبول وأدعى للتواضع»[2].

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (د.ت): إحياء علوم الدين، ١/ ٧٥.

(٢) الزركشي، محمد بن عبد الله (د.ت): البرهان في علوم القرآن، ٣/ ٣١٣.

الوعظ والسياسة

لعله من العجيب أن نتحدث عن الوعظ والسياسة في مضامين الوعظ وذلك لسببين:

الأول: كون الوعظ في تاريخه الممتد كان مهتماً بمضامين أخرى هي ألصق به، وهي تلك المتعلقة بالترغيب والترهيب والجنة والنار والدنيا والآخرة والواجبات والمحرمات وما ينظم علاقة العبد بربه ويقربه إليه.

الثاني: أن بنية الخطاب الوعظي الذي سبق أن تحدثنا عنها في مبحث مستقل لا تناسب بنية الخطاب السياسي.

ولكن الأمر الآن بات مختلفاً بعد أن دخل الوعظ والوعاظ في خطبهم ومواعظهم على خط المواجهات السياسية وأصبحت ردود الأفعال متباينة جداً بين مؤيد لذلك ومعارض يرفض تسييس المنابر.

وأعتقد أننا لن نصل في حديثنا هنا إلى رأي مقنع

للمتجاذبين فيه، خاصة وأنه موضوع جديد على الخطاب الوعظي، وليس للقدماء مساهمة فيه بسبب خروجه عن نسق الوعظ القديم.

ويمكننا أن نرصد ثلاثة اتجاهات تتعاطى مع مسألة الوعظ والسياسية في واقعنا المعاصر ولكل اتجاه مبرراته التي سنعرض لها إجمالاً.

الاتجاه الأول: هو الاتجاه الذي يرى أهمية مشاركة الوعظ والمنابر في الخطاب السياسي؛ لأن الناس بحاجة إلى سماع كلمة الشرع في مسائل الاختلاف السياسي، وما لم تكن المنابر هي التي تنطق بذلك فمن ينطق بها؟ ويرى في عزل الوعظ والمنبر عن السياسية اقتراب من الفكرة العلمانية التي تفصل الدين عن الدولة والشرع عن السياسية، كما أن الناس يثقون فيما يصدر عن المنابر ومنها يشكلون آراءهم وأفكارهم.

الاتجاه الثاني: على النقيض من الاتجاه الأول تماماً ويرى أن ينأى الوعظ وخطب المساجد عن السياسة تماماً، ويمكننا أن نسجل في داخل هذا الاتجاه نمطين من المانعين الأول منهما ينطلق من رؤية فكرية علمية ترى أن الطرح السياسي يختلف تماماً عن الأسلوب الوعظي، وأن سراديب السياسة والتواءاتها وتقلباتها وتغير مواقفها وتبدل اتجاهاتها لا يدركها الوعاظ والخطباء، وهم حين ينساقون وراءها يشوهون صورة الوعظ الذي يريد منه الناس تليين قلوبهم وتذكيرهم بالله تعالى وترغيبهم في الخير وردعهم عن الشر.

والثاني منهما ينطلق من رؤية سلطوية؛ لأن السلطة تدرك تمام الإدراك مدى الجماهيرية التي يحظى بها الخطاب الوعظي بصفة عامة وخطب الجمعة التي ارتبطت بالثورات العربية وكيف يمكن أن تلعب دوراً بارزاً في الموازنات السياسية؛ لذلك تحرص على تنحية هؤلاء عن دائرة السياسة متذرعة بأسباب النمط الأول، وقد تتخذ القوة سبيلاً لهذا المنع، لذلك ناقشت بعض من وزارات الأوقاف والمساجد في العالم العربي هذه المسألة من أجل استصدار قرارات تمنع الخطباء من الكلام في الشؤون السياسية.

الاتجاه الثالث: هو الاتجاه الترشيدي الذي يرى أن لكل طائفة وجهة نظر مقدرة وأن فتح الباب على مصراعيه أمام الوعظ للخوض في الشأن السياسي الداخلي والخارجي يخرج بالوعظ عن هدفه الأسمى وطريقه الأمثل، في حين ينتظر الناس من الوعاظ تذكيراً وتوجيها فيجدون أنفسهم أمام سياسيين بصبغة دينية، ويضاف إلى ذلك الحماس المتزايد من بعض الوعاظ للقضايا السياسة وتحيزاتهم لها دون إدراك لأبعادها في خطب ومواعظ يختلط فيها الديني بالسياسي، وهي خطب ومواعظ تلهب الوجدان وتدفع ببعض الشباب والمتحمسين إلى إلقاء أنفسهم في دوائر صراع وميادين اقتتال رغبة في الجهاد في سبيل الله، ويتبين بعد ذلك أن هناك أجندات سياسية خلف كل هذه الصراعات.

وفي المقابل فإن السكوت عن ظلم الظالمين وغض الطرف عن انتهاكات الأعداء وإجرامهم في حق الأبرياء على مرأى

ومسمع من العالم أجمع ومطالبة الوعاظ والخطباء بأن يصمتوا ويحدثوا الناس في شؤون أخرى هو نوع من الغباء الساذج، ولا شك أن نصرة المظلوم ورفع الظلم وإقامة العدل وبيان الحق هي من صميم الخطاب الشرعي والوعظي.

على أننا ندرك تماماً أن من السياسية منع الحديث في السياسية، فإسكات الخطباء ومنعهم من قبل السلطة هو نوع من إدارتها للأزمات التي تعيشها، بل يتحول في بعض الأحيان الخطاب الوعظي إلى أداة في يد السلطة يتحكم فيها ويوجهها عن بعد لتحقيق أغراضه السياسية.

نحن إذاً أمام مفترق طرق تجعلنا نتوقف قليلاً وندعو إلى ترشيد الخطاب الوعظي في المجال السياسي للأسباب التي سبق ذكرها، خاصة وأن الأخطاء الوعظية أعطت مبررات قوية لاتجاه منع الوعظ من السياسية، بسبب الحماس غير المنضبط وبسبب جهل كثير من الوعاظ بالسياسة وخطابها المتلون وعدم إدراكهم لألاعيبها، واقتصارهم في كثير من الأحيان على مبدأ المؤامرة الخارجية في تحليل الأحداث والوقائع، بينما يكون خلف كل حدث سياسي خطوط متداخلة ومسببات معقدة تحتاج إلى متخصصين في هذا المجال.

والخطاب الإسلامي برمته ينقصه وعي سياسي[1]،

---

(١) في أحداث مصر السياسية الأخيرة كتب بعضهم تغريدات مقتبسة من القرآن الكريم من مثل:

فالأحداث التي مرت وتمر بالعالم الإسلامي تكشف عن مدى الضعف، يقول محمد قطب كاشفاً هذه الحقيقة بلغة لا مواربة فيها: «وفي أكثر من مناسبة بدأ واضحاً أن كثيراً من العاملين في حقل الدعوة لا يملكون البصيرة السياسية والحركية التي يواجهون بها الأحداث، وأنهم بفقدانهم للوعي السياسي والوعي الحركي لا يخدمون الدعوة بل يسيئون إليها»(١).

ثم يشخص السبب في نظره قائلاً: «ونقطة الخلل الرئيسية عند هؤلاء وهؤلاء تكمن في أن الوعي السياسي والوعي الحركي عندهم ضعيف إلى درجة كبيرة، وذلك لأن هذا المجال من مجالات التربية ـ مجال الوعي السياسي والوعي الحركي ـ لم يكن موضع التفات ولا اهتمام في برامج معظم الحركات الإسلامية، إما لأنها لم تقدره حق قدره، وإما لأنها تفتقده، وفاقد الشيء لا يعطيه»(٢).

وهذه شهادة من رجل بصير بواقع وتجارب الحركات الإسلامية وما ينبثق عنها من خطاب يمثلها، ونعضده بكلمة أخرى لأحد المنظرين في الخطاب الإسلامي هو محمد العبدة تشير إلى

= «ستندمون ياخونة مصر، بل ظننتم أن لن ينقلب «مرسي» والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً»، وآخر كتب: «نادى حسني مبارك: أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، فوكزه «مرسي» فقضى عليه» وغيرها على هذا الغرار!!

(١) محمد قطب (١٤٢٧هـ): **مكانة التربية في العمل الإسلامي**، القاهرة، دار الشروق، ص٦١.

(٢) المرجع السابق، ص٧٥.

مشكلة التخبط الحماسي الخطابي في القضايا السياسية يقول فيها: «من المؤكد أن الخطاب المزدوج والتصريحات المتناقضة في أمور الاجتماع والسياسة التي يتورط بها بعض الدعاة، هذه التصريحات تربك الشباب وتربك الجماهير وتضعهم في حيرة، وإنه من غير المقبول أن نؤيد حدثاً ما في اندفاع عاطفي، ثم نتقلب على هذا الرأي في اندفاع عاطفي أيضا»[1].

ويبين فريد الأنصاري في كتابه البيان الدعوي والتضخم السياسي أن الدعوة انشغلت بالخطاب السياسي وأشغلت نفسها كثيراً على حساب ما هو أهم وأولى «إن بعض العاملين للإسلام المخلصين لدعوته يغترون بالوجه السياسي المحارب للمشروع الإسلامي، فيجعلون ذلك أساس المعركة ورأس الأولويات الدعوية في أوطانهم، بينما غالباً ما يخفي ذلك الوجه خطة أخطر من ذلك وأدهى، هي تقويض صرح الشعور الديني، لدى مختلف الشرائح الشعبية في البلاد الإسلامية، وذلك بضرب البنية الخلقية التحتية»[2].

وفي نص آخر يقول: «إن الاختيار الإسلامي القاصر على الشأن السياسي ممارسةً ـ وأقول: (القاصر) بمعنى حصر العمل

---

(١) العبدة، محمد (د.ت): إصلاح الوعظ وتجديد الخطاب الديني، مقال منشور على موقع أنا المسلم (١٠/٣/١٤٣٥ ـ الساعة ١٠ص) على الرابط:
http://www.almoslin.net/node/83990

(٢) الأنصاري، فريد (١٤٢١هـ): البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي، القاهرة، دار السلام، ص١٦٥.

الإسلامي في الشأن السياسي ـ يسلب الإنسان التفكير الكلي، سواء في ذلك الاختيار السياسي الصدامي، أو الاختيار السياسي المشارك. فهما عندي في هذا السياق وجهان لعملة واحدة. فكلاهما يفقد طبيعته الدعوية الكلية، وإن ادعى عكس ذلك في أدبياته الحركية؛ وذلك بسبب الطبيعة اليومية المتسارعة للحدث السياسي من جهة، وبسبب انقلاب الموازين التصورية لدى العاملين من جهة أخرى. وهذا أخطر!... ولذلك فإن الحركة تبعد يوماً بعد يوم عن المنطلقات؛ ويحصل الانزلاق إلى التصورات الوهمية والممارسات الوهمية.. ويكون الانحراف»[1].

وما يهمنا هنا من هذه الأقوال بعيداً عن مناقشتها أنها صادرة من قيادات حركية إسلامية على وعي بالخطاب الإسلامي وتصفه إما بالضعف في وعيه السياسي أو بتضخيمه للسياسي على حساب غيره من الأولويات أو بالعاطفية والاندفاع، مما يجعل ضبط مسألة الشأن السياسي في الخطاب الوعظي محل إعادة نظر.

إننا يجب أن نعي جيداً أن الأخطاء السابقة في هذا الصدد كانت كبيرة، وسبب من أسبابها عدم الجرأة والوقوف بحزم تجاه الاندفاعات الخطابية غير المحسوبة بحجة بيان الحق ونصرة الدين، وقد آن الأوان لأصحاب البصر والبصيرة أن يضعوا

---

(١) المرجع السابق، ص٧.

الأمور في سياقاتها الصحيحة، وليس عيباً ولا خطأ أن نقول إن الخطاب الوعظي ليس مجاله السياسة، وعليه أن يترك هذا الحقل لأربابه من المتخصصين في الخطاب السياسي الإسلامي.

وهذا لا يعني تجريم حديث الوعظ عن الكليات العظيمة التي تقوم عليها السياسة الشرعية من الأمور الواضحات الجلية من الأمر بالعدل وحفظ الحقوق والأرواح والممتلكات وردع الظلم وتحريمه وتجريمه، على أن لا يخوض في التحليل السياسي ومتعلقاته.

وتلخيصاً لما سبق يمكننا أن نحرره في الآتي:

- تحرير الوعظ من الانسياق المتحمس وغير المنضبط للشأن السياسي داخلياً وخارجياً مطلب مهم.
- إدراك الوعاظ لتحيزات السلطة واستخدامها للوعظ كأداة سياسية في إدارة تحيزاتها يجعلهم أكثر بصيرة ومحل ثقة من الجماهير.
- بقاء الوعظ في مجاله الذي يحث الناس على الخير وينهاهم عن الشر ويذكرهم بالله، ومن ذلك إقامة العدل والتحذير من الظلم والدعوة إلى نصر المظلوم وإعانة الملهوف وإقامة الشرع، مع البعد عن الدخول في التحليلات السياسية[١].

---

(١) لا يخفى هنا أن بعض العلماء والمفكرين يمارس أحياناً الوعظ والخطابة، ويكون على قدر كبير من العلم بالشرع والواقع، ومؤهل للجمع في خُطبه بين الطرح العقلي والوجداني على علم وبصيرة، فمثل هذا يكون خارجاً من هذه الاحترازات لعلمه ووعيه وحكمته.

- يبقى مجال الخطاب السياسي خاصاً بذوي الاختصاص في السياسية والسياسة الشرعية وعبر قنواته الخاصة به، حفظاً لدين الله من تلاعب السياسة، وبعداً عن الاندفاعات العاطفية التي تكون عاقبة أمرها خسراً.

الدنيا والآخرة

هذه الثنائية من الثنائيات التي نطق بها القرآن الكريم، وهي موجودة في الأديان السماوية التي تؤمن بمصير الإنسان النهائي ويرتبط بها وجود الإنسان، فالدنيا تمثل وجوده الآني اللحظي والآخرة تمثل وجوده الغيبي المسقبلي المنتظر، وبين الوجودين نقاط التقاء ونقاط افتراق ولكل منهجٍ طريقتُه في التعامل مع شقي الوجود.

هناك من يعتبر الوجود المشاهد اللحظي هو غاية الوجود وليس بعد ذلك مرمى ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وهناك من يرى الوجود الغيبي المنتظر هو الغاية فيتجرد من الوجود الحاضر بكل ما يستطيع في رهبانية وانقطاع تام؛ لأنه يعتبر الوجود الحاضر عائق الوصول للغيب المنتظر.

ولا شك أن الإسلام دعا إلى إحداث توازن بين طرفي هذه العلاقة التي تبدو شائكة ومربكة في مستويات مختلفة أمام دنيا

تتبهرج بزينتها الصارفة، وأمام آخرة يحتاج السائر إليها أن يتخفف من تبعات الدنيا.

«إن الإنسان قد وُجِد على الأرض ليعمرها ولتكون سبيله إلى الآخرة، وأن هذا ما كان له أن يتحقق إلا في إطار فاعلية إنسانية تقيم ضرباً دقيقاً من التوازن بين قطبي الدنيا والآخرة، في إطار مجموعة من القواعد الدينية والأخلاقية والاجتماعية والمادية التي من بابها دعا الشرع المكلفين إلى تحقيق هذا التوازن»[1].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧]، يقول سيد قطب: «وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلٰهي القويم. المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة، ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة، بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفاً، كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها.

لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس؛ وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها، فتنمو الحياة وتتجدد، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض، ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة، فلا ينحرفون عن طريقها، ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها»[2].

---

(١) جدعان، فهمي (١٩٨٨م): **أسس التقدم عند مفكري الإسلام**، القاهرة، دار الشروق، ص٧٢.

(٢) سيد قطب (د.ت): **في ظلال القرآن**، القاهرة، دار الشروق، ٥/٢٧١١.

هذه النظرة إلى التوازن الذي دعا إليه الإسلام عند قراءتها قراءة علمية واعية تقطع الطريق على فئتين، فئة ترى أن من معوقات التقدم في العالم الإسلامي أنه دين أخروي غيبي لا يحفل بالدنيا ولا يلقي لها بالاً أو هو رهبانية وتنسك وزهد وانتظار للمصير الآخر، وفئة أخرى طغت عندها النظرة الزهدية والتجرد من الدنيا والتنكب لها وإهمال إعمارها داعية إلى اتخاذ هذا المنهج تواكلاً منهم وإقبالاً على الآخرة بزعمهم[1].

ويرى فهمي جدعان وهو يعالج هذه الصورة عند الماوردي رحمه الله أن خطاب التوازن في الإسلام خطاب يقرره الوحي «أما ما حدث في التاريخ وفي الزمان فقد كان مختلفاً تماماً عن هذا بكلمة واحدة: لقد اختل التوازن واعتلت الآمال والمؤسسات والفعاليات على اختلاف طبائعها ومناحيها، وليس الماوردي هو أول من بدأ عنده ذلك الاختلال في تأملاته الشخصية التي خضع فيها بصورة أو بأخرى إلى آمر الزمان التاريخي والاجتماعي بحيث دعا إلى القطيعة مع الدنيا وترويض النفس على التنكر لها، فقد بدأ هذا الاختلال من قبل عند مختلف الفئات الاجتماعية والثقافية والسياسية، وما ظاهرة الزهد

(١) بالغت بعض الطرق الصوفية في هذا الاتجاه حتى قال الرفاعي: «أحب لجميع أصحابي الجوع والفقر والذل والمسكنة وأفرح لهم إذا نزل بهم ذلك». انظر: الشعراني، عبد الوهاب (١٩٨٤): الأنوار القدسية، بغداد، دار إحياء التراث العربي، ١/ ١٣٢.

التي تطرف عندها فريق من الناس فجعلوها تصوفاً قوامه كره العالم ولفظه إلا صدى أوليّ لهذا الاختلال»[1].

ولسنا هنا بصدد تقييم نظرة جدعان للماوردي ومدى انطباقها عليه، لكن ما يعنينا أن هناك اختلالاً فعلاً موجود في فهم حقيقة العلاقة بين الدارين وكيفية التعامل معها؛ لأننا سنجد في نصوص الوحي نصوصاً تذم الدنيا وتحذر من الانغماس فيها وتدعو للعمل الصالح والدار الآخرة، ولكن هذه النصوص ليست بمعزل عن نصوص أخرى تدعو إلى إعمار الدنيا وزراعتها وإقامة العدل فيها وتنظيم علاقاتها الاجتماعية والسياسية والأسرية والاقتصادية والأخلاقية ولا تكاد تجد مجالاً من مجالاتها إلا وللشرع فيه نظام وعناية.

إننا أمام نصوص تدعو للزهد والورع والتخفف من الدنيا، ونصوص أخرى تبيح خيرات الدنيا للمسلم وتنظم حياته فيها وتدعوه لإعمارها، بل تبلغ بها الإيجابية أَوْجَهاً في توجيه النبي ﷺ حين قال: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليفعل**»[2]، وفي الأدب المفرد عن حنش بن الحارث عن أبيه قال: «كان الرجل منا تنتج فرسه فينحرها، فيقول أنا أعيش حتى أركب هذا؟ فجاءنا كتاب عمر أن أصلحوا ما

---

(١) جدعان، فهمي (١٩٨٨م): أسس التقدم عند مفكري الإسلام، ص٧٢.

(٢) أحمد بن حنبل (د.ت): مسند الإمام أحمد، ٣/ ١٩١، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وكذا قال الألباني كما في: السلسلة الصحيحة، ١/ ١١.

رزقكم الله فإن في الأمر تنفساً»[1]، لذلك يمكن أن نجمع بين هذه النصوص والسياقات في مستويين تحت كل مستوى مسارين اثنين كالتالي:

١ ـ مستوى انقطاعي وهو على نوعين:

ـ الانقطاع للدنيا على حساب الآخرة.

ـ الانقطاع للآخرة على حساب الدنيا.

٢ ـ مستوى تغليبي وهو كذلك على نوعين:

ـ إقبال استهلاكي على الدنيا مع عدم نسيان الآخرة.

ـ إقبال إنتاجي على الدنيا وتغليب للآخرة.

والجدول التالي يوضح صورة هذه العلاقة:

م	المستوى			
	انقطاعي	**نوعه**	**تغليبي**	**نوعه**
١	الانقطاع عن الدنيا وأسبابها والتفرغ للآخرة.	رهبانية	الإقبال الاستهلاكي على الدنيا مع عدم نسيان الآخرة.	استهلاكية
٢	الانقطاع عن الآخرة والإقبال على الدنيا.	دنيوية	الإقبال الإنتاجي في الدنيا وإرادة الدار الآخرة.	إنتاجية

من خلال هذه العلاقات الأربع أعلاه يمكن أن نفهم

---

(١) البخاري: **الأدب المفرد**، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ص١٦٨، حديث رقم (٤٧٨)، وقال محققه الألباني: صحيح.

الآيات والأحاديث التي وردت عن النبي ﷺ في شأن الدنيا وهوانها:

ففي المستوى الرهباني والتحذير منه تندرج الأحاديث الواردة في إعطاء الدنيا حقها كحديث «**إن لجسدك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا**»[1] وحديث الثلاثة النفر الذين قال أحدهم أصوم ولا أفطر وقال الآخر أقوم ولا أنام وقال الثالث لا أتزوج النساء، فقال النبي ﷺ: «**والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[2]، ويعلق على الحديث ابن حجر بقوله: «المراد بالسُّنَّة الطريقة، لا التي تقابل الفرض، والرغبة عن الشيء الإعراض عنه إلى غيره، والمراد من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني، ولمّح بذلك إلى طريق الرهبانية، فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى، وقد عابهم بأنهم ما وفوا بما التمزموه، وطريقة النبي ﷺ الحنيفية السمحة، فيفطر ليتقوى على الصوم، وينام ليتقوى على القيام، ويتزوج لكسر الشهوة وإعفاف النفس وتكثير النسل»[3].

وأما المستوى الدنيوي فيندرج تحته الأحاديث الواردة في

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ٨/ ٨٣، حديث رقم (٦١٣٤)، ومسلم بن الحجاج (د.ت): **صحيح مسلم**، ٣/ ١٦٥، حديث رقم (٢٧٩٥).

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ٧/ ٢، حديث رقم (٥٠٦٣).

(٣) ابن حجر، أحمد بن علي (١٣٧٩هـ): **فتح الباري**، ٩/ ١٠٥

عبودية الدنيا كقوله ﷺ: **«تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة»**[1] وقوله ﷺ: **«يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»**[2].

وإذا انتقلنا إلى المستوى التغليبي فإننا نجد أن النوع الذي يتم فيه تغليب الدنيا على الآخرة والعيش في استهلاكها وملذاتها يندرج تحته الأحاديث التي تذم فيها الدنيا في مقابل الآخرة كالحديث الذي في مسلم أنه ﷺ مر بجدي أسكّ ميت، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: **«أيّكم يحب أن هذا له بدرهم؟»**، فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به، قال: **«أتحبون أنه لكم»**، قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً فيه؛ لأنه أسك فكيف وهو ميت، فقال: **«فوالله لَلدنيا أهون على الله من هذا عليكم»**[3]، وكقوله ﷺ: **«فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها** فتهلككم كما أهلكتهم»[4]، فالتنافس الاستهلاكي على الدنيا والانكباب عليها هو الذي يخشاه الرسول ﷺ على أمته.

وفي المستوى التغليبي يأتي تغليب الآخرة والإقبال على

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ٤/٤١، حديث رقم (٢٨٨٦).

(٢) مسلم بن الحجاج (د.ت): **صحيح مسلم**، ١/٧٦، حديث رقم (٣٢٨).

(٣) المرجع السابق، ٨/٢١٠، حديث رقم (٧٦٠٧).

(٤) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ٤/١١٨، حديث رقم (٣١٥٨)، ومسلم بن الحجاج (د.ت): **صحيح مسلم**، ٨/٢١٢، حديث رقم (٧٦١٤).

الدنيا في صورة إنتاجية عملية تفاعلية وهي الصورة المتوازنة التي جاء الشرع بالدعوة إليها ويأتي عليها حديث الفسيلة الذي مر سابقاً وما كان عليه ﷺ وأصحابه.

فهذه الأحاديث وغيرها تشير إلى حقائق منها[١]:

- أنها تبين لنا قيمة الدنيا عند الله وحقيقتها في عظيم ملكه وجلال قدره.
- أنها تقارن بين الدنيا وما فيها من زخرف وبهرج وبين الآخرة وما فيها من النعيم الدائم الذي لا ينقطع.
- وكون الدنيا بهذا الحجم وهذه الحقيقة وهذا القدر عند الله وأمام الآخرة لا يعني أن على المسلم أن ينقطع عنها ولا يتفاعل معها.
- أن التحذير عنها جاء في حق من جعلها في منزلة الآخرة وانقطع لها ونسي شأن أخراه التي هي أعظم وأجل.
- أن القدر المذموم في شأنها هو الانغماس الاستهلاكي فيها فيتحول الفرد إلى طاقة تستهلك ولا تنتج وتأخذ ولا تعطي في صورة سلبية تشبه الواقع الذي يعيشه المسلمون اليوم.

والاستهلاك نمط من أنماط الحياة ونحن نعالجه هنا بمفهوم

---

(١) علاقة الدنيا بالآخرة في الخطاب الإسلامي تحتاج إلى بحث خاصمن جهة التأصيل، ومن جهة ممارسات الخطاب الإسلامي، وما ذكرناه هنا من المستويات وما يندرج تحتها، هي محاولة مبدأية لدراسة أعمق وأشمل قد يقيّض الله لها من الباحثين من يقوم بها.

أشمل من المفهوم الاقتصادي، ومع كونه نمطاً من أنماط الحياة فإن ذلك لا يعني الاستغراق فيه على حساب قيم أخرى، وهو الذي دعا الإسلام إلى ضبطه، والاستهلاك غير المنضبط تسعى الشركات العالمية الأجنبية فرضه على العالم لأنه سبب زيادة دخولها.

«إن أهم القضايا التي تواجه الشعوب والمجتمعات في الظروف الراهنة قضية تدويل العادات والتقاليد وقد بدأت بأشكال بسيطة من خلال تدويل عادات الاستهلاك، فالشركات متعددة الجنسيات بدأت بنشر فروعها في كافة المدن والأقاليم، ومن خلال هذا الانتشار بدأت المجتمعات تستهلك الأطعمة وتلبس الأزياء التي تقدمها هذه الشركات وبذلك بدأ الاستهلاك المحلي... يتأثر لدرجة أنك تشاهد ٢٠٪ من المدن الكبرى في العالم قد تشابهت في أنماط استهلاكها»(١).

ولقائل أن يقول ولكن العلاقة بين الاستهلاك والإنتاج هي علاقة طردية بمعنى أن الزيادة في الاستهلاك زيادة في الإنتاج، فإذا كنا ندعو إلى كبح جماح الاستهلاك فإننا نقتل بذلك الإنتاج، وهذا الكلام صحيح من وجهة نظر اقتصادية، ولكننا نستخدم الإنتاج هنا بمفهوم شمولي وهو تحول المجتمع إلى مجتمع منتج إيجابي يعمل لإعمار الأرض ليس من أجل أن يحصل على دخول

---

(١) كنعان، علي: الاستهلاك والتنمية، بحث منشور على موقع جمعية العلوم الاقتصادية السورية (١٢/٣/١٤٣٥هـ - ١١:٠٠م) على الرابط:
http://www.mafhoum.com/syr/articles_07/kanaan.pdf

استهلاكية على حساب القيم الأخلاقية، بل من أجل أن إعمار الأرض هو طريق لإعمار الآخرة، ولذلك فإن الإسلام جاء ليعزز هذه الجوانب الإيجابية الإنتاجية ويهذب الجانب الاستهلاكي الفطري.

«لقد نظّم الدين الإسلامي الإنفاق الاستهلاكي بشكل واضح فمنع الإسراف، ودعا للتوسط في الإنفاق قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦]، إن التوسط في الاستهلاك على النفس وعلى منافع المجتمع مع تحريم الإسراف والتبذير والربا والاكتناز وتقديم الزكاة يؤدي إلى توفير المدخرات اللازمة للعملية الاستثمارية في المجتمع، الأمر الذي يؤدي على تطوير وتحسين ظروف العمل وظروف المجتمع بشكل عام»[١].

ومن العجيب حقاً أنه برغم المواعظ والتحذير من شأن الدنيا والانكباب عليها والتذكير بالآخرة ويوم القيامة[٢]، نجد أن الحاصل هو زيادة الاستهلاك فيها مع إهمال وتقصير وخمول في جانب الإنتاج والعمل والإيجابية والتفاعل الحي المثمر على كافة أصعدة الحياة، «وهذه النفسية الاستهلاكية على الطريقة الغريبة لا تزداد إلا شرها وتحكما في الناس، بمن فيهم الإسلاميون أنفسهم في كثير من الأحيان وفي أشد مواقعهم الغالية والمتشددة»[٣].

(١) المرجع السابق.
(٢) في محرك بحث موقع اليوتيوب مثلاً يوجد قرابة ١٦٥ ألف مقطع عن (يوم القيامة).
(٣) الأنصاري، فريد (١٤٢١هـ): البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي، ص١٤٢.

ومن هنا يمكن أن نقول إن الجانب الوعظي قدم خطاباً عريضاً في ذم الدنيا والتقليل من شأنها وهوانها ودعوة إلى الإقبال على الآخرة، ولكن الثمرة الناتجة عن هذا الخطاب ليست مقاربة لحجمه وجهده المبذول، بل معدلات الاستهلاك تتزايد في دول العالم، والعالم النامي خاصة، وهذا الخطاب التحذيري المقلل من شأن الدنيا قد فهمه بعضهم بصورة أخرى فتقاعسوا عن عمارة الدنيا والإنتاج فيها وإعداد القوة في مناحيها المختلفة بحجة (أن الدنيا ليست لنا).

إننا بحاجة إلى أن نعيد النظر في طريقة التعامل مع خطاب الدنيا والآخرة تجعلنا ندعو إلى ما يمكن أن نسميه (الوعظ المدني) القائم على الحث على عمارة الدنيا والإنتاجية فيها (واصطناع المال) كما بوب البخاري لحديث الفسيلة السابق في الأدب المفرد، وهذه الإنتاجية القائمة على نفع الناس مرتبطة بالتصور الأخروي وإرادة الخير والدارة الآخرة.

إن الروح الانهزامية والتواكل والكسل الذي ينخر في جسد الأمة مرده في بعض جوانبه إلى القصور الكبير في فهم علاقة الدنيا والآخرة، وقد نتفهم أن يكون الإنسان متزهداً لنفسه منقطعاً لآخرته وإن بالغ في ذلك، لكن الإشكالية أن يصبح هذا خطاباً متسيداً، حتى صار تنظيم شؤون الدنيا في الاجتماع والاقتصاد والسياسية والتعليم محل تندر أو محل تواكل واقتباس من الآخر بحجة أن المسلم لا يتعلق بالدنيا.

ومع هذه الحجة الواهية تجد قصوراً كبيراً في جانب الآخرة أيضاً، فلا الفشل الذريع الذي منينا به في الدنيا بتحذيرنا منها أصلحها لنا، ولم يصلح كذلك شأن السلوك القائم على إرادة وجه الله والدار الآخرة، فالخلل موجود في طرفي المعادلة، مما يدل على أن الإخلال بأحد طرفيها مفسدة بدون شك.

إننا يمكن أن ننظر إلى هذه المعادلة في صورتها الصحيحة التي يحتاج أن يدركها الخطاب الوعظي والخطاب الشرعي في ضوء الدعاء النبوي الذي يقول فيه النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**»[1].

كيف يمكن أن نصنع الخير الممتد من الدنيا إلى الآخرة من المعاش إلى المعاد؟ كيف نستثمر الحسنة التي نقول في دعائنا القرآني: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، دون أن نركن إلى حسنة الدنيا وننسى الأخرى، ودون أن نهمل الأولى فتضيع الأخرى!

إن العلاقة بين الدارين علاقة امتداد، فعمارة الدنيا بالصالحات الذاتية أو بما يصلح شأن الناس في الدنيا من العبادات المتعدية كالإحسان إلى الخلق ونحوه هو ذخر للمسلم في آخرته، ويدل على هذا الحديث المشهور «**إذا مات الإنسان**

---

(١) مسلم بن الحجاج (د.ت): صحيح مسلم، ٨/٨١، حديث رقم (٧٠٧٨).

انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له»[1]، فهذي الثلاث الممتدة إلى الدار الأخرى هي عمارة للأرض بالعلم والنسل والبر.

ولا يمكن أن يكون الخطاب الإسلامي والوعظي خطاب تزهد وتقشف وترك للدنيا وإهمال لها إذا علمنا أن من مقاصد الشريعة حفظ نظام الدنيا والعناية بها على أكمل وجه، يقول الطاهر بن عاشور: «إذا نحن استقرينا موارد الشريعة الإسلامية الدالة على مقاصدها من التشريع استبان من كليات دلائلها ومن جزئياتها المستقراة: أن المقصد العام من التشريع فيها هو حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه وهو نوع الإنسان، ويشمل صلاحه صلاح عقله وصلاح عمله، وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه، ... **ولقد علمنا أن الشارع ما أراد من الإصلاح المنوه به مجرد صلاح العقيدة وصلاح العمل كما قد يتوهم، بل أراد منه صلاح أحوال الناس وشؤونهم في الحياة الاجتماعية»**[2].

ومن الملاحظ على الخطاب الوعظي وهو يقدم خطاب الآخرة ـ وهو بلا شك خطاب مهم لخلق حالة التوازن المطلوب ـ يركز أكثر ما يركز على جانب الترهيب فيها وهو جانب العذاب

---

(١) الترمذي، محمد بن عيسى (د.ت): **الجامع الصحيح**، ٣/ ٦٦٠، حديث رقم (١٣٧٦)، وقال عنه: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني أيضاً.

(٢) بن عاشور، محمد الطاهر (١٤٢٨هـ): **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تونس، دار سحنون، ص٦٠ ـ ٦١.

والنار والأهوال وما ينتظر الإنسانية من الويل والثبور، ويغفل في أحيان الوجه الآخر للآخرة وهو وجه الوعد الأخروي المليء بالرحمة والمغفرة والجنة وتجاوز الله عن عباده برحمته وشفاعة الأنبياء والصالحين ومن يأذن الله له إلى غير ذلك من الحقائق التي تخلق في نفس المستمع الطمأنينة وحب الله والإقبال عليه.

إن سؤال النهضة والتقدم من الأسئلة التي تناقش هذه القضية[1] في إطار فلسفي يحتاج منا جهداً ووقتاً ليس هذه محله، ولكن نشير هنا إلى ما نرى أنه يهم المضمون الوعظي في عدم إهماله لشأن الآخرة والتذكير بها؛ لأنها من أهم مدارات خطابه، كما أن عليه مسؤولية بيان أن الزهد في الدنيا وحقيقة هوانها وضعف شأنها في مقابل الآخرة لا يعني ترك العمل فيها والاهتمام بشؤونها وعمارتها واستصلاحها في كل مناحيها.

---

(١) في كتاب أسس التقدم عند مفكري الإسلام لفهمي جدعان بعض من هذه المناقشات يمكن مراجعتها فيه.

الوعظ في مسائل الخلاف

(لا إنكار في مسائل الخلاف) (لا إنكار في مسائل الخلاف المعتبر) (لا إنكار في مسائل الاجتهاد)، إننا نجد هذه التعبيرات الثلاثة السابقة في كتب الأصوليين وكتب الذين عالجوا مسألة الخلاف ووجه الإنكار فيه.

وإذا تجاوزنا شأن هذه التسمية وقلنا بأن المقصود بالخلاف في هذه القاعدة هو الخلاف المعتبر والذي يسميه بعضهم بمسائل الاجتهاد أو المجتهد فيه أو غيرها[1]، فإنهم يقررون أن المسائل التي يقع فيها خلاف معتبر لا ينكر فيها بمستويات الإنكار الثلاثة اليد واللسان والقلب، ولكن سؤالاً ينشأ ما هو الخلاف المعتبر أو بمعنى أدق ما معيار اعتبار الخلاف أو عدم اعتباره؟ متى نقول إن هذه المسألة الخلاف فيها خلاف معتبر ولا إنكار فيها؟ ومتى نقول إن الخلاف فيها غير معتبر والإنكار فيها سائغ؟

(١) انظر التفصيل لهذه المصطلحات ومعانيها والقائلين بها: سانو، قطب مصطفى (١٤٢٧هـ): **لا إنكار في مسائل الاجتهاد**، بيروت، دار ابن حزم، ص١٥ وما بعدها.

وهنا تجد المعايير والاعتبارات تختلف بين أهل العلم ومجمل كلامهم يكاد يرجع إلى أن الاختلاف المعتبر هو الذي لا يخالف نصاً قطعياً ثابتاً ولا يخالف إجماعاً قطعياً، فإذا خالف النص القطعي أو الإجماع الثابت فهو خلاف غير معتبر وحينئذ يشرع الإنكار فيه(١).

ونود أن نشير إلى ضرورة التفريق بين مصطلح الإنكار الوارد في أحاديث النهي عن المنكر، وبين مفهوم البيان والبحث في المسألة وتوضيح أدلتها، فهما مقامان يحصل بينهما لبس، ذلك لأن مقام الإنكار مقام أخص جهتين:

الأولى: أن المسألة المنظور فيها تعتبر منكراً وهو وإن أنكرها بلسانه أو بقلبه لو تهيأ له إنكارها بيده لفعل.

الثانية: أن الإنكار في لفظه ومعناه شدة إذ هو إسقاط للمسألة المنظور فيها وطلب إزالة لها وتغيير.

أما البيان والبحث والتوضيح الذي أشار إليه بعض العلماء بأن المسائل الاجتهادية حقها البيان والعلم فهو أمر آخر قائم على

---

(١) انظر لتفصيلات الأقوال هذه في المراجع التالية:
- القرضاوي، يوسف (٢٠٠١م): **كيف نتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف**.
- سانو، قطب مصطفى (١٤٢٧هـ): **لا إنكار في مسائل الاجتهاد**، بيروت، دار ابن حزم.
- المجيدي، عبد السلام مقبل (١٤٢٤هـ): **لا إنكار في مسائل الخلاف، سلسلة كتاب الأمة**، العدد (٩٤)، الدوحة، وزارة الشؤون الإسلامية.
- الشريف، حاتم العوني (٢٠٠٨م): **اختلاف المفتين**، الرياض، دار الصميعي.

الاستدلال وإقامة الحجج والإقناع، وهذا الفرق نلمس شيئاً منه عند القرافي حين يقول: «وإن لم يكن معتقداً تحريماً، ولا تحليلاً، والمدارك في التحريم والتحليل متقاربة، أُرشد للترك برفق من غير إنكار وتوبيخ»[1]، وهو ما نلمسه بعبارة أخرى عند ابن تيمية وتلميذه ابن القيم حين يقول ابن تيمية: «فإذا كان القول يخالف سُنَّة، أو إجماعاً قديماً وجب إنكاره وفاقاً، وإن لم يكن كذلك فإنه ينكر بمعنى بيان ضعفه عند من يقول المصيب واحد وهم عامة السلف والفقهاء»[2]، وتلاحظ هنا أن الإنكار يقصد به بيان الضعف ومخالفته للدليل إن رآه ضعيفاً وهذا غير مفهوم الإنكار الذي يكون على مراتب ثلاثة لا ينزل إلى مرتبة إلا بتعذر الأولى، وهو في هذا الحد نوع من حرية إبداء الرأي دون التعدي على الآخرين لفظاً وسلوكاً.

قدمنا بهذا الكلام لأن هذه المسألة رغم كثرة ما كتب فيها ظلت محل التباس في أفراد المسائل، ورغم الجهد المبذول فيها تظل محل لبس والتباس في تعامل ثلاث طوائف معها:

- طلبة العلم وأصحاب الخطاب الشرعي.
- المحتسبون.
- الوعاظ.

---

(١) القرافي، أحمد بن إدريس (١٤١٨هـ): **الفروق**، بيروت، دار الكتب العلمية، ٤/٤٣٨.

(٢) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (١٤٠٨هـ): **الفتاوى الكبرى**، بيروت، دار الكتب العلمية، ٦/٩٦، ونفسه تجده لابن القيم الجوزية في: **إعلام الموقعين**، ٣/٢٨٨.

ورغم قوة هذا الالتباس وعدم الحسم في مجال التطبيق إلا أننا نجد منهم حماسا في حسم المسألة لصالح الإنكار والتغيير، وقد نتلمس عذراً لمن يخوض في جدل المسألة من طلبة العلم لأنه مجال بحثهم ونظرهم وتحت دائرة خطابهم.

أما في شأن الوعظ فإن الأمر يختلف جدا؛ لأن إقحام الوعظ في مسائل الخلاف ووعظ الناس بقول من الأقوال وحثهم عليه وإلزامهم به ترغيبا أو ترهيبا محل نظر لعدة أسباب:

الأول: أن مجال الخطاب الوعظي وفضاءه الذي يدور فيه هو المحكمات التي يحث الناس على فعلها من العبادات والفضائل والأخلاق المنجية، أو يحذر الناس من ارتكابها كالشركيات والكفريات والمعاصي والآثام التي لا مجال للخلاف فيها.

الثاني: أن الوعظ هو حث بأمر أو نهي فكيف تحث وتأمر وتنهى ترغيباً وترهيباً في أمر يرى مخاطبك أنه ليس بواجب أو محرم، وتتوعده عليه بأسلوب الترهيب في أمر قد يراه مباحاً.

الثالث: أن مسائل الاجتهاد قائمة على البيان والشرح والتفصيل والاستدلال مما يندرج في مجال الخطاب الفقهي، واستخدام الخطاب الوعظي القائم على الحث والبلاغة والترغيب والترهيب يخالف مقصد بيانها؛ لأن بيانها لا يكون بالتهويل وخلابة الألفاظ، بل بأدلة الكتاب والسُّنَّة.

الرابع: أن الخوض في مسائل الخلاف في مجال الوعظ

جعل بعض الواعظين يركزون على مسائل ظاهرية يرون أنها من المعاصي وأنها دليل التدين، مع أنها من المسائل التي ورد فيها الخلاف بين الفقهاء، مما قد نقول إنها خلاف غير معتبر لكن غيرنا يرى أنها خلاف معتبر، وبسببها صار تقييم الناس بناء على هذه المظاهر الخارجية للحكم على تدينه من عدمه.

مع أن الاهتمام بمعالجة مسائل الإيمان وحب الله وتعظيمه والاستجابة لأمره ونهيه والتركيز على (البنية الداخلية) للمسلم هو الذي يثمر صلاح الظاهر بعد ذلك، فالاهتمام بعالم الأفكار بناء وإصلاحا ينتج عنه صلاح في السلوك.

لكن الانشغال الحاصل الآن بتتبع سلوكيات الناس ومحاسبتها ومحاكمتها، وفرض أنماط معينة دون قناعة داخلية وشعور إيماني بما نقول ونعظ به؛ ضياع للجهد وتنفير للمخاطبين، فضلاً عن أن بعض هذه المظاهر والسلوكيات التي يتوعد فيها بعض الوعاظ بالعذاب والثبور هي مما وقع فيه الخلاف، وبعض الناس متبع فيها لرأي يراه راجحاً أو مقلدٌ لعالم أفتى بها.

نعم إن كان الواعظ يعظ في مجتمع متبع لقول في مسألة خلافية يرون فيها الحرمة ويقع منهم فيها مخالفة فهو يعظهم في ما يرونه محرماً فذلك خارج عن دائرة ما نحن بصدده، ولكن من المعلوم أن الانفتاح الذي حصل بسبب وسائل الإعلام واطلاع الناس على أقوال الفقهاء واقتناع بعضهم ببعضها وعملهم بموجبها

خاصة في بعض المجتمعات التي يعرف عنها هذا التعدد يفرض على المتحدث الواعظ تقدير هذا الأمر بقدره.

ولقد كان لاعتبار الخلاف في السلوك والإعذار فيه دائرة مقدرة عند المتقدمين، فهذا سفيان الثوري يقول: «إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختُلف فيه، وأنت ترى غيره فلا تنْهه»[1]، ولذلك جاء عن يحيى بن سعيد أنه قال: «ما برح أولوا الفتوى يفتون، فيحل هذا ويحرم هذا، فلا يرى المحرِّم أن المُحِلَّ هلَك لتحليله، ولا يرى المُحِلُّ أن المحرِّم هلك لتحريمه»[2].

والذي يسير عليه الوعظ هو من باب الترغيب والترهيب والحث بالأمر أو النهي والترهيب إنما يكون بالهلاك في الآخرة، وقد مر سابقاً معنا أن الخطاب الوعظي خطاب سلطوي يفرض نفسه بأدوات كثيرة على المخاطبين، وعليه فإن دخوله بهذه السلطوية في مجال مسائل الاجتهاد هو نوع إلزام للناس ببعض ما لم يلزمهم الله به.

وفي هذا الاتجاه نشير إلى الخطأ الحاصل في الجدل الفقهي حين يتحول بعض المحاورين في مسألة فقهية لإثبات حكم أو ترجيحه إلى أسلوب الوعظ والتهويل والتخويف وغيرها من أدوات الوعظ التي ليس محلها الجدل الفقهي؛ لأن إثبات الأحكام وترجيحها لا يكون إلا بالأدلة وليس بالمواعظ والخطب الرنانة والتأثير على عواطف الناس.

(١) أبو نعيم، أحمد بن عبد الله (١٤٠٥هـ): **حلية الأولياء**، ٦/٣٦٨.

(٢) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله (١٤٢٤هـ): **جامع بيان العلم وفضله**، ٢/١٦١.

وأمر آخر نختم به هو أن كثيراً من الوعاظ ليسوا من أهل الاختصاص والتأهيل الفقهي الذين يستطيعون به تحرير الخلاف بل هم مقلدون لغيرهم، فكيف يفرض المقلد رأيه على غيره سواء كان مقلدا مثله أو مجتهدا، وكما قال ابن تيمية: «من كان مقلِّداً لزم حكم التقليد؛ فلم يرجّح ولم يزيّف ولم يصوّب ولم يخطّئ»[1].

---

(١) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (١٤٢٥هـ): **مجموع الفتاوى**، مرجع سابق، ٣٥/ ٢٣٣، ومع ذلك فإن قرابة ٥٠٪ من عينة الدراسة الاستطلاعية أجابوا بأن الخطاب الوعظي يفرض آراءه في المسائل الخلافية! وهي نسبة عالية قد تنفر من الخطاب الوعظي مستقبلاً!

مثلث التطوير

- المكون المعرفي:

١ - التأصيل العلمي.

٢ - معرفة الجماهير.

٣ - الزمان والمكان.

- المكون المهاري:

١ - مهارات الإلقاء والأداء.

٢ - مهارات التواصل الإيجابي مع الجمهور.

٣ - مهارات الجودة الإنتاجية.

- المكون الوجداني.

«لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير
لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات»
[أبو حامد الغزالي]

الخطاب الوعظي خطاب لا يمكن الاستغناء عنه والمعول عليه كبير في عملية الإصلاح لأسباب من أبرزها أنه من أقوى الخطابات الدينية تأثيراً في الجماهير، وحضوره وفعاليته في قنوات الاتصال والإيصال قوي جداً، وفي مقدور الناس على اختلاف مستوياتهم فهمه وإدراكه والاستفادة منه.

وهذه المنزلة التي يحتلها الخطاب الوعظي تستوجب من الباحثين والدارسين المساهمة في إصلاحه وتطويره؛ لأن تحقيق الأهداف في أي مؤسسة أو خطاب لا تتم بالشكل المطلوب إلا في ظل متابعة ومراجعة، وطول الأمد والممارسة مع إغفال جانب النقد والمراجعة يبتعد بالخطاب عن أهدافه ومراميه، وربما يلحقه تحوير فيعود إصلاحه إفساداً، ونفعه ضرراً، وهذا لا يخص الخطاب الوعظي بل هو عام في كل نشاط إنساني.

وفي هذه الورقات نقدم رؤية تطويرية مقتضبة ربما تسهم مع غيرها من رؤى الباحثين والدارسين في الإصلاح والتطوير.

وتقوم هذه الرؤية على مثلث يمكن استعارته ثقافياً من الحقل التربوي، فإن المهارات الكبرى تقوم على مثلث يتكون من الأضلاع الآتية:

١ ـ المكون المعرفي.

٢ ـ المكون السلوكي الأدائي.

٣ ـ المكون الوجداني[1].

ومن خلال ترابط هذه المكونات ينشأ المثلث بصورة صحيحة يمكن الاعتماد عليها في عملية الإصلاح والتغيير، مع ملاحظة أننا يجب أن لا نحمّل الخطاب الوعظي ما لا يحتمل، وندرك تمام الإدراك الفضاء الذي يعمل فيه هذا الخطاب والحدود التي سبق أن أشرنا لها سابقاً في ثنايا البحث.

---

(١) أبو هاشم، السيد محمد (٢٠٠٤م): **سيكولوجية المهارات**، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ص٣٤ ـ ٣٥.

إبراهيم، مجدي عزيز (١٤٢٤هـ): **موسوعة التدريس**، عمان، دار المسيرة، ص١٦٨٦.

أولاً: المكون المعرفي

قديماً قال الأولون: «فاقد الشيء لا يعطيه»، والعمليات التواصلية التي تقوم بين الفرد والجمهور أيا كان نوع هذا التواصل ومستواه وهدفه تقوم على مضمون معين يتم نقله من المرسل إلى المستقبل، وهذا المضمون هو الذي سميناه في مبحث نظرية الاتصال (بالرسالة).

والرسالة مجموعة من الأفكار والمعارف والرؤى، وتتشوه عملية الاتصال إذا كانت الرسالة فارغة أو شبه فارغة أو تحمل مضامين خاطئة أو مزورة.

والمكون المعرفي الذي يخص الخطاب الوعظي والذي يطالب به الواعظ يمكننا حصره في ثلاث مستويات هي:

الأول: المعرفة بمضمون الرسالة (التأصيل العلمي).

الثاني: المعرفة بحال مستقبلي الرسالة (الجمهور).

الثالث: المعرفة بسياق الرسالة. (مراعاة الزمان والمكان).

أولاً: التأصيل العلمي:

من يقرأ كلام العلماء عن أهمية التأصيل العلمي للواعظ يتملكه العجب إذا قارن ذلك بحال بعض الواعظين اليوم وتصدرهم للمجالس والمنابر، فابن الجوزي مثلاً يقول عن التأصيل: «لا ينبغي أن يقص على الناس إلا العالم المتقن فنون العلوم؛ لأنه يسأل عن كل فن، فإن الفقيه إذا تصدر لم يكد يسأل عن الحديث، والمحدث لا يكاد يسأل عن الفقه، والواعظ يسأل عن كل علم فينبغي أن يكون كاملاً»[1].

ويقول في موضع آخر: «فينبغي للواعظ أن يكون حافظاً لحديث رسول الله، عارفاً بصحيحه وسقيمه، ومسنده ومقطوعه ومعضله، عالماً بالتواريخ وسير السلف، حافظاً لأخبار الزهاد، فقيها في دين الله عالماً بالعربية واللغة فصيح اللسان»[2].

وفي نصه السابق إشارة إلى ما صدرنا به هذا المبحث من كون الخطاب الوعظي من أشد الخطابات تأثيراً في الناس؛ ولذلك ينظر الناس للواعظ نظرة كمال وابن الجوزي يحاول أن يصل بالواعظ إلى هذه المنزلة التي يضعه الناس فيها.

ويبدو أن تشدد العلماء في اشتراط علم الواعظ وتأصيله راجع لتخوفهم من هذا الخطاب على الناس وأثره فيهم، وهو أمر

---

(١) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤٠٩هـ): **كتاب القصاص والمذكرين**، ص١٨١.

(٢) المرجع السابق، ص١٨٢.

ملاحظ ولذلك يقول ابن الجوزي: «لما كان الخطاب بالوعظ في الأغلب للعوام، وَجَد جهالٌ من القصاص طريقاً إلى بلوغ أغراضهم ثم ما زالت بدعهم تزيد حتى تفاقم الأمر، فأتوا بالمنكرات في الأفعال والأقوال والمقاصد»[1].

والذي يظهر أن ابن الجوزي وغيره من العلماء قد تشددوا في الأمر حتى صار الواعظ عندهم هو العالم والفقيه، يقول أحد المعاصرين: «إن الواعظ يخاطب جماهير الأمة على اختلاف أسنانها ومداركها فهو بذلك مقصد كل سائل عن دينه أو مستشكل أمراً من عباداته أو معاملاته فلا يكاد يمر باب من أبواب العلم إلا سئل عن جليه وخفيه، لهذا فهو في أمس الحاجة إلى التزود بالعلم وبلوغ الغاية فيه»[2].

والحق أن هذه الصفات ليست صفات الواعظين، بل هي للعلية من العلماء أهل الاجتهاد، وقد لا يصل كثير منهم إلى خفي العلم! ولو قصَرنا الوعظ عليهم على ندرتهم لم يقم بهذه المهمة أحد، وأكثر الذين يقومون بمهمة الوعظ والتذكير هم من أوساط طلبة العلم والمبتدئين محتسبين الأجر من الله.

ولأن الواعظ يقدم خطاباً دينياً بالدرجة الأولى فإن من الواجب تأصيله شرعياً ويسير تأصيله في مستويين:

---

(١) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤٠٩هـ): **كتاب القصاص والمذكرين**، ص٢٩٥.

(٢) ابن صفية، سليمان العربي (١٤٣١هـ): **منهج السلف في الوعظ**، ص٦٠٩.

- علم بأصول العلوم الشرعية من قرآن وسُنَّة وتفسير وأحكام مضافاً إليها معرفة جيدة بالعربية وأساليبها.

- علم متين في مضمون موعظته التي يقدمها، فليس من المقبول أن يقف أمام الناس محدثاً ومرغباً ومرهباً في موضوع لا يدرك منه إلا ظاهراً من القول، وقد ينقل في موضوع موعظته نقولاً خاطئة، أو يروي أحاديث باطلة، أو يسأل عن شيء حولها فيجيب من عند نفسه.

وليس هذا من التشدد الذي يفرض على الناس في دعوتهم، بل هو الأمر المشروع، لذلك فإن علي بن أبي طاب ﷺ فيما يروى عنه أنه كان يختبر الوعاظ ومن ذلك أنه مر بواعظ يعظ فسأله أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ فقال: لا، فقال: هلكت وأهلكت[1].

ويشير الإمام النووي إلى ما ألمحنا إليه في مسألة التأصيل العلمي حيث يقول:

«إنما يأمر وينهى من كان عالما بما يأمر به وينهى عنه؛ وذلك يختلف باختلاف الشيء؛ فإن كان من الواجبات الظاهرة، والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها، فكل المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال

---

(١) أبو خيثمة، زهير بن حرب (١٤٠٣هـ): كتاب العلم، بيروت، المكتب الإسلامي، ص١٤٠، وقال الألباني: إسناده صحيح.

ومما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه، ولا لهم إنكاره، بل ذلك للعلماء»[١].

وهو يوافق ما أشرنا سابقاً من المستويين الاثنين، ثم هو الأنسب لحال الوعظ لأنه هدفه التذكير ومجاله ليس الفتوى ودقائق العلم بل مجاله المحكمات من أمور الدين العامة، لكن هذا لا يعفيه من معرفته لموضوع وعظه الذي يقدمه معرفة تامة.

ثم هذا التأصيل المعرفي الذي يتصف به الواعظ يجب أن تردعه عن القول بغير علم إن تعرض لسؤال أو فتيا أو استشارة[٢]، بل عليه أن يلتزم الحد الذي يعرفه من نفسه؛ لأن الاستشكال الذي دفع العلماء للتشدد في صفة علم الواعظ سببه تهور بعض الواعظين وتقحمهم لمسائل ليسوا من أهلها، ليس في العلم الشرعي فحسب بل ربما قدم بعضهم استشارات نفسية وأسرية في قضايا دقيقة تحتاج إلى متخصصين وربما ترتب على ما أفتى أو أشار به مشكلات لا حصر لها[٣].

وهنا ينبغي الإشارة أن على العلماء وأئمة المساجد ومؤسسات الدعوة والجامعات وكل المعنيين أن يولوا هذه القضية

---

(١) النووي، يحيى بن شرف (١٣٩٢هـ): شرح صحيح مسلم، ٢/٢٣.

(٢) تناقلت وسائل الإعلام من فترة حادثة تطليق الزوج لزوجته على الهواء بعد أن أشار إليه الشيخ بذلك!

(٣) في عينة الدراسة التي أجريناها يرى قرابة ٤٢٪ من أفراد العينة أن الوعاظ يفتقدون إلى التأصيل العلمي، ويرى قرابة ٤٥٪ منهم أن الوعاظ يقدمون استشارات نفسية وأسرية تفتقر إلى التخصص، ويرى قرابة ٣٢٪ أن الوعاظ يمارسون الفتيا دون علم، وهي نسب عالية جداً، وتكاد تؤكد نظرة القدماء واشتراطاتهم في الوعاظ.

عنايتهم، ولو أدى إلى منع الواعظ غير المؤهل علمياً؛ لأن ضرره على نفسه وعلى غيره أكبر كما يقول ابن الجوزي.

وإنه لمن المؤسف حقاً أن الوعظ أصبح مرتبطاً بمن لديهم مقدرة إلقائية أدائية وأصبح تقييمهم والثناء عليهم تبعا لهذه المهارة ويقدمون ويستضافون على أساسها، وهي على أهميتها وأثرها إلا أنها لا تعني شيئاً إذا فقد العلم بل هي الوبال والخطر الذي حذر منه العلماء قديما وما نرى بعض آثاره حديثا.

ثانياً: معرفة الجمهور:

يمكن أن ندرس هذا الموضوع من ثلاثة مداخل علمية، من مدخل شرعي وهو العلم بحال المدعوين ومخاطبتهم على قدر عقولهم، ومن مدخل بلاغي وهو مراعاة مقتضى الحال ومنه معرفة حال المتلقي، ومن مدخل تربوي ونفسي بما بات يعرف باسم علم نفس الجماهير.

هذه المداخل الثلاثة تشير كلها إلى أهمية معرفة الطرائق الصحيحة في التعامل مع الجمهور، وعلى ضوء هذه المعرفة يكون بناء الرسالة وصياغة المضمون واختار القناة التوصيلية الأنسب.

ولم يعد خافياً أن هذه المعرفة بنفسيات واتجاهات الناس صارت أساساً من أسس عمليات التسويق التجاري والسيطرة على الناس، ومن خلاله تتمكن الشركات العملاقة من الاستحواذ على قدر أكبر من مساحة السوق الاستهلاكي، فلم تعد القضية (ضربة حظ) كمان كان سابقًا، بل أصبحت علما ودراسة.

في المدخل الشرعي يتبين لنا أن الشرائع كلها جاءت في مناهجها بما يناسب أهلها كما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه»[1].

وفي التشريع الإسلامي لا يمكن أن نغفل مراعاة أحوال المكلفين، وبناء عليه وجدنا خطابا قرآنياً مكياً يختلف في جوانب منه عن الخطاب القرآني المدني، وكذلك جاء خطاب التكليف في بعضه بالتدرج مراعاة لأحوال الناس، وكان نزول القرآن منجما على فترات لحكمة منها «التمهيد لكمال تخليهم عن عقائدهم الباطلة وعباداتهم الفاسدة وعاداتهم المرذولة، وذلك بأن يُراضوا على هذا التخلي شيئاً فشيئاً، بسبب نزول القرآن عليهم كذلك شيئاً فشيئاً، فكلما نجح الإسلام معهم في هدم باطل انتقل بهم إلى هدم آخر، وهكذا يبدأ بالأهم ثم بالمهم حتى انتهى بهم آخر الأمر عن تلك الأرجاس كلها، فطهّرهم منها وهم لا يشعرون بعنت ولا حرج، وفطمهم عنها دون أن يرتكسوا في سابق فتنة أو عادة، وكانت هذه سياسة رشيدة لا بد منها في تربية هذه الأمة المجيدة، لا سيما أنها كانت أبية معاندة تتحمس لموروثاتها، وتستميت في الدفاع عما تعتقده من شرفها، وتتهور في سفك الدماء وشن الغارات لأتفه الأسباب»[2].

---

(١) ابن كثير، إسماعيل بن عمر (١٤٢٠هـ): **تفسير القرآن العظيم**، الرياض، دار طيبة، ٢/ ٤٥.

(٢) الزرقاني، محمد عبد العظيم (د.ت): **مناهل العرفان في علوم القرآن**، حلب، مطبعة عيسى البابي، ١/ ٥٦.

ولأجل هذا لما بعث النبي ﷺ معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن زوده بهذه المعرفة بأحوال الناس الذين سيأتيهم وكيف يكون خطابه معهم، فقال له: «**إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله..**» الحديث[1].

فإذا كانت هذه سياسة الشارع مع المكلفين المخاطبين فإن انتقال الفكرة ذاتها إلى سياسات الخطاب الديني والوعظي يجب أن يكون تبعاً لذلك.

يقول ابن تيمية: «إن المسائل الخبرية العلمية قد تكون واجبة الاعتقاد، وقد تجب في حال دون حال، وعلى قوم دون قوم، وقد تكون مستحبة غير واجبة، وقد تستحب لطائفة أو في حال كالأعمال سواء، وقد تكون معرفتها مضرة لبعض الناس، فلا يجوز تعريفه بها، كما قال علي رضي الله عنه: «حدّثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله؟»[2] وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما من رجل يحدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم[3]»...

ومثل هذا كثير عن السلف، فإذا كان العلم بهذه المسائل قد

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ١٤٧/٢، حديث رقم (١٤٥٨)، ومسلم بن الحجاج (د.ت): **صحيح مسلم**، ٣٨/١، حديث رقم (١٣٢).

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، كتاب العلم، باب من خصب العلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، ٤٤/١، حديث رقم (٥٠).

(٣) مسلم بن الحجاج (د.ت): **صحيح مسلم**، مقدمة صحيح مسلم، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، ٩/١، حديث رقم (١٤).

يكون نافعاً، وقد يكون ضاراً لبعض الناس، تبيّن لك أن القول قد ينكر في حال دون حال، ومع شخص دون شخص، وإن العالم قد يقول القولين الصوابين كل قول مع قوم؛ لأن ذلك هو الذي ينفعهم، مع أن القولين صحيحان لا منافاة بينهما، لكن قد يكون قولهما جميعاً فيه ضرر على الطائفتين، فلا يجمعهما إلا لمن لا يضره الجمع»[1].

والتأصيل الشرعي لهذه المسألة كما بينا في غاية الوضوح في إطاره النظري، لذلك فإن الإخلال به في التطبيقات يفضي في العادة إلى نتائج وخيمة هي «الفتنة» التي أشار إليها حديث ابن مسعود السابق!

وهذه الأحاديث والآثار وإن كانت واردة في عموم الخطاب الشرعي الديني، فإن الخطاب الوعظي من أشدها التصاقا بها، وذلك لأنه من أقوى الخطابات تأثيراً في الناس، ولأنه الخطاب السائد والمنتشر بين صفوف مختلفة من الناس، ولأنه خطاب يستقر في الوجدان ويتفاعل معه المخاطبون سريعاً، ولذلك مراعاة فهم الناس ومداركهم واستيعابهم ومستوياتهم العلمية والزمان الذي يعيشون فيه يحتاج إلى دقة في تقييمه من الوعاظ قبل الإقدام على الموعظة.

وإذا انتقلنا إلى مقام البلاغة والبيان فإن مراعاة أحوال الناس في أساليب البيان من الأمور التي ترعاها البلاغة والشريعة

---

(١) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (١٤٢٥هـ): مجموع الفتاوى، ٣/٥٩، ٦/٣١١.

أيضا، فهناك مقام للإطناب ومقام للاختصار، ومقام للتأكيد وعدمه ولكل قوم أسلوب يناسبهم، والله سبحانه «جعل مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق، فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه، يدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن»(١).

وهذا من حيث الشريعة ومن حيث البلاغة «فالبلاغة توجّه إلى العقل أو إلى القلب أو إليهما معاً؛ لما تقتضيه حالات المخاطبين من مقاومة الجهل والرأي والهوى منفردة أو مجتمعة، فإذا كان غرض البليغ نفي جهالة أو توضيح فكرة أو تقرير رأي أجزأه في وفاء غرضه الصّحة والوضوح والمناسبة، فإذا أراد التعليم أو الإقناع وكان قوام الموضوع طائفة من الفكر والأدلة وجب عليه أن ينسقها ويسلسلها على مقتضى الأصول المقرَّرة في المنهج العلمي الحديث»(٢).

وفي ضوء هذا التقرير فإن من الخطأ أن يساوي في الخطاب الوعظي في أساليبه ومضامينه بين خطاب الطلاب في المدارس وبين المصلين في المساجد والجوامع، أو بين من في المسجد وبين من يشاهد القنوات الفضائية، أو بين خطاب الرجل

---

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (١٤١٨هـ): مفتاح دار السعادة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١/١٥٣.

(٢) الزيات، أحمد حسن (١٩٤٥م): دفاع عن البلاغة، القاهرة، مطبعة النهضة، ص٢٣.

وخطاب المرأة، وما ينبغي أن يقوله وما يحسن أن يسكت عنه، فالبلاغة والشرع والعقل كلها تقول لكل مقام مقال.

وإذا انتقلنا إلى العلوم الحديثة خاصة علوم النفس والتربية فإننا سنجد حديثاً يطول جداً، خاصة وأن التربية معنية أشد العناية بالتلقي وكيفية إيصال المعرفة للمتعلمين، وبناء عليه فقد كانت دراساتها مكثفة في هذا السياق واعتمدت مبدأ الفروق الفردية وخصائص مراحل النمو والإدراك وكيفية التعامل التربوي والتعليمي مع كل مرحلة.

وفي علم النفس بفروعه التربوي والجماهيري والمعرفي بحوث ومقالات حول هذه الفكرة التي نحن بصددها؛ ولأن الخطاب الوعظي خطاب جماهيري بالدرجة الأولى، فإن معرفة الواعظ بخصائص وسمات الجماهير وكيفية التأثير فيهم مما يفيده في ظهور خطابه بصورة مقبولة غير منفرة.

وقد يعترض معترض بأن الخطاب الديني لا يخضع لأهواء الناس فيكون على المقاس الذي تطلبه الجماهير وبالطريقة التي يريدونها بل الحق يقال وافق الجماهير أم خالفها.

وهذا الاعتراض صحيح في مجمله فإن المثقف والواعظ والمفكر صاحب رسالة قِيَميّة وأخلاقية، وهو منقاد لها وليس منقاداً للجماهير، ولكن هذه الفكرة ليست ما نروم معالجته هنا، بل ما نقصد إليه كيف تصل الفكرة التي يؤمن بها الواعظ والمثقف وصاحب الرسالة إلى الجماهير وتقع موقعها دون أن ينفروا منها

ويبغضوها أو يقفوا أعداء في وجهها، وكيف تكون رسالته صحيحة وغير مضللة تسوق الجماهير إلى الهاوية؟

ومراعاة هذه الأحوال هو من الحكمة التي تعني أن يحقق الخطاب هدفه بأقصر الطرق وأسلمها، وكما أنه ليس من هدف الخطاب استرضاء الجماهير فإنه ليس من هدفه استعداء الجماهير أيضاً، ويفترق الخطاب الديني والوعظي عن غيره في هذه القضية عن غيره أنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين، بل كثير من الناس لا يكادون يفصلون بين الخطاب البشري الديني وبين الدين نفسه، ولذلك فإن تنفيرهم من الخطاب يقود إلى تنفيرهم من الدين نفسه، كما قال النبي ﷺ: «**إن منكم منفرين**»[1].

كما يختلف أيضاً في كونه خطاباً حريصاً على هداية الناس إلى الخير ودلالتهم على الله؛ ولذلك فإن أي خلل يحصل في الرسالة الخطابية قد يعيق هذا الهدف النبيل، فهم أشد حرصاً من غيرهم على عدم الوقوع في هذا الخلل لما يترتب عليه من مفسدة عظيمة.

وبناءً عليه فإن المعرفة بالقوانين التي تؤثر في الناس والجماهير وتصرفاتهم وقيادتهم من الأهمية بمكان، ويعتبر كتاب «غوستاف لوبون سكيولوجيا الجماهير» نواة مهمة في دراسة الجماهير ومن بعده فتح الباب لدراسات كثيرة؛ ككتاب فرويد

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ١/ ١٨٠، حديث رقم (٧٠٤)، ومسلم بن الحجاج (د.ت): صحيح مسلم، ٢/ ٤٢، حديث رقم (١٠٧٢).

علم نفس الجماهير، ثم تطور حقل علم النفس الاجتماعي، والجدير بالذكر أن غوستاف لوبون يمكن الإفادة منه في طريقة فهم الجماهير ونفسياتهم؛ لأن له مواقف سلبية تجاه الجماهير يحسن بالواعظ تجنبها تماماً.

ومن أهم ما قدمه لوبون في كتاباته سواءً في هذا الكتاب أو كتابه الآخر الآراء والمعتقدات أن الجمهور له مفهوم آخر غير ما كان سائداً إنه: «تكتل من البشر يمتلك خصائص جديدة ومختلفة جداً عن خصائص كل فرد يشكله، وفيه تنطمس الشخصية الواعية للفرد، وتصبح أفكار الوحدات المصغّرة المشكلة للجمهور موجهة في نفس الاتجاه، وتصبح كينونة واحدة خاضعة لقانون الوحدة العقلية للجماهير»[1].

ونلاحظ أنه يرى أن الجمهور مجتمع نفسي يذوب فيه الأفراد ضمن أفكار موجهة ويتحولون إلى كينونة واحدة ولا يشترط أن يكونوا على صعيد واحد فربما باعدت بينهم المسافات ووحدتهم الأفكار «فإن شعبا بأكمله يمكنه أن يصبح جمهورا بتأثير هذا العامل أو ذاك بدون أن يكون هناك تجمع مرئي»[2].

ولذلك فإن الجماهير التي تجمعها أفكار أو عوامل يتحمسون لها تذوب شخصياتهم ويتحولون إلى كيان له سمات من أبرزها:

---

(١) لوبون، غوستاف (١٩٩١م): **سيكولوجية الجماهير**، بيروت، دار الساقي، ص٥٣.

(٢) المرجع السابق، ص٥٤

- سرعة الانفعال والنزق والغضب.
- سرعة التأثر وبطريقة ساذجة أحياناً.
- التعصب والاستبداد والعنف[1].

وبسبب هذه السمات يستغل كثير من الساسة والقادة الجماهير عن طريق التأثير عليهم بوسائل مختلفة من الخطابات المؤثرة غير العقلانية بما يحيلهم إلى قنابل موقوتة تنفجر في أي لحظة بغير وعي، وقد تحل «محل القائد تلك المطبوعات الدورية، التي تصنع لقرائها الآراء، وتؤمن لهم جملاً وعبارات جاهزة تعفيهم من عناء التفكير»[2].

إن هذه الخصائص نكاد نلمسها في جماهير الخطاب الوعظي بشكل واضح مما يعني أن المسؤولية كبيرة على عواتقهم تجاه هذه الجماهير، وبسبب هذه المسؤولية كان تخوف العلماء قديما من الوعاظ والقصاص الجهلة على (العوام)، وهو مصطلح يتكرر كثيراً في كتاباتهم نجده عند ابن قتيبة وابن الجوزي والسيوطي وغيرهم، وهو يشبه مصطلح الجماهير إلى حد ما، وكأنهم يتخوفون من التأثير السلبي الذي يحدثه الخطاب الوعظي حين يستميل العوام حسب تعبيرهم بالكذب والقصص والإسرائيليات.

وبسبب هذه البساطة التي تتعامل بها الجماهير في تلقيها

---

(١) المرجع السابق، من ٦٠ إلى ٧٦.
(٢) المرجع السابق، ص١٢٧.

للأفكار وقوة هذه العواطف التي تذوب فيها، ينشأ التعصب للمذاهب والمشائخ، فهم إما أن يقبلوا الآراء والعقائد دفعة واحدة، أو يرفضوها ويتركوها دفعة واحدة[1].

وقد يفسر لنا هذا شيئاً من الطائفية التي نراها تشتد في أحيان كثيرة، وكذلك يفسر لنا شيئاً من التعصب المذهبي الذي نجده في كتب تاريخ الفقه، ونجده الآن بين الحركات الإسلامية التي يخضع أتباعها لخطاب وعظي تعبوي جماهيري تجاه الآخرين.

يرى غوستاف لوبون «أن التأكيد المجرد والعاري من كل محاجة عقلانية أو برهانية سيشكل الوسيلة الموثوقة لإدخال فكرة ما في روح الجماهير، وكلما كان التأكيد قاطعاً وخالياً من كل برهان كلما فرض نفسه بهيبة أكبر، فكل الكتب الدينية فعلت هذا، ورجال الدولة المدعوون للدفاع عن قضية سياسية يعرفون قيمة التوكيد، وكذلك رجال الصناعة الذين ينشرون سلعهم عن طريق الإعلان»[2].

وبغض النظر عن التعميم الموجود في حديث لوبون خاصة فيما يتعلق بالكتب الدينية، فإننا يمكن أن نقول إن الواعظ يسير في طريق محفوفةٍ بالخطر أمام هذه التكتلات الجماهيرية، فهو إما أن يحولها إلى قطيع تتبعه هو ولا تتبع الدليل، وتتأثر به باعتباره

---

(١) المرجع السابق، ص٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٢.

السيد القائد وتتعصب له ولأفكاره وآرائه، وقد يرضي هذا المشهد غرور المغتر وكبر المتكبر.

وإما أن يحاول التخلص من سلطة الجماهير وتأثيرها عليه وتأثيره السالب عليها، مع مراعاة عدم مصادمتها خشية من غائلتها وتنفيرها عن الحق والهدف الذي يحمله.

وهذه الطريق الشائكة قد تحيل الواعظ من داعية لله إلى داعية لنفسه فيدخل حينئذ في مفهوم الحديث العظيم الذي سبق أن أشرنا إليه في بداية الكتاب، «**لا يقص إلا أمير أو مأمور أو مختال**».

والشبكات الاجتماعية والمنتديات من قبلها قد كشفت بجلاء عن ظاهرة الجماهير وتعصبها للفكرة أو للشيخ أو للطائفة دون أن يكون هناك طرح وسطي يدرك هذه النفسيات المأزومة وكيف يتعامل معها؟ مع إدراكنا بأن التعامل معها ليس بالأمر السهل.

ثالثا: مراعاة الزمان والمكان:

هذا جانب آخر من جوانب المكون المعرفي له قيمته التطويرية في عملية الإصلاح، وهو لا يقل أهمية عن سابقه، وإدراك مراميه وما يفضي إليه يمكن الخطاب الوعظي من تحقيق نجاحات نحسب أنه بحاجة إليها.

ومعرفة سياق الزمان والمكان الذي تنشأ فيه الرسالة الوعظية لم يكن في معزل عن الرؤية القديمة في عمليات الإصلاح

للخطاب الوعظي فابن الجوزي يكشف عن هذه الرؤية الزمانية حين يحدد سبب كره بعض السلف للوعظ بقوله: «وقد كان جماعة من السلف يرون تخليط القصاص، فينهون عن الحضور عندهم، وهذا على الإطلاق لا يحسن اليوم؛ لأنه كان الناس في ذلك الزمان متشاغلين بالعلم، فرأوا حضور القصص صاداً لهم»[1].

هذا الاعتبار لعنصر الزمان الذي جعل ابن الجوزي يفرق بين الحال القديمة للوعظ التي جعلت بعض السف ينهون عن الحضور عندهم وبين ما طرأ في الزمان مما يجعل النهي في زمنه غير مشروع يجعلنا ننظر إلى عنصر الزمان وأهميته في تحديد هوية الخطاب الوعظي على مستويين:

الأول: المستوى العام.

الثاني: المستوى الخاص.

المستوى العام:

ونقصد هنا النظرة لطبيعة الزمن الذي نعيش فيه وما يتميز به عن سابقه من الأزمان كما صنع ابن الجوزي تماماً، فننظر نظرة جيدة لملاءمة الخطاب الوعظي له من حيثيات كثيرة منها ما ذكره ابن الجوزي من تشاغل الناس بالعلم، ومنها طبيعة العلوم والمعارف التي انتشرت في هذا الزمن، وانتشار العلم الطبيعي

---

(١) ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤١١هـ): **صيد الخاطر**، بيروت، دار القلم، ص١٠٠.

وانفتاح العالم على بعضه وتطور مهارات التفكير والنقد وتغير نظرة الناس للعالم والواعظ، واطلاع كثير من الناس على الخلاف الفقهي ومعرفتهم به، وكثرة الاختلافات المذهبية والطائفية والجماعات الإسلامية، وتعرض الخطاب الإسلامي للتشويه والتبديل، وهلم جرا من هذه المتغيرات التي تحتاج أن يراعيها الواعظ حال وعظه.

ومن الأمور العامة التي تخص تغير الزمان نفور الناس من التشدد بكافة صوره حتى التبس على بعضهم الحق، فصاروا يعدون بعض أوامر الشرع ونواهيه من التشدد بسبب ذهنية التحريم التي طغت في خطاب بعض الفقهاء والوعاظ، وبسبب ما يروج له بعض المغرضين من تعارض الدين مع روح العصر المتسامح... إلخ.

وهذه القضية من الأمور التي يغفل عنها الخطاب الوعظي، ذلك لأن الزمن يتقدم بسرعة هائلة في متغيراته الموضوعية والفكرية، وهو ما زال يجتر خطاباً سابقاً بعقود كثيرة دون أن يشعر بهول المسافة الفاصلة بين واقعه وبين خطابه.

وإلى هذه القضية يشير ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ إليها إشارة لطيفة بقوله: «ويلاحظ أيضاً في هذه الأوقات التسهيل ومجاراة الأحوال، إذا لم تخالف نصّاً شرعياً؛ لأنّ أكثر الناس لا يستفتون ولا يبالون، وكثير ممن يستفتي إذا أفتي بخلاف رغبته وهواه تركه ولم يلتزمه، فالتسهيل عند تكافؤ الأقوال يخفف الشر، ويوجب

أن يتماسك الناس بعض التماسك؛ لضعف الإيمان وعدم الرغبة في الخير.

كما يلاحظ أيضاً أن العرف عند الناس أن الدين الإسلامي لا يقف حاجزاً دون المصالح الخالصة أو الراجحة، بل يجاري الأحوال والأزمان، ويتتبع المنافع والمصالح الكلية والجزئية، فإن الملحدين يموهون على الجهال أن الدين الإسلامي لا يصلح لمجاراة الأحوال والتطورات الحديثة، وهم في ذلك مفترون فإن الدين الإسلامي به الصلاح المطلق من كل وجه الكلي والجزئي، وهو حلّال لكل مشكلة خاصة أو عامة، وغير قاصر من جميع الوجوه»[1].

وهذا يشبه الأصل المقرر أن الفتوى تتغير مراعاة للزمان والمكان[2]، وفقا للضوابط الشرعية المرعية في ذلك، وإذا كان هذا في شأن الفتوى التي تتعلق بالحلال والحرام، فإن الخطاب الوعظي داخل من باب أولى في مراعاة الزمان وما يصلح للناس وما لا يصلح.

لذلك من الأمور المهمة التي يجب أن يدركها الوعاظ أن مصطلح العوام الذي كان يطلقه العلماء قديما على جمهور الناس المستمعين للوعظ قد تغير جذرياً، فأكثر من يتابع الآن في

---

(١) ابن سعدي، عبد الرحمٰن بن ناصر (١٤٠٢هـ): **الفتاوى السعدية**، الرياض، دار المعارف، ص١٩٧ ـ ١٩٨.

(٢) ينظر في ذلك: ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (١٩٧٣): **إعلام الموقعين**، بيروت، دار الجيل، ٢/ ٤٢٥.

المساجد وعبر القنوات الفضائية وفي الشبكات الاجتماعية متعلمون وهم طبقات في تعليمهم ويدركون كثيرا من علوم الشرع وعلوم الدنيا.

وعليه فإن الخطاب القائم على القصص المبالغ فيها أو الخرافات أو التي لا أصل لها يجعل أصحابها عرضة للسخرية والتندر، وهو أمر مشاهد في شبكات التواصل الاجتماعي خاصة من فئة الشباب.

وما يستخدمه بعض الوعاظ من العزو إلى دراسات علمية للتحذير من سلوك معين أو قضية وعظية نقلاً عن مصادر مجهولة أو غير معتمدة وبطريقة غير موضوعية جعل خطابهم عرضة للنقد اللاذع؛ لأن أطياف كثيرة من المجتمع متخصصون في مثل هذه الدراسات، وأصبح البحث عن هذه الحقائق والتأكد منها يسيراً.

فلماذا يصر بعض الوعاظ على تقحم هذه المناطق التي لا يراعون فيها الحقائق ولا يدركون فيها أن الجمهور اختلف زمانه وتغيرت آلياته وإدراكاته للأمور عن ذي قبل[1]، وأنهم بذلك يساهمون دون وعي لتنفير فئات ليست قليلة وإعطائها مبررات للوقوف ضد الخطاب وربما ضد الدين.

وهذا لا يعني بالتأكيد الوقوع تحت خط الانهزام

---

(١) نشرت إحدى الكاتبات في صحيفة **الحياة** مقالاً ساخراً تتندر فيه بالوعاظ بعنوان: «الدراسات العلمية والدراسات الوعظية» تعرضت فيه لهذه القضية بلغة ساخرة ٩/ ١١/ ٢٠١٣م.

والإحساس بالضعف تجاه ما يترصده بعضهم على الخطاب الديني والوعظي، بل هو أمر يدركه البصير من غير أن يتتبعه في كتابات ومخاصمات المناوئين، ولا حاجة أصلاً لمثل هذه الترهات وفي الصحيح المعقول الكفاية وزيادة، ومن أنفسنا على أنفسنا ناقد بصير.

المستوى الخاص:

ويقصد به مراعاة الزمان والمكان الذي يلقي فيه الواعظ موعظته ويندرج تحت ذلك كثير من الحالات والتطبيقات التي تحتاج عناية ورعاية ومن ذلك:

- مراعاة الأزمنة الفاضلة وفترة إقبال الناس على الخير كرمضان مثلاً بحيث يكون الخطاب متضمناً لأنواع البشائر والترغيب في الخير وفتح أبواب الرجاء للناس، بدلاً من الخطاب الذي يتكئ على أسلوب الوعيد والتهديد وانتقاص الناس واتهامهم في نياتهم وأنهم عباد رمضان، وكذلك الخطاب الذي يكون في ختام رمضان والذي يوحي إلى الناس بعدم قبول توبتهم وصيامهم ويقنطهم من رحمة الله ظنا من الواعظ أن هذا الكلام سيحفز الناس على الاستزادة، وما علم أن وقع هذا الكلام على النفسيات يؤتي نتائج عكسية، إذ قد يقول قائلهم إذا كان ما فعلته من صوم وعبادة وتوبة لن يقبل مني فلم إذا أجهد نفسي؟

- وكذلك مراعاة الأزمنة التي يناسب أن يذكر فيها أن الرجاء المجرد عن العمل، والأماني الباطلة لا تجدي نفعاً، فلا

بد مع الرجاء من عمل يوجب رحمة الله وفضله ومنه، حتى يكون متوازناً بين خطاب الرجاء وخطاب الخوف.

- مراعاة حال المستمعين أثناء جلوسهم إليه وما هم فيه من حر أو برد، فبعض الخطباء قد يطيل في خطبته وكثير من المصلين ينتظرون في الشمس الحارقة أو في الحر الشديد أو في برد وزمهرير دون أن يراعي هذه الحال.

- مراعاة المكان فالموعظة عند الأقليات الإسلامية في دول غير إسلامية يختلف عنه في المجتمع المسلم، وهو في المدن والحواضر يختلف عنه في القرى والبوادي، فما يصلح في مكان لا يصلح في الآخر، ولذلك فإن اعتماد بعض الوعاظ والخطباء على الخطب الجاهزة من الكتب والإنترنت دون معرفة ملاءمتها لحال الموعوظين واعتبار زمانهم ومكانهم من الأخطاء الشائعة[(١)].

- مراعاة زمان نزول البلاء والمصائب بالبلاد أو العباد واختيار ما يلائم هذا الزمن من الخطاب، فبعض الخطباء يجعلها فرصة لتقريع الناس وتوبيخهم وأن هذا بسبب ذنوبكم وأخطائكم وتقصيركم دون أن يكون مع هذا التقريع الشديد دلالة على الهداية والرجوع، والتعلق بالله وعقد الآمال عليه، وصدق اللجوء إليه.

وفي جملة القول فإن سؤال الزمان والمكان لا يمكن حصره

---

(١) أجاب قرابة ٥٢٪ من عينة الدراسة أن الوعاظ يعتمدون على موضوعات منقولة من غيرهم.

واستقصاؤه لكن على صاحب الخطاب أن يكون ضمن أولويات ترتيب وإصلاح خطابه، والمطلعون في الدراسات الإدارية والتخطيط الاستراتيجي يدركون أهمية عنصر الزمان والمكان في إنجاح أهداف المؤسسات وفرق العمل.

ثانياً: المكون المهاري

يقول ابن منظور: «والمَهارة: الحِذق في الشيء، والماهر: الحاذق بكل عمل، والجمع مَهَرَة... ويقال: مَهَرْتُ بهذا الأمر أمهَرُ به مَهارة؛ أي: صرتُ به حاذقاً»[1].

وهذا المعنى اللغوي انتقل إلى ظلال المعنى الاصطلاحي للمهارة التي أصبحت تعني في القاموس التربوي والنفسي: «الأداء السهل الدقيق، القائم على الفهم لما يتعلمه الإنسان حركياً وعقلياً، مع توفير الوقت والجهد والتكاليف»[2].

والمهارة بهذا المفهوم يمكن أن تُعلّم وتنتقل عبر آليات تعليمية معينة للأفراد، ويتم اكتسابها وإتقانها بنجاح من خلال الطرق الآتية[3]:

---

(١) ابن منظور، جمال الدين محمد: لسان العرب، ٥/ ١٨٤.

(٢) اللقاني، أحمد، والجمل، علي (١٤١٩هـ): معجم المصطلحات التربوية المعرفة في المناهج وطرق التدريس، القاهرة، عالم الكتب، ص٢٤٩.

(٣) صالح، أحمد زكي (١٩٩٢م): علم النفس التربوي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ص٤٥٠ ـ ٤٥١.

١ ـ أن يتم دراسة المهارة المراد تعلّمها من حيث أنها كل لا يتجزأ، فتدّرس عن طريق الشرح النظري أو الملاحظة المباشرة للعملية.

٢ ـ الممارسة العملية للمهارة، فالجانب النظري وحده لا يكفي لاكتساب المهارة.

٣ ـ أن يركّز المتعلّم اهتمامه على الدقة في الأداء لا السرعة فيه، فالصيغة الكلية والدقة في الأداء تأتي أولاً ثم تأتي السرعة بعد ذلك؛ لأن السرعة نتيجة الدقة.

٤ ـ أن تمارس المهارة في المكان الطبيعي لها، تحت توجيه مشرف أو مدرّب.

والخطاب الوعظي يتكون من مجموعة من المهارات الأدائية والعقلية والتواصلية التي من خلالها يستطيع الواعظ أن يكون ذا تأثير قوي وفاعل وإيجابي في مجموعة المتلقين، ويمكننا أن نحصر هذه المهارات مبدئياً في الجوانب التالية:

- مهارات الإلقاء والأداء.
- مهارات التواصل الإيجابي مع الجمهور.
- مهارات الجودة الإنتاجية.

وكل هذه التصنيفات من المهارات وغيرها تقدم فيها المؤسسات المختصة دورات تدريبية تمكن المتدرب من إتقان المهارة واختبار كفاءتها ومدى إتقانه لها، وعليه فإن الواعظ الجاد يمكنه أن يطور من مهاراته من خلال القراءة المكثفة في هذه

المهارات وما يحتاج إليه منها، ويمكنه الالتحاق بهذه الدورات تطويرا لأدواته وقدراته.

وهنا سنعرض لأهم ما يمكن أن يحققه إتقان هذه المهارات من إيجابيات للخطاب الوعظي في الجوانب السابقة.

مهارات الإلقاء والأداء:

الحديث عن أهمية إتقان الواعظ لهذه المهارات يعد من نافلة القول، وقد سبق أن بينا أن جزءاً من عملية التأثير التي يحملها الخطاب الوعظي يكمن في الأداء وطريقة الإلقاء، ولهذا السبب فإن العلماء قديما نقلوا لنا كثيراً من صفات وعظ النبي ﷺ.

ففي صحيح مسلم أنه كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش صبحكم ومساكم[١].

وإتقان مهارات الإلقاء والأداء لا يغني أبداً عن التأصيل العلمي الذي يعصم الواعظ بإذن الله من الوقوع في الأخطاء العلمية، فكثيرا ما تستهوي بعض الناس قوة أداء الواعظ وإتقانه لمهارات الإلقاء والأداء على حساب المضامين التي يقدمها، وبرغم ما في بعضها من التكلف والأخطاء الشنيعة إلا أنك تجدهم يقدمونه ويجلونه بسبب تأثيره عليهم.

وإتقان هذه المهارات الإلقائية والأدائية يساهم في الحد من

---

(١) مسلم بن الحجاج (د.ت): صحيح مسلم، ٣/١١، حديث رقم (٢٠٤٢).

ظاهرة التقليد التي انتقلت من تقليد القراء في القرآن الكريم إلى تقليد مشاهير الوعاظ في الإلقاء بطريقة غير لائقة، حتى أصبح همة بعضهم كيف يصل إلى درجة المطابقة التامة لمن يقلده، فتجده يتبعه تقليدا في نبرات الصوت والخفض والرفع والتباكي والتحزين مما تنفر منه الطبائع السليمة، وإذا جمعت إلى ذلك أن المقلد لغيره يختلف عمن يقلده في طبقة الصوت وطبيعته يصبح التقليد بشعا منفرا للناس.

وفي تعلم هذه المهارات يتقن الواعظ مهارة ضبط الصوت وكيفية استخدامه خفضاً ورفعاً، ومما يؤسف له أن بعض الخطباء يظن نجاح الوعظ هو في علو الصوت وارتفاعه فيؤذي بصوته المرتفع عبر المكبرات أسماع الناس[١].

وربما احتج بعضهم برفع النبي لصوته دون أن يراعي أن الأمر الآن أصبح مختلفاً مع وجود مكبرات الصوت التي قد تحيل الموعظة إلى نوع من الصراخ والعويل الذي لا تفقه منه شيئاً!، وإتقان هذه المهارة تجعله يدرك الحجم المقبول من ارتفاع الصوت وخفضه، ذلك لأن خفض الصوت وإلقاء الخطبة والموعظة ببرود يفقدها كذلك التأثير والجاذبية.

وفي المهارات التي يحسن بالواعظ أن يتقنها الصياغة الجيدة لوعظه باستخدام اللغة الملائمة التي تزاوج بين الجمل

---

(١) يرى قرابة ٤٤٪ من عينة الدراسة الاستطلاعية أن الوعاظ يرفعون أصواتهم بطريقة لا تلائم المستمع، وهي نسبة عالية تشير إلى وجود خلل في هذه المهارة.

الإنشائية والخبرية، وتجنبه السجع والعبارات المتكلفة الذي سبق الحديث عنها وعن مخالفتها وتشويهها للأساليب الخطابية واللغوية[1].

ومن المهارات في الإلقاء والأداء إتقان لغة الجسد أو التعبير الإشاري الملمحي الذي من خلاله تتظافر اللغة المنطوقة مع اللغة المنظورة في أداء المعنى بعيداً عن التكلف الذي يخرج بالخطيب والواعظ إلى حد التمثيل، وبعيدا كذلك عن الجمود والتخشب الذي يمارسه بعض الوعاظ، ولقد تطور هذا الفن بشكل متسارع للكشف عن حالات التناقض بين اللغة المنطوقة ولغة الجسد، واكتشاف حالات الارتباك والقلق وعدم الاقتناع وكيفية توجيه الرسالة بطريقة لغوية جسدية متوازية.

مهارات التواصل الإيجابي مع الجمهور:

الخطاب الوعظي في مجمله عملية تواصلية سمعية أو بصرية مع الجمهور، وسبق أن تحدثنا عن علم نفس الجماهير وكيفية التأثير فيهم بمعرفة نفسياتهم، وهنا نشير فقط إلى ضرورة إتقان بعض المهارات الخاصة في التواصل الحي مع الجمهور بحيث يكون التواصل سلسا محببا بعيدا عن العوائق التي تحدثها بعض التصرفات غير المحسوبة.

إن الجمهور بطبيعته يتحسس من الألفاظ وطريقة أدائها

---

(١) يرى قرابة ٤٣٪ من عينة الدراسة الاستطلاعية أن الوعاظ يستخدمون السجع والعبارات المتكلفة، وهي نسبة عالية تشير إلى وجود خلل في هذه المهارة.

ويريد أن يشعر بالاحترام والتقدير واستفزازه من الأمور السهلة التي قد لا نلقي لها بالاً، لذلك فإن الواعظ الذي يواجه مجموعة من الناس بحاجة إلى إحاطتهم بهذا القدر البين من الحب والتقدير والابتعاد عن كل ما يسيء الفهم أو ينظر على أنه عدم تقدير لهم، خاصة المبالغة في التقريع والتوبيخ بحجة ترهيب العصاة، فبعض الألفاظ تخرج جارحة خادشة لا تحتمل.

إن مواجهة الناس بأخطائهم بقوة وفضاضة يعطي نتائج عكسية فاتهامهم بالدياثة أو عدم الغيرة أو الخيانة أو تضييع الأمانة أو الفسوق أو التخنث أو غيرها من الألفاظ التي قد نسمعها من بعض الوعاظ يؤذي المشاعر وينفر من الخير[1].

وكذلك مواجهة الناس في الوعظ بمحاولة إلزامهم بالاستماع للموعظة باستخدام النص الشرعي كما يفعل بعضهم حين يقرأ عليهم ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، أو حديث الرسول ﷺ الذي قال فيه: «**أما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه**»[2] وتنزيله على حال الذين لا يرغبون في البقاء لسماع الموعظة خطأ مرده عدم إتقان مهارة التواصل الإيجابي مع الجمهور[3].

---

(١) يرى قرابة ٤٣٪ من أفراد العينة أن الوعاظ يظهر في أساليبهم تحقير للمذنبين والعصاة.

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، ١/٢٦، حديث رقم (٦٦)، ومسلم بن الحجاج (د.ت): **صحيح مسلم**، ٧/٩، حديث رقم (٥٨١٠).

(٣) يرى قرابة ٥٣٪ من أفراد العينة أن الوعاظ لا يحاولون إلزام الناس بالبقاء بطرق غير ملائمة وهي نتيجة إيجابية عالية.

وكذلك ما يفعله بعض الوعاظ بتحديد وقت قصير للموعظة بدقائق معدودة ثم ينسى وعده ووقته ويطيل عليهم ويملهم ويحرجهم[1].

ومن الأمور المهمة في مهارات التواصل مع الجمهور ضرورة انبساط الوجه وعدم التجهم وأن تعلو الابتسامة المحيّا؛ لأن التجهم في مقابلة الناس وأثناء الوقوف أمامهم تنعكس سلبا على وصول الرسالة.

مهارات الجودة الإنتاجية:

الخطاب الوعظي يعتبر منتجاً بشرياً سواء كان مسموعاً أو مقروءاً أو منظوراً، ونحن في عصر الجودة الشاملة التي تقيس المنتج بناء على جودته وفق معايير خاصة بكل منتج، حتى باتت المؤسسات تحرص على أن تحصل على شهادات الجودة لتضعها على منتجاتها بغية إقناع الجمهور بالشراء والإقبال عليها.

ولدينا في الخطاب الوعظي منتجات صوتية وبصرية من مواد سمعية وأفلام فديو وكتب ولوحات رسومية، وكلها يمكن إخضاعها لمعايير الجودة إن أردنا أن نقدم خطابا إنتاجيا وعظيا رائدا.

وإلقاء نظرة سريعة على بعض من هذه المنتجات، يكشف لنا أنها تتسم بالفردية وغياب العمل المؤسسي وبناء عليه تفتقد إلى

---

(١) العبدة، محمد: **إصلاح الوعظ**، مقال على الشبكة العالمية على الرابط:
http://www.almoslim.net/node/83990

الجودة في المونتاج والإخراج والصوت والتصميم، وبعضها يحمل في طياته إشارات رمزية مسيئة وغير لائقة إما من خلال الإيحاءات أو من خلال الصور والرموز.

إن ظهور عمل مؤسسي متقن في أهدافه وإخراجه لغة وتصميماً سيسد فراغاً كبيراً في هذا الجانب المهم، ويمكن أن نستشهد هنا بمقاطع الفديو التي ينشرها الشيخ سلمان العودة تحت مسمى (وسم) بين فترة وأخرى، تحت إشراف وإخراج مؤسسة إنتاج متخصصة، ونجد أن مشاهديها يصلون إلى الملايين في خلال أيام معدودة[١].

والمتخصصون في الإخراج والجودة يمكنهم أن يقدموا للعاملين في حقل الإنتاج الوعظي معايير لجودة الصورة والصوت ومميزاتها التي ينبغي أن تكون عليها، وتجنب بعض الصور المقززة أو غير اللائقة أو التي قد تستثير الناس دون أن تحقق هدفاً إيجابياً.

والخلاصة مما سبق في جانب المكون المهاري أن الخطاب الوعظي بحاجة فعلاً إلى تطوير مهاراته في جميع الجوانب ليواكب

---

(١) يمكن الاطلاع على هذه الأعمال على اليوتيوب بالبحث عن قناة (وسم العودة) وبلغ عدد إنتاجهم سبعة أفلام فديو قصيرة، تتسم بجودة الإخراج وتقديم مضامين تلائم إلى حد كبير الواقع المعاصر وتخاطب شريحة كبيرة بلغة عصرية مفهومة، وقد كتب الكثير عنها مدحاً ونقداً، وهي تجربة بحاجة إلى الاستمرار والنقد والمراجعة لتطويرها.

التغيرات السريعة التي تطرأ على المجتمعات ويتصف بالإقناع والإمتاع والتأثير[1].

---

(1) في الدراسة الاستطلاعية كانت إجابات أفراد العينة على الأسئلة التالية كالآتي:
- يرى قرابة ٢٣٪ من أفراد العينة أن اللوحات الوعظية تستخدم صوراً غير مناسبة، بينما يرى قرابة ٤٦٪ أنها لا تفعل ذلك.
- ويرى ٣٥٪ أن اللوحات الوعظية تتسم بروعة التصميم، بينما يرى ٢٩٪ عكس ذلك.
- ويرى ٢٨٪ أن أفلام الوعظ تتصف بجودة الإخراج، بينما يرى ٣١٪ أنها ليست كذلك.

ثالثاً: المكون الوجداني

يتمثل المكون الانفعالي في جوانب من أهمها المشاعر والأحاسيس والميول والقيم والاتجاهات والأخلاق التي تشكل في مجموعها الكتلة الإنسانية التي يحملها الإنسان تجاه نفسه والحياة من حوله.

والمكون الانفعالي ذو أهمية بالغة في الخطاب الوعظي، فمن خلال شعور الواعظ الصادق تجاه خطابه وتبنيه القلبي الوجداني له وتمثله له في أعماق شعوره تنمو قيمه واتجاهاته وأخلاقه، ويكون كل هذا من أهم أسباب التأثير في الناس من حوله.

وكثيراً ما يعبر القدماء من السلف والخلف عن هذا المكون بالإخلاص، وأصل الإخلاص مأخوذ من تنقية الشيء وتهذيبه[1]، بحيث يخلص من الشوائب ويكون على صفة من الكمال تليق

---

(١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (١٤٢٣هـ): **مقاييس اللغة**، ٢/١٦٨.

بالمخلَصِ له، والإخلاص في العبادة ترك الرياء فيها[1] بحيث تكون نقية من إرادة غير الله، ويشمل معانٍ من أهمها معنيان:

الأول: خلوص العمل من كل شائبة ونقص في العمل نفسه، بحيث يكون في غاية الإتقان.

الثاني: خلوص العمل من إرادة غير الله به، فلا يكون إلا لله خاصا، فينزع من القلب كل إرادة أخرى.

والذي يتضح هنا أن الإخلاص الذي هو العنصر الأساسي في المكون الوجداني ينتج عنه إتقان العمل؛ لأن العامل يريد أن يكون عمله لائقاً بالله تعالى، والواعظ من أشد الناس عرضة للاختلال في هذا الجانب بالذات، وقد أدرك هذا الملحظ عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين استأذنه الحارث بن معاوية في الوعظ والقصص فقال له: «أخشى عليك أن تقص فترتفع عليهم في نفسك، ثم تقص فترتفع حتى يخيل إليك أنك فوقهم بمنزلة الثريا فيضعك الله تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك»[2].

ويقارن الغزالي بين مراتب ثلاث يتعرض أصحابها لآفات تعيق المكون الوجداني وتشوه مبدأ الإخلاص بسبب الرياء والعجب والسمعة فيقول: «وبالجملة فالمراتب ثلاث:

---

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم (١٤١٠هـ): لسان العرب، ٧/٢٦.

(٢) أحمد بن حنبل (د.ت): مسند الإمام أحمد، ١/١٨، وقال عنه شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن رجاله ثقات.

الأولى: الولايات والآفات فيها عظيمة، وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة.

الثانية: الصوم والصلاة والحج والغزو، وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم، ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة، وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة.

الثالثة: وهي متوسطة بين الرتبتين، وهو التصدي لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس، والآفات فيها أقل مما في الولايات وأكثر مما في الصلاة، فالصلاة ينبغي أن لا يتركها الضعيف والقوي ولكن يدفع خاطر الرياء، والولايات ينبغي أن يتركها الضعفاء رأساً دون الأقوياء، ومناصب العلم بينهما، ومن جرّب آفات منصب العلم علم أنه بالولاة أشبه، وأن الحذر منه في حق الضعيف أسلم»[1].

وما يلحق بالوعظ من هذه الآفات المعيقة هو مصداق لحديث النبي الذي تكرر معنا من أنه «**لا يقص إلا أمير أو مأمور أو مختال**»، وسبب إتيان الواعظ من قبل نفسيته وإخلاصه ما ذكره المناوي من أن «القاص: الذي يقص على الناس ويعظهم ويأتي بأحاديث لا أصل لها، يعظ ولا يتعظ ويختال ويرغب في جلوس الناس إليه (ينتظر المقت من الله تعالى)[2]؛ لما يعرض في قصصه

---

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (د.ت): **إحياء علوم الدين**، ٣/٣٢٨.

(٢) جزء من حديث: «القاص ينتظر المقت...» عند الطبراني في: **المعجم الكبير**، ١٢/٤٢٦، وهو حديث موضوع. انظر: للألباني، محمد ناصر الدين (١٤١٢هـ): =

من الزيادة والنقصان؛ ولأنه مستهدف لكيد الشيطان فهو يقول له: أما تنظر إلى الخلق فهم موتى من الجهل، هلكى من الغفلة، قد أشرفوا على النار؟ أما لك رحمة على عباده تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك، وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذَلِقٍ ولهجة مقبولة، فكيف تكفر نعمته وتتعرض لسخطه وتسكت عن إشاعة العلم ودعوة الخلق إلى الصراط المستقيم، فلا يزال يستدرجه بلطائف الحيل حتى يشتغل بوعظ الناس، ثم يدعوه إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ وإظهار الفصاحة، ويقول إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلبهم، ولم يهتدوا إلى الحق، فلا يزال يقرر ذلك، وهو في أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء، ولذة الجاه والتعزز بكثرة العلم، والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار؛ ليستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك والمقت، فيتكلم ظاناً أن قصده الخير، وإنما قصده الجاه والقبول، فيمقته الله وهو يظن أنه عنده بمكان»[1].

ولو أردنا أن نتتبع كلام السلف عن قضية الإخلاص وسلامة القلب وخلوه من الآفات وأثر ذلك على الخطاب الوعظي لطال بنا المقام، ونحن هنا لا نتهم أهل الوعظ في نواياهم ولا يحق ذلك لأحد لأن علم ذلك لله القدير، بل حسن الظن فيهم وفي آحاد المسلمين واجب، ولكن من أساسيات الإصلاح التي نرومها

= سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الرياض، دار المعارف، ٩/٦٦، حديث رقم (٤٠٧٠).

(١) المناوي، محمد بن علي (١٤١٥هـ): فيض القدير، ٤/٦٩٦.

من وراء هذا الطرح أن يكون الخطاب صادراً من نفس مطمئنة ولديها من الإخلاص والإقبال على الله ما يجعلها قادرة على تحقيق هدف هداية الناس، وقادرة على تمثل القيم العليا والاتجاهات الأخلاقية الحميدة التي تناسب هذا المقام[1].

وفي هذا الشأن يجدر بنا أن نشير إلى ضرورة معرفة الواعظ بنفسيته وتقلباتها وطباعها وسماتها وتحيزاتها الداخلية وكيفية التعاطي معها بطريقة لا تؤثر سلباً على خطابه الوعظي، ذلك لأن المكونات النفسية الشعورية واللاشعورية تتسرب إلى الخطاب شاء الواعظ أو لم يشأ، مما يعني أنه بحاجة إلى تعهد نفسه واكتشاف بواطنها باستمرار[2].

---

(١) يرى قرابة ٤٥٪ من عينة الدراسة أن الوعاظ يتمثلون ما يدعون إليه وهي نسبة عالية تشير إلى نظرة إيجابية تجاه الوعاظ مما يدعو الوعاظ لاستثماره بطريقة صحيحة.

(٢) للاستزادة يمكن مراجعة كتاب المؤلف بعنوان: **حجاب الرؤية**، الصادر عن مركز نماء، ففيه دراسة عن تأثير النفسية وأنماط الشخصية والبيئة والعادات على الخطاب الفقهي مما يمكن الاستفادة منه في الخطاب الوعظي.

الدراسة الاستطلاعية

- المقدمة.
- منهج الدراسة وأداتها وصدقها وثباتها.
- عينة الدراسة.
- عرض النتائج.
- النتائج والتوصيات.

المقدمة

كان مما يزيد هذه الدراسة قوة ويكشف عن مدى حاجة الخطاب الوعظي إلى دراسة ونقد وتطوير، أن نقوم بدراسة استطلاعية نسبر من خلالها بعض الآراء تجاه الخطاب الوعظي لدى جمهور المستفيدين.

منهج الدراسة وأداتها وصدقها وثباتها:

استخدمت الدراسة المنهج الوصفي[١] وهو: «البحث الذي يتم بواسطة استجواب جميع أفراد مجتمع أفراد البحث أو عينة كبيرة منهم وذلك بهدف وصف الظاهرة المدروسة من حيث طبيعتها ودرجة وجودها»[٢] ولتحقيق أهداف البحث والإجابة عن أسئلته صمم الباحث أداة الدراسة (استبانة) للاطلاع على آراء

---

(١) تعمدنا الاختصار في خطوات وعرض الدراسة الاستطلاعية تخفيفاً على القارئ الكريم خاصة غير المتخصصين في هذا النوع من الدراسات.

(٢) العساف، صالح (١٤٢٧هـ): **المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية**، الرياض، دار العبيكان، ص١٩١.

المفحوصين وتحليلها والاستفادة منها ومن خلال القراءة المكثفة في موضوع الوعظ وما كتبه العلماء قديما وحديثا عنه، وبالاستئناس بالدراسات والبحوث السابقة ذات الاختصاص ومن خلال فريق متخصص في العلوم التربوية قمنا بعصف ذهني وورشة عمل مكثفة لتحديد فقرات الاستبانة المناسبة لقياس وجهة نظر المستفيدين.

ويقصد بالاستبانة «تلك الوسيلة التي تستعمل لجمع بيانات أولية وميدانية حول مشكلة أو ظاهرة معينة»[١] وتعرف الاستبانة على أنها «مجموعة من الأسئلة المكتوبة والتي تعد بقصد الحصول على معلومات أو التعرف على آراء المبحوثين حول ظاهرة أو موقف معين»[٢].

وتعتبر من أكثر أدوات المنهج الوصفي استخدما «ويعتمد المنهج الوصفي على دراسة الواقع أو الظاهرة كما توجد في الواقع، ويهتم بوصفها وصفاً دقيقاً، ويعبر عنها تعبيراً كيفياً من حيث وصف الظاهرة وتوضيح خصائصها أو تعبيراً كمياً من حيث إعطاء وصفٍ رقمي يوضح مقدار هذه الظاهرة أو حجمها ودرجات ارتباطها مع الظواهر الأخرى، والمنهج الوصفي لا يهدف إلى وصف الظواهر أو الواقع كما هو بل الوصول إلى

---

(١) العواملة، نائل (١٩٩٥م): أساليب البحث العلمي: الأسس النظرية وتطبيقاتها في الإدارة، عمان، مركز أحمد ياسين الغني.

(٢) عبيدات، محمد إبراهيم وآخرون (١٩٩٧م): منهجية البحث العلمي القواعد والمراحل، عمان، دار وائل.

استنتاجات وتعميمات تساهم في تطور وفهم الواقع»[1].

وتم حصر موضوع الدراسة في ثلاثة محاور تضمنتها الاستبانة هي:

- **أساليب الخطاب الوعظي.**
- **مضامين الخطاب الوعظي.**
- **صفات الوعاظ وممارساتهم.**

---

(١) عبيدات، ذوقان وآخرون (٢٠٠٠م): **البحث العلمي مفهومه وأدواته وأساليبه**، عمان، دار الفكر.

صدق أداة الدراسة Validity

يشير الصدق إلى ملائمة أو دقة تفسير النتائج ويشير مفهوم الصدق إلى الاستدلالات الخاصة التي نخرج بها من نتائج التحليل الإحصائي من حيث مناسبتها ومعناها وفائدتها، وتحقيق صدق الأداة معناه تجميع الأدلة التي تؤيد مثل هذه الاستدلالات(١) ومنها:

صدق المحكمين:

للتأكد من مناسبة فقرات الاستبانة للغرض الذي صممت من أجله قام الباحث بعرض الاستبانة في صورتها الأولية على عدد من المحكمين في المجال الشرعي وفي العلوم التربوية والنفسية والاختبارات والمقاييس بلغ عددهم (١٢) محكماً، وقد طلب الباحث منهم تحديد مدى وضوح عباراتها ومدى ارتباطها

(١) Reynolds,C.R.(1999): Inferring causality from relational data and desing:Historical unknowns American psychology, 51,77-101.

والتعديلات المقترحة، وبالتالي أصبحت الاستبانة في صورتها النهائية (٥١) عبارة موزعة على النحو التالي:

(جدول ١: عدد العبارات في كل محور ونسبتها في الاستبانة)

استبانة أساليب الوعظ ومضامينه وممارسات الوعاظ		
المحور	عدد العبارات	النسبة المئوية
محور الأساليب	١٤	٢٧,٤٥٪
(محور المضامين)	٢٢	٤٣,١٤٪
(محور صفات الوعاظ وممارساتهم)	١٥	٢٩,٤١٪
المجموع	٥١	١٠٠٪

الصدق الداخلي Internal Validity:

تم التحقق من صدق الاتساق الداخلي لأداة الدراسة وكل محور من محاورها، ومدى ارتباط هذه الفقرات المكونة لكل بعد بعضها مع بعض والتأكد من عدم التداخل بينها بإيجاد معاملات الارتباط (بيرسون)[١] ويوضح الجدول التالي معاملات ارتباط (بيرسون) بين كل محور من محاور الاستبانة والمحاور الأخرى وكذلك بين كل محور على حده والاستبانة ككل:

---

(١) أكثر مقاييس الارتباط ثباتاً وأخطاؤه المعيارية صغيرة، ويطبق لقياس العلاقة بين متغيرين إذا كان كل منهما عبارة عن قيم سيارة. انظر: العساف، صالح (١٤٢٧هـ): **المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية**، الرياض، دار العبيكان، ص١٣٢.

(جدول ٢ : معامل ارتباط بيرسون لمحاور الاستبانة)

معامل ارتباط بيرسون	(محور الأساليب)	(محور المضامين)	(محور صفات الوعاظ)	(جميع المحاور)
(محور الأساليب)	**ارتباط تام**	٨٥٪**	٨٢٪**	٩٢٪**
(محور المضامين)	٨٥٪**	**ارتباط تام**	٨٩٪	٩٧٪**
(محور صفات الوعاظ)	٨٢٪**	٨٩٪**	**ارتباط تام**	٩٥٪**
(جميع المحاور)	٩٢٪**	٩٧٪**	٩٥٪**	**ارتباط تام**
	**** دالة عند مستوى الدلالة ٠,٠١**			

يتضح من الجدول (٢) السابق أن جميع محاور الاستبانة مرتبطة ارتباطاً دالاً إحصائياً مع الاستبانة ككل وكذلك بين كل محور والمحاور الأخرى للاستبانة عند مستوى دلالة (٠,٠١) وأن جميع المحاور ترتبط بالعبارات ارتباطا دالاً مما يجعلها تتمتع بالصدق الداخلي ويحقق للاستبانة الصدق البنائي لعبارات كل محور وتعد بهذا صالحة للقياس.

(جدول ٣: معاملات ارتباط بعض العبارات بالمحاور التي تنتمي إليها[١])

(محور الأساليب)		(محور المضامين)		(محور صفات الوعاظ)	
رقم العبارة	معامل الارتباط	رقم العبارة	معامل الارتباط	رقم العبارة	معامل الارتباط
١	.٦٣**	١	.٧٠**	١	.٧٢**
٢	.٧٣**	٢	.٦١**	٢	.٧٧**
٣	.٦٤**	٣	.٥٠**	٣	.٨٠**
٤	.٧٤**	٤	.٦١**	٤	.٧٩**
٥	.٤١**	٥	.٧٥**	٥	.٤٧**
** دالة عند مستوى الدلالة ٠,٠١					

ثبات أداة الدراسة Reliability:

الثبات هو أن تعطينا الأداة نفس النتائج حينما نقوم بتكرار عملية القياس[٢] ومن أجل الكشف عن ثبات الأداة، وأنها تقيس فعلاً ما وضعت لقياسه، قمنا بحساب معامل الثبات، وذلك بتطبيق الأداة على عينة استطلاعية ممثلة لعينة البحث الأصلية حيث بلغ عددهم (٣١) مفحوصاً وتم حساب معامل «ألفا كرونباخ» Cronbach Alpha، باستخدام حزمة البرامج الإحصائية للعلوم الاجتماعية Statistical Package for Social Science (spps)، حيث بلغت قيمة معامل الثبات الكلي للأداة

---

(١) نظراً لكبر حجم الجدول اكتفينا بعرض خمس عبارات لكل محور من المحاور.

(٢) سيسيل، رينولدز وآخرون (٢٠١٣م): **إتقان القياس النفسي الحديث النظريات والطرق**، ترجمة: صلاح الدين محمود علام، عمان، دار الفكر، ص٧٥.

(٩٥٪) وهي درجة عالية من الثبات، وبهذا أصبحت أداة الدراسة جاهزة للتطبيق في صورتها النهائية، ثم أعيد قياس المعامل مرة أخرى بعد تطبيق الاستبانة على عينة الدراسة وقد كانت نتائجه كالتالي:

(جدول ٤ : معدلات الثبات للعينة التجريبية وللعينة بعد تعميم الاستبانة)

م	المحور	الدرجة القبلية	الدرجة البعدية
١	أساليب الخطاب الوعظي	٧٥٪	٨٧٪
٢	مضامين الخطاب الوعظي	٩٢٪	٩٠٪
٣	صفات وممارسات الوعاظ	٨٨٪	٩١٪
	مجموع المحاور	٩٥٪	٩٦٪

ومن خلال الجدول يتضح أن معامل ثبات الأداة لجميع المحاور بلغ (٩٦٪) وهو معامل مرتفع وكذلك بقية المحاور تعد معاملات ثباتها مرتفعة. تراوحت بين (٧٥٪) و(٩٦٪).

الأساليب الإحصائية:

من الأساليب الإحصائية المستخدمة ما يلي:

- التكرارات والنسب المئوية: لوصف خصائص عينة الدراسة وتحديد استجابات أفرادها تجاه فقرات ومحاور الاستبانة.
- المتوسط الحسابي: لتحديد متوسط كل عبارة من عبارات المحاور.
- معادلة (ألفا كرونباخ): لقياس ثبات الاستبانة.

- معامل ارتباط بيرسون لحساب الارتباط بين العبارات والمحاور التي تنتمي لها هذه العبارات.
- اختبار(ت): لمعرفة الفروق بين متوسطين أو نسبتين وذلك للحصول على مستوى الدلالة.
- تحليل التباين الأحادي (ف): للتعرف على الدلالة الإحصائية للفروق بين إجابات المستجيبين على المحاور والتي ترجع إلى متغير المؤهل الدراسي.
- اختبار (Gabriel) لتحديد الفئة التي يميل إليها التباين والاختلاف بين المجموعات الخمس (ثانوي/ دبلوم/ بكالوريوس/ ماجستير/ دكتوراه) وقد اخترنا هذا الاختبار البعدي دون غيره من الاختبارات البعدية لأنه هو الأنسب في حالة كون المجموعات مختلفة الأحجام[1] كما هو الحال في دراستنا.

---

(١) شراز، محمد صالح (١٤٣٠هـ): **التحليل الإحصائي للبيانات باستخدام برنامج المجموعة الإحصائية للعلوم الاجتماعية (spps)!** مكة المكرمة، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية، ص٧٥.

عينة الدراسة

تم نشر الاستبانة إلكترونياً عبر المواقع المشهورة وشبكات التواصل الاجتماعية بشكل واسع ومتنوع (**الفيس بوك ـ تويتر ـ الواتس آب ـ البلاك بيري ـ المجموعات البريدية**) واستخدم أكثر من طريقة في النشر والتوزيع.

والعينة المستجيبة هنا هي عينة صدفية لم نتعمد أفراد العينة بالاختيار فكل من وصلته الاستبانة فأجاب عليها اعتبر من أفراد العينة[1]، وبلغ عدد المستجيبين: (٢٠١٠) فرداً كلهم من المملكة العربية السعودية.

والسؤال هنا هل يمكن تعميم نتائج هذه الاستبانة على المجتمع السعودي؟

---

(١) لا يخضع الاختيار بالمصادفة لأي تنظيم وإنما يتم اختيار من يتحصل عليه الباحث صدفة أو من يتطوع بالمشاركة، العساف، صالح (١٤٢٧هـ): **المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية**، الرياض، دار العبيكان، ص٩٩.

ونقول إن تعميمها على المجتمع السعودي يتعذر علمياً، ولعل من أهم الأسباب أن الإنترنت لا يغطي جميع مجتمع الدراسة مع أن نسبة المستخدمين للإنترنت في السعودية بلغت حدود عالية، ففي آخر إحصائية لهيئة الاتصالات السعودية لمستخدمي الإنترنت التقرير السنوي لعام ١٤٣٣هـ/ ١٤٣٤هـ ٢٠١٢، بلغ عدد مستخدمي الإنترنت: خمسة عشر مليون وثمانمئة ألف مستخدم[١]، وهو عدد كبير جداً مقارنة بالسنوات السابقة، ومع ارتفاع هذا العدد إلا أننا لا نستطيع التعميم كما سبق، ويمكننا أن نعمم نتائج هذه العينة على مستخدمي الإنترنت في السعودية باعتبار أن العينة المشاركة في الاستفتاء كبيرة وممثلة[٢]، ولكننا نفضل هنا أن تظل النتائج في حدود أفراد العينة لأن طريق اختيار العينة في البحوث الميدانية والاستطلاعية له تأثير في تعميم النتائج، مع أن المشاركين في الاستبانات الإلكترونية غالباً ما تكون مشاركتهم نابعة من إحساس بالمسؤولية وخالية من المجاملات أو الإجابات العشوائية.

---

(١) التقرير السنوي لهيئة الاتصالات السعودية موجود على هذا الرابط (١٢/ ٣/ ١٤٣٥هـ، ٦م).
http://www.citc.gov.sa/Arabic/MediaCenter/Annualreport?Documents?PR REP 008.pdf

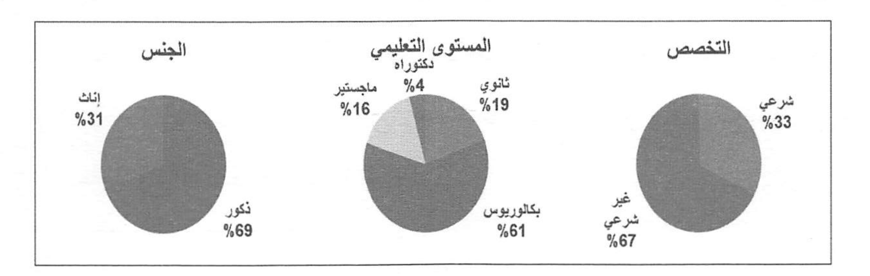
(٢) يستخدم معهد جالوب الأمريكي الشهير لاستطلاعات الرأي عينة تصل إلى ١٥٠٠ ويتم تعميم نتائجها على المجتمع الأمريكي الذي يكاد يتجاوز سكانه ٣٠٠ مليون نسمة، إلا أنهم يستخدمون طرق دقيقة في اختيار العينة لتكون ممثلة فعلاً للمجتمع، يمكنك الاطلاع على ذلك في موقعهم على الرابط:
http://www.gllup.com/poll/File/125927/HowArepolisConductedFINAL.pdf

تفاصيل عينة الدراسة:

بلغ عدد أفراد العينة (٢٠١٠) ذكوراً وإناثاً من تخصصات شرعية وغير شرعية ومن فئات عمرية مختلفة ومستويات تعليمية متنوعة وجاء وصف عينة الدراسة وفقاً لبعض المتغيرات على النحو التالي:

(جدول ٥: يوضح أعداد العينة ونسبهم المئوية من حيث الجنس والتخصص والمستوى التعليمي)

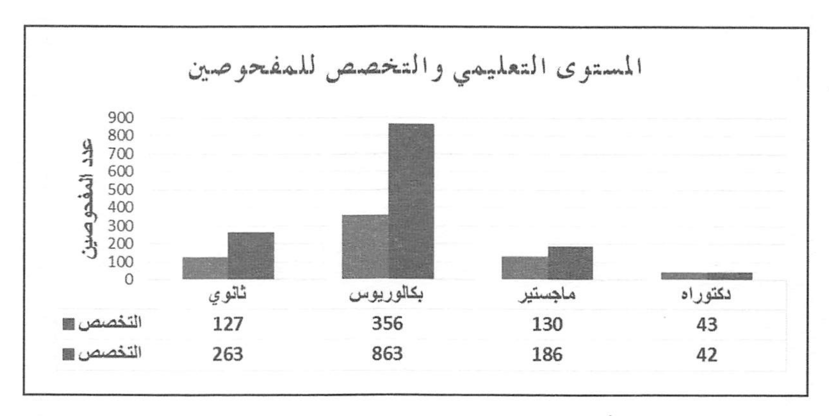
الجنس		التخصص		المستوى التعليمي			
ذكور	إناث	شرعي	غير شرعي	ثانوي	بكالوريوس	ماجستير	دكتوراه
١٣٨٨	٦٢٢	٦٥٦	١٣٥٤	٣٩٠	١٢١٩	٣١٦	٨٥
٪٦٩,٠٥	٪٣٠,٩٥	٪٣٢,٦٤	٪٦٧,٣٦	٪١٩,٤٠	٪٦٠,٦٥	٪١٥,٧٢	٪٤,٢٣
المجموع	٢٠١٠						



رسم توضيحي ١: النسب المئوية لأفراد العينة من حيث التخصص والجنس والمستوى التعليمي.

(جدول ٦ : يوضح أعداد العينة من حيث التخصص والمستوى التعليمي)

المستوى التعليمي	التخصص	
	علوم شرعية	علوم غير شرعية
ثانوي	١٢٧	٢٦٣
بكالوريوس	٣٥٦	٨٦٣
ماجستير	١٣٠	١٨٦
دكتوراه	٤٣	٤٢



رسم توضيحي ٢: أعداد المفحوصين من حيث التخصص والمستوى التعليمي

والجداول والرسوم أعلاه تكشف أن أعداداً متنوعة وبمستويات مختلفة شاركت في الإجابة على الاستبانة وهذا التنوع يزيد من قوة استطلاع الرأي لأنه يكشف مجموعة من الآراء المتباينة حيال موضوع الدراسة.

والجدول رقم (٦) والرسم البياني رقم (٢): يوضحان

أعداد أصحاب الشهادات وتخصصاتهم، ونلاحظ أن لدينا عدداً كبيراً من أصحاب الشهادات العليا، منهم ١٧٣ تخصصهم في الدراسات العليا (ماجستير ودكتوراه) في تخصص العلوم الشرعية، وهو عدد كافٍ لأخذ حكم من متخصصين حول موضوع الدراسة.

عرض النتائج

ولوضع معيار لتفسير الاستجابات تم استخدام الحدود الحقيقية لسلم الإجابات كما هو موضح بالجدول:

(جدول ٧ : مدى كل فئة من فئات الاستجابة)

فئات الاستجابة	من	إلى
دائماً	٥	٤,٥
غالباً	أقل من ٤,٥	٣,٥
أحياناً	أقل من ٣,٥	٢,٥
نادراً	أقل من ٢,٥	١,٥
أبداً ـ لا تستخدم إطلاقاً	أقل من ١,٥	.٥

أولاً: محور الأساليب:

(جدول ٨ : عبارات محور الأساليب مرتبة حسب المتوسط الحسابي الأعلى)

م	محور الأساليب	
١	يكثر الوعاظ من الاستشهاد بالحديث الشريف.	٣,٩٦
٢	يكثر الوعاظ الحديث عن تزكية القلوب	٣,٩١
٣	يكثر الوعاظ من الاستشهاد بالقرآن الكريم.	٣,٩١
٤	يكثر الوعاظ من وعظهم مما يشعر المستمع بالملل	٣,٥٣
٥	يهمل الوعاظ استخدام التشويق	٣,٤٣
٦	يستخدم الوعاظ السجع والعبارات المتكلفة	٣,٣٧
٧	يرفع الوعاظ أصواتهم في كلماتهم بطريقة غير ملائمة	٣,٣٢٩٤
٨	يستخدم الوعاظ مقاطع فديو مخيفة	٣,٣٢٨٩
٩	يستخدم الوعاظ قصصاً تتسم بالمبالغة	٣,٣٢٥٩
١٠	يظهر في أساليب الوعظ تحقير للعصاة	٣,٢٢
١١	تتصف اللوحات الوعظية بروعة التصميم	٣,٠٨
١٢	تتصف الأفلام الوعظية بجودة الإخراج	٢,٩٥
١٣	يختصر الوعاظ خطبة الجمعة اختصاراً غير مخل	٢,٨٥
١٤	تستخدم اللوحات الوعظية صوراً غير مناسبة	٢,٦١

يلاحظ من خلال الجدول أن الاستجابات في محور الأساليب قد وقعت بين متوسطين هما (٣,٩٦٧٢) وَ (٢,٦١٩٤)؛ أي: بين (غالباً وأحياناً) وتأتي العبارات (من ١ إلى ٤) في

المدى (غالباً) وتظهر العبارات الثلاث الأولى مكونة إيجابيات للخطاب الوعظي تظهر غالباً في أساليبه وهي إكثاره من الاستشهاد بالحديث ثم إكثاره من الحديث عن تزكية القلوب ثم الاستشهاد بالقرآن الكريم، ولا شك أن هذه الإيجابيات مهمة جداً في حيوية الخطاب الوعظي وهو في أمس الحاجة إليها.

بيتمنا تأتي العبارة رقم (٤) دالة على سلبية من سلبيات الخطاب الوعظي وتقع في المدى (غالباً) وهي: الإكثار من الوعظ مما يشعر الناس بالملل، وهي سلبية سبق الحديث عن ضررها في مبحث التخول والتحول، وتوافق تماماً ما حذر منه السلف لأنها مخالفة لمنهج النبي ﷺ[١]..

بقية العبارات من (٥) إلى (١٤) تقع في المدى أحياناً وفقاً للجدول رقم: (٧) لمدى الفئات الذي يعتبر معيار الحكم الإحصائي، ومن أهم هذه العبارات العبارة رقم (٦) والتي تشير إلى إكثار الوعظ من السجع والعبارات المتكلفة، وهي سلبية يحتاج الوعظ للتخلص منها واستخدام لغة تناسب فهم الناس واستيعابهم.

والعبارة رقم (١٠) تشير إلى أن عينة الدراسة ترى أن الوعاظ يستخدمون أساليب فيها تحقير للعصاة أحياناً، وهذا الأسلوب يؤدي إلى نفور الناس من الخطاب الوعظي ويزهدهم فيه، وقد يكون سبباً في قنوط الناس ويأسهم.

---

(١) انظر صفحة (١٠٣) من هذا الكتاب.

ثانياً: محور المضامين:

(جدول ٩ : عبارات محور المضامين
مرتبة حسب المتوسط الحسابي الأعلى)

م	محور المضامين	
١	يتجنب الوعظ التشهير بالأشخاص	٤,٠١٢
٢	يكرر الوعاظ موضوعاتهم	٤,٠١٠
٣	يركز الوعظ على هدفه	٣,٩٠
٤	يركز الوعظ على المشكلات الظاهرية	٣,٧٥
٥	يركز الوعظ على الترهيب أكثر من الترغيب	٣,٧٣
٦	يهمل الوعظ المشكلات الجوهرية	٣,٦٠
٧	تسير موضوعات الوعظ في مصلحة السلطة	٣,٥١
٨	يتجنب الوعاظ الحديث في صراعات التيارات الفكرية	٣,٥٠
٩	يتناول الوعظ مشكلات الشباب المعاصرة	٣,٢٨
١٠	تلتزم موضوعات الوعظ باحترام العلم والعقل.	٣,٢٣
١١	يتحدث الوعاظ في موضوعات خارج تخصصهم	٣,١٦
١٢	يدعو الوعظ إلى مثاليات يصعب تطبيقها	٣,١١
١٣	يكثر في موضوعات الوعظ تصوير المرأة بصورة غير موضوعية	٣,٠٢
١٤	تراعي موضوعات الوعظ فئات الناس المختلفة	٢,٨٧
١٥	يواكب الوعظ متغيرات العصر السريعة	٢,٨٤
١٦	يقدم الوعظ حلولا عملية للمشكلات التي يعالجها	٢,٨١
١٧	تكثر موضوعات الوعظ من الخرافة والمبالغات الممقوتة	٢,٧١٦

م	محور المضامين	
١٨	يؤجج الوعاظ الصراعات الطائفية	٢,٧١١
١٩	تتناول موضوعات الوعظ المشكلات الاجتماعية	٢,٥٣
٢٠	تسهم موضوعات الوعظ في تقنيط الناس	٢,٤٨٩
٢١	يستشهد الوعاظ بالأحاديث غير الصحيحة	٢,٤٨٥
٢٢	يعزز الوعظ التواكل عدم الأخذ بالناس	٢,٣٩

يتكون هذا المحور من (٢٢) عبارة، ونلاحظ فيه أن استجابات أفراد العينة قد وقعت بين المدى الفئوي (٤,٠١٢٤) و(٢,٣٩٩٥)؛ أي: بين القيمتين (غالباً ونادراً)، ونلاحظ أن العبارة رقم (١) حصلت على أعلى متوسط حسابي وهي تجنب الوعظ للتشهير بالأشخاص وهي إيجابية جيدة تحسب للخطاب الوعظي، والمجتمع بحاجة لها حتى لا تقوده مثل هذه الممارسات إلى الانشقاق والاضطراب، وهي إيجابية توافق هدي النبي ﷺ كما مر معنا في أول الكتاب[(١)].

يضاف إلى هذه الإيجابية العبارة رقم: (٣) التي ترى أن الوعظ يركز على هدفه في حث الناس على الخير غالباً، ويضاف إليها العبارات رقم: (٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢) التي جاءت في آخر الجدول وتقع في المدى (نادراً)، حيث يرى أفراد العينة أن إسهام الوعظ في تقنيط الناس، والاستشهاد بالأحاديث غير الصحيحة، وتعزيز التواكل تقع نادراً.

---

(١) انظر الكتاب ص١٤٢.

في الجانب السلبي نلاحظ أن أكبر سلبية في المضامين كانت من نصيب العبارة رقم: (٢) حيث يرى أفراد العينة أن الخطاب يكرر موضوعاته مما يشعر الناس بالملل غالباً، وهذا قريب مع ما ورد في الأساليب من إكثار الوعاظ من وعظهم وهما سلبيتان بحاجة للتنبه لها من قبل الوعاظ لأنها مدعاة لنفور الناس، ويعود تكرار الوعاظ لموضوعاتهم إلى أسباب منها:

- تشابه موضوعات الوعظ بطبيعتها إذ تدور في فلك الترغيب والترهيب.
- شيوع ظاهرة نقل الخطباء والوعاظ من بعضهم بعض، خاصة من المشاهير واعتمادهم على مواقع إلكترونية في الخطب مثل موقع المنبر، مما نتج عنه استنساخ للموضوعات، وهذه سلبية أخرى أشار إليها أفراد العينة وستأتي في محور صفات الوعاظ وممارساتهم.
- تكاسل بعض الوعاظ والخطباء عن إعداد موضوعات جديدة وتكرارهم للموضوعات القديمة التي سبق وأن طرقوها.

وفي العبارة رقم: (٤) ورقم: (٦) سلبيتان متقاربتان وهما تركيز الوعظ على المشكلات الظاهرية وإهماله للمشكلات الجوهرية، وترتيبها بهذه الطريقة يدل على أن إجابات العينة كانت دقيقة وغير عشوائية.

بينما نلاحظ أن العبارة رقم: (٥) أشارت إلى تركيز الخطاب الوعظي على الترهيب أكثر من الترغيب وكانت ضمن

المدى (غالباً) كما هو في جدول رقم: (٧) مدى الفئات، وهذه السلبية تتفق مع الملاحظات التي تركها أفراد العينة في خانة المقترحات، وتتنافى مع منهج التوازن بين الترغيب والترهيب الذي جاء الإسلام به.

وفي الجملة فإن عبارات محور المضامين كلها تقع في المدى الفئوي (غالباً) باستثناء العبارات الثلاث الأخيرة فإنها تقع في (نادراً).

ثالثاً: محور صفات الوعاظ وممارساتهم:

(جدول ١٠: عبارات محور صفات الوعاظ وممارساتهم مرتبة حسب المتوسط الحسابي الأعلى)

م	محور صفات الوعاظ وممارساتهم	
١	يختار الوعاظ أماكن متنوعة للوعظ	٣,٧١
٢	يعتمد الوعاظ على الموضوعات المنقولة	٣,٥٨
٣	يتأثر الوعاظ بسلطة المؤسسة التابع لها	٣,٤٥
٤	يمارس الوعاظ وصاية فكرية على المجتمع	٣,٣٩
٥	يفرض الوعاظ آراءهم في المسائل الخلافية	٣,٣٨
٦	يتمثل الوعاظ في سلوكهم ما يدعون إليه	٣,٣٧
٧	يقدم الوعاظ استشارات نفسية وأسرية عامة	٣,٣٣
٨	يفتقد الوعاظ التأصيل الشرعي	٣,٢٧
٩	يتقبل الوعاظ النصح والتوجيه تجاه أخطائهم	٣,١٢
١٠	يمارس الوعاظ الفُتيا الشرعية دون علم.	٢,٩٨

	محور صفات الوعاظ وممارساتهم	م
٢,٩٦	يقلد الوعاظ غيرهم من المشاهير	١١
٢,٨٣	يطور الوعاظ من مهاراتهم	١٢
٢,٨٢	يشارك الوعاظ المجتمع في مشاكله مشاركة عملية تطبيقية	١٣
٢,٤٧	يحاول الوعاظ إلزام الناس بالبقاء والاستماع	١٤
٢,٢٠	يلجأ الوعاظ إلى الكذب من أجل التأثير على الناس	١٥

يحتوي هذا المحور على (١٥) عبارة، وقد جاءت استجابات أفراد العينة واقعة بين المتوسطين (٣,٧١٧٩) و(٢,٢٠٤٥)؛ أي: بين المدى (غالباً) و(نادراً)، ونجد أن جميع العبارات تقع (أحياناً) باستثناء العبارتين (١ و٢) فإنها تقع (غالباً) والعبارتين (١٤ و١٥) تقع نادراً.

ونلاحظ أن العبارة رقم: (١) حصلت على أعلى متوسط حسابي وهي اختيار الوعاظ أماكن متنوعة للوعظ وهي صفة إيجابية تشير إلى أن الوعظ لا يحصر نفسه في ضمن نطاق مكاني واحد، مع أنه يجب أن يراعي الوعظ خصوصية كل مكان، وكما أنها تشير إلى انتشار الوعظ بشكل واسع.

بينما العبارة رقم: (٢) وهي اعتماد الوعاظ على الموضوعات المنقولة من غيرهم تشير إلى سلبية خطيرة وتكمن خطورتها في نواح منها:

- إشعار الناس بالملل لأن الموضوعات المنقولة في الغالب يتكرر سماعها، وهذا أحد أسباب ما سبق أن أشرنا إليه في محور

المضامين حيث أفاد أفراد العينة أن الوعاظ يكررون موضوعاتهم.

- أن الموضوعات المنقولة لا يراعي فيها بعض الوعاظ مناسبة الموضوع للمستمعين، والناس يختلفون في مداركهم وإدراكاتهم لما يلقى عليهم.

في العبارتين: (٥ و٦) نجد أنها جاءت متتالية حيث يرى أفراد العينة أن الوعاظ يمارسون وصاية فكرية على المجتمع ويفرضون آراءهم في المسائل الخلافية وتقع في المدى (أحياناً)، وهي متقاربة في المعنى وتدل على أن أفراد العينة أجابوا بطريقة دقيقة غير عشوائية، كما تشير إلى أن المجتمع بسبب الانفتاح أصبح على وعي بالآراء والخلاف مما يستدعي تنبها من قبل الوعاظ في تجنب الخوض في مسائل الخلاف المعتبر.

الفروق الإحصائية:

هل كان هناك فروق ذات دلالية إحصائية بين فئات عينة الدراسة على مستوى (الجنس/التخصص/المستوى التعليمي)؟

وللإجابة على هذا السؤال استخدمت الدراسة اختبار (ت) (T-Test) لاكتشاف الفروق ذات الدلالة الإحصائية على مستوى الجنس والتخصص، واختبار (ت) هو: «اختبار يطبق عندما يكون الهدف معرفة وقياس الفرق بين متوسطين أو نسبتين أو معاملي ارتباط وذلك للحصول على مستوى الدلالة الإحصائية للفرق»[(١)]

(١) العساف، صالح (١٤٢٧هـ): المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، ص١٤٠.

واستخدمت كذلك اختبار تحليل التباين (Analysis of variance ANOVA) لاكتشاف الفروق على متغير المستوى التعليمي، وهو: اختبار يطبق عندما يكون الهدف تقرير ما إذا كان هناك فرق ذو دلالة إحصائية بين ثلاث متوسطات أو أكثر[1]، ويسمى اختبار (ف)، وكانت النتائج كالتالي:

(جدول ١١ : اختبار (ت) للفروق الإحصائية بين الذكور والإناث)

المحور	الجنس	التكرارات	المتوسط	اختبار (ت)	الدلالة
الأساليب	ذكر	١٣٨٨	٤٣,٧٥	٢,٦٦	٠,٠٠٨
	أنثى	٦٢٢	٤٢,٦١		
المضامين	ذكر	١٣٨٨	٦٧	٤,٩٦	٠,٠٠٠
	أنثى	٦٢٢	٦٣,٧٥		
الممارسات	ذكر	١٣٨٨	٤٦,٢٣	٦,٤٠	٠,٠٠٠
	أنثى	٦٢٢	٤٢,٨٠		
مجموع المحاور	ذكر	١٣٨٨	١٥٦,٩٩	٥,٠٧	٠,٠٠٠
	أنثى	٦٢٢	١٤٩,١٧		

والدلالات الإحصائية تظهر الفروق حين تكون الدالة أقل من (٠,٠٥) لصالح المتوسط الحسابي الأعلى، والذي وضعنا تحته خطاً في الجدول رقم: (١١)، ومن الواضح من خلال الجدول أعلاه وجود فروق ذات دلالة إحصائية في جميع المحاور

---

(١) العساف، صالح (١٤٢٧هـ): **المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية**، ص١٤٦.

وكلها لصالح الذكور لأنهم سجلوا متوسطات حسابية أعلى.

وهذا يعني أن الذكور أكثر اكتشافاً لسلبيات الخطاب الوعظي من الإناث في عينة الدراسة، ويعود السبب في ذلك إلى أمور من أهمها:

- أن الذكور أكثر تعرضاً للخطاب الوعظي من الإناث بسبب حضورهم للخطب والمواعظ في المساجد والمصليات وحضورهم للمحاضرات الوعظية المقامة في المساجد والمؤسسات واحتكاكهم بالوعاظ ومعرفتهم بهم أكثر.
- أن الخطاب الوعظي من سماته التي سبق التعرض لها أنه خطاب وجداني عاطفي مؤثر وهو من هذه الناحية أنسب للمرأة وهي له أكثر تقبلاً من الرجل.
- عدد الوعاظ وإنتاجهم الوعظي من الذكور أكثر بكثير من الوعاظ من صفوف النساء[١].

(١) على مستوى العبارات ظهر فرق ذو دلالة إحصائية عند الدالة (٠٠١.) لصالح الإناث في عبارة تظهر المرأة في الخطاب الوعظي بصورة غير موضوعية، مما يدل على شعور الإناث بهذه السلبية أكثر من الذكور وهو أمر منطقي ومتوقع.

(جدول ١٢ : اختبار (ت) للفروق الإحصائية على مستوى التخصص)

المحور	التخصص	التكرارات	المتوسط	اختبار (ت)	الدلالة
الأساليب	علـــــوم شرعية	٦٥٦	٤٠,٩٩	٨,٦٣	,٠٠٠
	علوم غير شرعية	١٣٥٤	٤٤,٥٧		
المضامين	علـــــوم شرعية	٦٥٦	٦٢,٤٧	٨,٣٤	,٠٠٠
	علوم غير شرعية	١٣٥٤	٦٧,٧٠		
الممارسات	علـــــوم شرعية	٦٥٦	٤٢,٧٤	٦,٨٥٤	,٠٠٠
	علوم غير شرعية	١٣٥٤	٤٦,٣٥		
مجموع المحاور	علـــــوم شرعية	٦٥٦	١٤٦,٢٠	٨,٢٦	,٠٠٠
	علوم غير شرعية	١٣٥٤	١٥٨,٦٢		

من الملاحظ في الجدول رقم: (١٢) وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين المتخصصين في العلوم الشرعية وغير العلوم الشرعية عند الدلالة (٠٠٠.) في جميع المحاور لصالح حملة الشهادات غير الشرعية، ويعود ذلك إلى أسباب منها :

- أن المتخصصين في غير العلوم الشرعية غالباً هم المستهدفون من الخطاب الوعظي ويشعرون أن الخطاب موجه لهم بالدرجة الأولى.
- قد يكون لدى الشرعيين تحسسا من نقد الخطاب الوعظي في الجملة وينظرون إليه بإيجابية أكبر بحكم انتمائه إلى حقلهم التخصصي من جهة وبحكم التخوف عليه من فتح باب الانتقاد والتنقص[١].

(١) على مستوى العبارات في اختبار (ت) ظهر فروق ذات دلالة إحصائية عند الدالة (٠,٠٠٥) لصالح التخصصات الشرعية في العبارة: يستشهد الوعاظ بأحاديث ضعيفة وموضوعة، وهو أمر منطقي لأن الشرعيين هم أعلم من هذه الناحية.

(جدول ١٣ : اختبار (ف) للفروق الإحصائية بين المستويات التعليمية)

المحور	المستوى التعليمي	التكرارات	المتوسط	اختبار (ف)	الدلالة
الأساليب	ثانوي	٢٥٢	٤١,٨٤	٣,٦٣٦	,٠٠٦
	دبلوم	١٣٨	٤٢,١٠		
	بكالوريوس	١٢١٩	٤٣,٦٥		
	ماجستير	٣١٦	٤٣,٩٠		
	دكتوراه	٨٥	٤٤,٧٠		
المضامين	ثانوي	٢٥٢	٦٣,٢٦	٤,٥١٩	,٠٠١
	دبلوم	١٣٨	٦٤,٩٢		
	بكالوريوس	١٢١٩	٦٦,٠٩		
	ماجستير	٣١٦	٦٧,٦٢		
	دكتوراه	٨٥	٦٨,٣٤		
الممارسات	ثانوي	٢٥٢	٤٢,٩٩	٥,٩٣٧	,٠٠٠
	دبلوم	١٣٨	٤٤,١٧		
	بكالوريوس	١٢١٩	٤٥,١٢		
	ماجستير	٣١٦	٤٦,٦٢		
	دكتوراه	٨٥	٤٨,٥١		
مجموع المحاور	دبلوم	٢٥٢	١٥١,٢١	٤,٩٧٩	,٠٠١
	ثانوي	١٣٨	١٤٨,٠٩		
	بكالوريوس	١٢١٩	١٥٤,٨٨		
	ماجستير	٣١٦	١٥٨,١٥		
	دكتوراه	٨٥	١٦١,٥٦		

في الجدول رقم: (١٣) يوضح الفروق ذات الدلالة الإحصائية بين المستويات التعليمية لآخر مؤهل حصل عليه أفراد العينة ونجد هناك فروقاً ذات دلالة إحصائية في جميع المحاور ظهرت في الأساليب عند مستوى الدلالة (٠٠٦.) وفي المضامين عند مستوى الدلالة (٠٠١.) وفي الممارسات عند مستوى الدلالة (٠٠٠.) وفي مجموع المحاور ظهر الفرق عند الدالة (٠٠١.).

ولأننا بحاجة إلى اختبار بعدي نحدد به المجموعة التي كان الفرق لصالحها من المجموعات الخمس (ثانوي/ دبلوم/ بكالوريوس/ ماجستير/ دكتوراه)، وقد اخترنا الاختبار البَعدي (Gabriel)، وسبب اختيار هذا الاختبار البعدي دون غيره من الاختبارات البعدية أنه هو الأنسب في حالة كون المجموعات مختلفة الأحجام[١] كما هو الحال في دراستنا.

وبالجملة فقد كشف الاختبار البَعدي عن وجود فروق ذات دلالة إحصائية في جميع المحاور وكانت دائماً في صالح أصحاب المستوى التعليمي الأعلى، وعلى مستوى جميع المحاور، وما يهمنا هنا أنه كانت هناك فروق بين حملة الشهادة الثانوية من أفراد العينة مقارنة ببقية المجموعات كالتالي:

---

(١) شراز، محمد صالح (١٤٣٠هـ): **التحليل الإحصائي للبيانات باستخدام برنامج المجموعة الإحصائية للعلوم الاجتماعية (spps)!** مكة المكرمة، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية، ص٧٥.

(جدول ١٤ : الفرق بين حملة الشهادة الثانوية مقارنة ببقية المستويات التعليمية)

الثانوي	الدبلوم	البكالوريوس	الماجستير	الدكتوراه
الدلالة	.٩٧٧	.٠١٢	.٠٠٢	.٠٠٧

ومن خلال الجدول (١٤): يتضح أنه لا يوجد فروق ذات دلالة إحصائية بين حملة الشهادات الثانوية وحملة الدبلوم، بينما تظهر الفروق تباعاً بين الثانوي وبقية المستويات التعليمية وذلك لصالح المستويات الأعلى تعليمياً؛ لأنهم الأعلى في قيم المتوسط الحسابي كما هو واضح في الجدول السابق على هذا[١]. ، وهذه نتيجة طبيعية لأن أصحاب الشهادات الأعلى هم الأقدر على ممارسة النقد واكتشاف الأخطاء والإفصاح عنها، وبسبب اقتراب حملة الدبلوم من حملة الشهادة الثانوية لم نجد فروقاً ذات دلالة إحصائية.

(١) تجنبنا ذكر بقية الجداول في اختبار (Gabriel) بين بقية المستويات التعليمية بسبب طولها ولأن نتائجها مقاربة لنتائج مجموع المحاور.

محاور الاستبانة بالنسب المئوية:

أ ـ محور الأساليب:

م	العبارة	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
١	يكرر الوعاظ موضوعاتهم.	٢٧,٧	٤٩,٣	٢٠,٢	٢,١	٠,٧
٢	يكثر الوعاظ من وعظهم مما يشعر المستمع بالملل	١٩	٣٤,٧	٣١,٨	٩,٥	٥
٣	يستخدم الوعاظ السجع والعبارات المتكلفة	١٣,٥	٣٠,٤	٣٨,٩	١٤,٤	٢,٨
٤	يرفع الوعاظ أصواتهم في كلماتهم بطريقة لا تلائم المستمع	١٣,٣	٣١,٩	٣٤,٤	١٥,١	٥,٢
٥	يكثر الوعاظ من الاستشهاد بالقرآن الكريم.	٣١,٥	٣٧,٩	٢٢,٥	٦,٥	١,٦
٦	يكثر الوعاظ من الاستشهاد بالحديث الشريف.	٣١,٥	٤٠,٩	٢١,٥	٤,٨	١,٢
٧	يستخدم الوعاظ قصصا تتسم بالمبالغة	١٩,١	٢٦	٣١,١	١٦,٢	٧,٧
٨	يظهر في أساليب الوعظ تحقير للعصاة والمذنبين	١٩,٩	٢٣,٦	٢٧,٢	١٨,١	١١,٢
٩	يختصر الوعاظ خطبة الجمعة اختصاراً غير مخل.	٤,٣	٢٠,٣	٤١,٢	٢٤,٩	٩,٢
١٠	تستخدم اللوحات الوعظية صوراً غير مناسبة. (مقززة ـ مخيفة ـ تمتهن المخاطب)	٧,١	١٦,٧	٢٩,٨	٢٤,١	٢٢,٤

م	العبارة	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
١١	تتصف اللوحات الوعظية بروعة التصميم.	٨,٦	٢٦,٩	٣٥,٦	٢٢,٢	٦,٨
١٢	تتصف الأفلام الوعظية بجودة الإخراج.	٦,٨	٢١,٩	٣٩,٤	٢٤,٣	٧,٦
١٣	يستخدم الوعاظ مقاطع فديو مخيفة لتحذير الناس من المعاصي	١٥,١	٢٩,٦	٣٣,٩	١٦	٥,٥
١٤	يهمل الوعاظ استخدام التشويق وبراعة الاستهلال	١٣,٣	٣٨,٤	٣١,٢	١٢,٥	٤,٦

ب ـ (محور المضامين):

م	العبارة	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
١٥	يركز الوعظ على الترهيب أكثر من الترغيب	٢٢	٤٤,٦	٢٢,٥	٧,١	٣,٨
١٦	يستشهد الوعاظ بالأحاديث غير الصحيحة.	٣	١١,٥	٣٦,٨	٢٨,٣	٢٠,٣
١٧	يتناول الوعظ مشكلات الشباب المعاصرة	١١,٥	٣٢,٦	٣٢,٥	١٩,٤	٤
١٨	يركز الوعظ على المشكلات الظاهرية (التدخين/ الإسبال/ اللحية)	٢٥,٦	٣٧,٩	٢٥,٣	٨,٨	٢,٤
١٩	يهمل الوعظ المشكلات الجوهرية (العدل/ الأمانة/ الإيمان)	٢٨,١	٣١,٧	٢١	١١,٢	٨
٢٠	تراعي موضوعات الوعظ فئات الناس المختلفة بما يلائمها. (العمر/ الجنس/ المستوى التعليمي)	٦,٢	١٩	٣٧,٣	٣١	٦,٥

م	العبارة	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
٢١	تتناول موضوعات الوعظ المشكلات الاجتماعية (الفقر/ الظلم/ الرشوة)	٤,٦	١٣,٩	٢٨,١	٣٧,٥	١٦
٢٢	تسير موضوعات الوعظ في مصلحة السلطة.	٢٦	٢٩,١	٢٣,٣	١٣,٧	٧,٩
٢٣	يتجنب الوعاظ الحديث في صراعات التيارات الفكرية في المجتمع.	٢١,٢	٣٣,٧	٢٥,٨	١٣,١	٦,٣
٢٤	تلتزم موضوعات الوعظ باحترام العلم والعقل.	١٤,٦	٢٨	٣٠,٦	٢٠,١	٦,٧
٢٥	تكثر موضوعات الوعظ من الخرافة والمبالغات الممقوتة. .	٩,٨	١٨,١	٢٧,١	٢٤,١	٢٠,٩
٢٦	يدعو الوعظ إلى مثاليات يصعب تطبيقها.	١٣,١	٢٦	٣١,٢	١٨,١	١١,٥
٢٧	يقدم الوعظ حلولاً عملية للمشكلات التي يعالجها.	٧,١	١٨,٣	٣٢,٨	٣٢,٨	٩,١
٢٨	يكثر الوعاظ من الحديث عن تزكية القلوب (حب الله/ تعظيمه/ التوكل عليه/ خشيته. . . إلخ)	٣١,٩	٣٧,٥	٢١,٤	٨,٥	٠,٧
٢٩	يواكب الوعظ متغيرات العصر السريعة.	٧,٩	١٨,٧	٣٣,٧	٢٩,٧	١٠
٣٠	يتحدث الوعاظ في موضوعات خارج تخصصهم وإدراكهم المعرفي	١٢,١	٢٥,٦	٣٦,٩	١٧,٧	٧,٨

م	العبارة	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
٣١	يكثر في موضوعات الوعظ تصوير المرأة بصورة غير موضوعية	١٨,٩	٢٠,٤	٢٤,٤	١٧,٣	١٩
٣٢	يتجنب الوعاظ التشهير بالأشخاص.	٣٩,١	٣٤,٤	١٧,٨	٦,١	٢,٦
٣٣	يؤجج الوعاظ الصراعات الطائفية.	١٤,٨	١٥,٩	٢٠,٣	٢٣,٥	٢٥,٤
٣٤	يركز الوعظ على تحقيق هدفه الرئيسي (نشر الخير بين الناس)	٣٥,٧	٣٢,٨	٢٠,٧	٨,٥	٢,٤
٣٥	يعزز الوعظ التواكل (عدم الأخذ بالأسباب).	٦,١	١١,٥	٢٨,٣	٢٤,٧	٢٩,٥
٣٦	تسهم موضوعات الوعظ في تقنيط الناس.	٥,١	١٤,١	٣١,٥	٢٣,٣	٢٦

ج - (محور صفات الوعاظ وممارساتهم)

م	العبارة	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
٣٧	يفتقد الوعاظ التأصيل الشرعي الذي يؤهلهم للوعظ	١٠,٢	٣٢,٢	٣٨,٣	١٣,٥	٥,٨
٣٨	يمارس الوعاظ الفُتيا الشرعية دون علم.	٨,٥	٢٤,٢	٣٤,٥	٢٢,٦	١٠,٢
٣٩	يمارس الوعاظ وصاية فكرية على المجتمع.	٢٥,٧	٢٤,٩	٢٣,٢	١٥,١	١١,١
٤٠	يفرض الوعاظ آراءهم في المسائل الخلافية.	٢٣,٨	٢٦,٦	٢٢,٩	١٧,٥	٩,٣
٤١	يتمثل الوعاظ في سلوكهم ما يدعون إليه في وعظهم.	٩,٧	٣٧,٥	٣٦,٦	١٣,٦	٢,٧

م	العبارة	دائماً	غالباً	أحياناً	نادراً	أبداً
٤٢	يطور الوعاظ من مهاراتهم.	٦,٩	١٧,٢	٣٤,٦	٣٤,٦	٦,٦
٤٣	يشارك الوعاظ المجتمع في مشاكله مشاركة عملية تطبيقية	٧,٥	١٨,٩	٣٢,٩	٣٠,٥	١٠,٢
٤٤	يعتمد الوعاظ على الموضوعات الوعظية المنقولة من غيرهم	١٥	٤٢,٨	٣١	٨,٥	٢,٧
٤٥	يقلد الوعاظ غيرهم من المشاهير (الصوت والأداء) بطريقة غير ملائمة.	٩,١	٢٢,٧	٣٥,٣	٢١,٥	١١,٤
٤٦	يحاول الوعاظ إلزام الناس بالبقاء والاستماع لهم بطرق غير ملائمة.	٥,٤	١٤,٣	٢٦,٧	٢٩,١	٢٤,٥
٤٧	يختار الوعاظ أماكن متنوعة للوعظ.	٢٨,٣	٣٢,٢	٢٤,٥	١٣,١	١,٩
٤٨	يتقبل الوعاظ النصح والتوجيه تجاه أخطائهم في الوعظ.	٩,٦	٢٧,١	٣٦,٢	٢٠	٧,١
٤٩	يقدم الوعاظ استشارات نفسية وأسرية عامة تفتقر إلى التخصص العلمي الدقيق.	١٥,٢	٢٩,٧	٣٣,٧	١٦	٥,٤
٥٠	يلجأ الوعاظ إلى الكذب من أجل التأثير على الناس.	٥,٧	٩,١	٢٢,٤	٢٥,٧	٣٧,١
٥١	يتأثر الوعاظ بسلطة المؤسسة التي يتبعون لها.	٢٢,٩	٣١,١	٢٣,٥	١٣,٨	٨,٧

النتائج

- حاجة الخطاب الوعظي إلى مزيد من العناية والاهتمام في التدريب والتكوين وفق الاحتياجات التدريبية التي كشفت عنها الدراسة.

- أظهرت الدراسة إيجابيات كثيرة يتمتع بها الخطاب الوعظي من أبرزها:

- ابتعاده عن التشهير.

- التركيز على هدف حث الناس على الخير.

- الإكثار في وعظه من الاستشهاد بآيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ.

- تمتع الوعاظ بنظرة إيجابية من أفراد العينة تجاه ممارستهم لما يعظون الناس به.

- أظهرت الدراسة بعض السلبيات في الجانب التأصيلي من أهمها:

- حديث الوعاظ في ما لا يحسنونه من العلم والفتيا وتقديم الاستشارات المتخصصة.
- التركيز على جانب الترهيب على حساب الترغيب.
- فرضه لرأيه في المسائل الخلافية التي تحتاج إلى علمٍ شرعي كاف.
- الدعوة إلى مثاليات يصعب تطبيقها.

ـ أظهرت الدراسة بعض السلبيات في الجانب المهاري من أهمها:

- تكرار الوعاظ للموضوعات الوعظية.
- التركيز على المشكلات الظاهرية وإغفال الجوهرية.
- نقل الوعاظ لموضوعاتهم من بعض.
- الإكثار من الوعظ والتطويل.
- إهمال براعة الاستهلال والتشويق واستخدام السجع والعبارات المتكلفة.

ـ أظهرت الدراسة فروقاً ذات دلالة إحصائية[١] بين فئات الدراسة على النحو التالي:

- هناك فروق ذات دلالة إحصائية في متغير الجنس لصالح الذكور.

---

(١) تعني الفروق ذات الدلالة الإحصائية أن بين الفئات المقارنة فرقاً واضحاً في الاستجابة للمحور وأن إحدى هذه الفئات كانت أكثر نقداً من الأخرى للخطاب الوعظي.

- هناك فروق ذات دلالة إحصائية في متغير التخصص لصالح غير المتخصصين في العلوم الشرعية.
- هناك فروق ذات دلالة إحصائية في متغير المستوى التعليمي لصالح أصحاب الشهادات العليا (ماجستير/ دكتوراه).

التوصيات

بناء على ما تقدم من دراسة نظرية واستطلاعية يوصي البحث بما يلي:

- تكوين الوعاظ في دورات تدريبية متخصصة.
- إعداد حقائب تدريبية في الجانب التأصيلي والجانب المهاري بناء على الاحتياجات التي ظهرت من خلال الاستطلاع تحت أيدي خبراء متخصصين.
- إلحاق الوعاظ بدورات أو لقاءات تنشيطية عن كيفية استخدام الإنترنت والشبكات الاجتماعية في الوعظ.
- ضرورة قيام المؤسسات التعليمية والتأهيلية والدعوية بواجبها الشرعي والاجتماعي في ترشيد الخطاب الوعظي.

(جدول بأسماء محكمي الاستبانة)

م	الاسم	التخصص
١	د. سلمان بن فهد العودة	شريعة
٢	د. محمد عبد الرحمٰن العريفي	عقيدة
٣	د. ناصر بن يحيى الحنيني	عقيدة
٤	أ. د. ربيع سعيد طه	إحصاء وبحث علمي
٥	د. حاتم بن عارف العوني	علم الحديث
٦	د. فهد عبد العزيز السنيدي	عقيدة
٧	د. هشام محمد مخيمر	إرشاد نفسي
٨	د. عبد العزيز سعود عرب	شريعة
٩	د. حسن عبد الله الرزقي	تربية إسلامية ومقارن
١٠	د. محمد بن عبد الله الحصيني	أصول تربية
١١	د. عبد الله محمد بارشيد	تربية إسلامية ومقارنة
١٢	د. فهد محمد الحارثي	أصول تربية

ثبت المراجع

أولاً: الكتب:

١ ـ إبراهيم، مجدي عزيز: (١٤٢٤هـ): **موسوعة التدريس**، عمان، دار المسيرة.

٢ ـ ابن الأثير، محمد أبو السعادات (١٣٩٩هـ): **النهاية في غريب الأثر**، بيروت، المكتبة العلمية.

٣ ـ ابن الأثير، محمد بن محمد (١٩٩٥م): **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، بيروت، المكتبة العصرية.

٤ ـ ابن الأخوة، محمد بن محمد (د.ت): **معالم القربة في أحكام الحسبة**، كمبردج، دار الفنون.

٥ ـ ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤٠٩هـ): **كتاب القصاص والمذكرين**، بيروت، المكتب الإسلامي.

٦ ـ ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (١٤١١هـ): **صيد الخاطر**، بيروت، دار القلم.

٧ ـ ابن الجوزي، عبد الرحمٰن بن علي (د.ت): **الموضوعات**، بيروت، دار الكتب العلمية.

٨ ـ ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (١٤٠٨هـ): **الفتاوى الكبرى**، بيروت، دار الكتب العلمية.

٩ ـ ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (١٤٢٥هـ): **مجموع الفتاوى**، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

١٠ ـ ابن حجر، أحمد بن علي (١٣٧٩هـ): **فتح الباري** ، بيروت، دار المعرفة.

١١ ـ ابن رجب، عبد الرحمٰن بن أحمد (١٤٠٨هـ): **جامع العلوم والحكم**، بيروت، دار المعرفة.

١٢ ـ ابن رجب، عبد الرحمٰن بن أحمد (١٤٢٢هـ): **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، الدمام، دار ابن الجوزي.

١٣ ـ ابن سعد، محمد البصري (١٩٦٨م): **الطبقات الكبرى**، بيروت، دار صادر.

١٤ ـ ابن سعدي، عبد الرحمٰن بن ناصر (١٤٠٢هـ): **الفتاوى السعدية**، الرياض، دار المعارف.

١٥ ـ ابن سينا، الحسين بن عبد الله (١٩٨٨م): **الأضحوية**، بيروت، دار المعارف.

١٦ ـ ابن صفية، سليمان العربي (١٤٣١هـ): **منهج السلف في الوعظ**، الرياض، دار المنهاج.

١٧ ـ ابن عاشور، محمد الطاهر (١٤٢٠هـ): **التحرير والتنوير**، بيروت، مؤسسة التاج العربي.

١٨ ـ ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله (١٤٢٤هـ): **جامع بيان العلم وفضله**، بيروت، مؤسسة الريان.

١٩ ـ ابن فارس، أبو الحسين أحمد (١٣٩٩هـ): **مقاييس اللغة**، بيروت، دار الفكر.

٢٠ ـ ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (١٣٩٣هـ): **تأويل مختلف الحديث**، بيروت، دار الجيل.

٢١ ـ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (١٤١٢هـ): **زاد المعاد في هدي خير العباد**، بيروت، مؤسسة الرسالة

٢٢ ـ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (١٤١٨هـ): **مفتاح دار السعادة**، بيروت، دار الكتب العلمية.

٢٣ ـ ابن قيم، محمد بن أبي بكر (١٣٩٣هـ): **مدارج السالكين**، بيروت، دار الكتاب العربي.

٢٤ ـ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (١٩٧٣م): **أعلام الموقعين**، بروت، دار الجيل.

٢٥ ـ ابن كثير، إسماعيل بن عمر (١٤٢٠هـ): **تفسير القرآن العظيم**، الرياض، دار طيبة.

٢٦ ـ ابن مفلح، عبد الله بن محمد (١٤١٩هـ): **الآداب الشرعية**، بيروت مؤسسة الرسالة.

٢٧ ـ ابن منظور، محمد بن مكرم (١٤١٠هـ): **لسان العرب**، بيروت، دار صادر.

٢٨ ـ أبو خيثمة، زهير بن حرب (١٤٠٣هـ): **كتاب العلم**، بيروت، المكتب الإسلامي.

٢٩ ـ أبو داود، سليمان بن الأشعث (د.ت): **سنن أبي داود**، بيروت، دار الكتاب العربي.

٣٠ ـ أبو شهبة، محمد بن محمد (د.ت): **الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير**، القاهرة، مكتبة السُّنَّة.

٣١ ـ أبو نعيم، أحمد بن عبد الله (١٤٠٥هـ): **حلية الأولياء**، بيروت، دار الكتاب العربي.

٣٢ ـ أبو هاشم، السيد محمد (٢٠٠٤م): **سيكولوجية المهارات**، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق.

٣٣ ـ أحمد بن حنبل (د.ت): **مسند الإمام أحمد**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، القاهرة، مؤسسة قرطبة.

٣٤ ـ الألباني، محمد ناصر الدين (١٤١٢هـ): **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة**، الرياض، دار المعارف.

٣٥ ـ الأنصاري، فريد (١٤٢١هـ): **البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي**، القاهرة، دار السلام.

٣٦ ـ أوستن، جون لانجشو (١٩٩١م): **نظرية أفعال الكلام العامة**، ترجمة: عبد القادر قنيني، الدار البيضاء، دار إفريقيا الشرق.

٣٧ ـ الباحسين، يعقوب (١٤٠٨هـ): **أصول الفقه الحد والموضوع والغاية**، الرياض، مكتبة الرشد.

٣٨ ـ البخاري، محمد ابن إسماعيل (١٤٠٩هـ): **الأدب المفرد**، بيروت، دار البشائر الإسلامية.

٣٩ ـ البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٠٧هـ): **الجامع الصحيح**، القاهرة، دار الشعب.

٤٠ ـ البخاري، محمد بن إسماعيل (٢٠٠٩م): **التاريخ الكبير**، بيروت، دار الكتب العلمية.

٤١ ـ البغدادي، أحمد بن علي (١٤٠٦هـ): **تاريخ بغداد**، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٢ ـ البغدادي، أحمد بن علي (١٤١٧هـ): **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، بيروت، مؤسسة الرسالة.

٤٣ ـ البلخي، عبد الله بن أحمد (٢٠٠٠م): **قبول الأخبار ومعرفة الرجال**، بيروت، دار الكتب العلمية.

٤٤ ـ بلقزيز، عبد الإله (٢٠٠٠م): **نهاية الداعية**، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

٤٥ ـ بن عاشور، محمد الطاهر (١٤٢٨هـ): **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تونس، دار سحنون.

٤٦ ـ بوحوش، رابح (٢٠٠٦م): **الأسلوبيات وليل اطاب**، الجزائر، مختبر جامعة عنابة.

٤٧ ـ بولنوار، سعد (٢٠١١م): **آليات تحليل الخطاب في تفسير أضواء البيان**، رسالة دكتوراه في قسم اللغة والأدب، جامعة قاصدي مرباح، الجزائر.

٤٨ ـ البيهقي، أحمد بن الحسين (١٤٠٨هـ): **دلائل النبوة**، بيروت، دار الكتب العلمية.

٤٩ ـ البيهقي، أحمد بن الحسين (١٤٢٣هـ): **شعب الإيمان**، الرياض، مكتبة الرشد.

٥٠ ـ الترمذي، محمد بن عيسى (د.ت): **الجامع الصحيح**، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٥١ ـ ج.ب براون، ج يول (١٩٩٧م): **تحليل الخطاب**، ترجمة: محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، الرياض، جامعة الملك سعود.

٥٢ ـ الجاحظ، عمرو بن بحر (١٤١٦هـ): **الحيوان**، بيروت، دار الجيل.

٥٣ ـ جدعان، فهمي (١٩٨٨م): **أسس التقدم عند مفكري الإسلام**، القاهرة، دار الشروق.

٥٤ ـ الجديع، عبد الله يوسف (١٤٢٤هـ): **تحرير علوم الحديث**، بيروت، مؤسسة الريان.

٥٥ ـ الجرجاني، علي بن محمد (١٤٠٥هـ): **التعريفات**، بيروت، دار الكتاب العربي.

٥٦ ـ الحجازي، عصام حسن (١٤٠٢هـ): **التربية بالموعظة الحسنة**، رسالة ماجستير غير منشورة بجامعة أم القرى.

٥٧ ـ حجازي، مصطفى (٢٠٠٧م): **التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكيلوجية الإنسان المقهور**، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

٥٨ ـ حمدان، محمد زيدان (٢٠٠٩م): **الدماغ والذكاء والإدراك والتعلم دراسة فسيولوجية**، عمان، دار التربية الحديثة.

٥٩ ـ الخراط، إدوارد سعيد (٢٠٠٦م): **المثقف والسلطة**، ترجمة محمد عناني، القاهرة، دار رؤية.

٦٠ ـ خطابي، محمد (٢٠٠٦م): **لسانيات النص**، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

٦١ ـ الخطابي: أحمد بن محمد (١٤٠٢هـ): **غريب الحديث**، تحقيق: عبد الكريم الغرباوي، مكة المكرمة، جامعة أم القرى.

٦٢ ـ الخطابي، أحمد بن محمد (١٣٥١هـ): **معالم السنن**، حلب، المطبعة العلمية.

٦٣ ـ دراز، محمد عبد الله (١٤١٢هـ): **النبأ العظيم**، الدوحة، دار الثقافة.

٦٤ ـ الديري، علي (٢٠٠٧م): **مجازات بها نرى**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٦٥ ـ الذهبي، محمد بن أحمد (١٤٠٢هـ): **سير أعلام النبلاء**، بيروت، مؤسسة الرسالة.

٦٦ ـ الرازي، محمد بن عمر (١٤١٨هـ): **المحصول**، بيروت، مؤسسة الرسالة.
٦٧ ـ الرازي، محمد بن عمر (١٤٢٨هـ): **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، بيروت، دار الكتب العلمية.
٦٨ ـ رضا، محمد رشيد (١٩٩٠م): **تفسير المنار**، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب.
٦٩ ـ الزرقاني، محمد عبد العظيم (د.ت): **مناهل العرفان في علوم القرآن**، حلب، مطبعة عيسى البابي.
٧٠ ـ الزركشي، محمد بن عبد الله (د.ت): **البرهان في علوم القرآن**، حلب، دار إحياء الكتب العربية.
٧١ ـ الزمخشري، محمود بن عمر (١٤١٢هـ): **ربيع الأبرار**، بيروت، مؤسسة الأعلمي.
٧٢ ـ الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف**، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
٧٣ ـ الزيات، أحمد حسن (١٩٤٥م): **دفاع عن البلاغة**، القاهرة، مطبعة النهضة.
٧٤ ـ سانو، قطب مصطفى (١٤٢٧هـ): **لا إنكار في مسائل الاجتهاد**، بيروت، دار ابن حزم.
٧٥ ـ السفاريني، محمد بن أحمد (١٤٢٣هـ): **غذاء الألباب**، بيروت، دار الكتب العلمية.
٧٦ ـ سيد قطب (د.ت): **في ظلال القرآن**، القاهرة، دار الشروق.
٧٧ ـ سيسيل، رينولدز وآخرون (٢٠١٣م): **إتقان القياس النفسي الحديث النظريات والطرق**، ترجمة: صلاح الدين محمود علام، عمان، دار الفكر.
٧٨ ـ السيوطي، عبد الرحمٰن بن أبي بكر (١٣٩٤هـ): **تحذير الخواص من أكاذيب القصاص**، بيروت، المكتب الإسلامي.
٧٩ ـ السيوطي، عبد الرحمٰن بن الكمال وآخرون (٢٠٠٧م)، **شرح سنن ابن ماجه**، بيروت، بيت الأفكار الدولية.

٨٠ ـ الشاطبي، إبراهيم بن موسى (١٤١٧هـ): **الموافقات**، القاهرة، دار ابن عفان.

٨١ ـ شراز، محمد صالح (١٤٣٠هـ): **التحليل الإحصائي للبيانات باستخدام برنامج المجموعة الإحصائية للعلوم الاجتماعية (spps)**، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية.

٨٢ ـ الشريف، حاتم العوني (٢٠٠٨م): **اختلاف المفتين**، الرياض، دار الصميعي.

٨٣ ـ الشعراني، عبد الوهاب (١٧٨٤م): الأنوار القدسية، بغداد، دار إحياء التراث العربي.

٨٤ ـ شمس والعمران، محمد عزيز وعلي محمد (١٤٢٠هـ): **الجامع لسيرة شيخ الإسلام**، الرياض، دار عالم الفوائد.

٨٥ ـ الشنقيطي، محمد الأمين (١٤١٥هـ): **أضواء البيان**، بيروت، دار الفكر.

٨٦ ـ الشوكاني، محمد بن علي (١٤١٥هـ): **فتح القدير**، بيروت، دار الكتب العلمية.

٨٧ ـ الشوكاني، محمد بن علي (١٤٢٦هـ): **نيل الأوطار**، القاهرة، دار الحديث.

٨٨ ـ صالح، أحمد زكي (١٩٩٢م): **علم النفس التربوي**، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

٨٩ ـ الصويان، أحمد عبد الرحمٰن (١٤٢٤هـ): **الافتقار إلى الله لب العبودية**، كتاب مجلة البيان، لندن، المنتدى الإسلامي.

٩٠ ـ الطبراني، سليمان بن أحمد (١٤١٥هـ): **المعجم الكبير**، القاهرة، مكتبة ابن تيمية.

٩١ ـ الطبري، محمد بن جرير (د.ت): **تهذيب الآثار**، القاهرة، مطبعة المدني.

٩٢ ـ الطيبي، حسين بن محمد (١٤١٧هـ): **شرح الطيبي على مشكاة المصابيح**، باكستان، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية

٩٣ ـ الظاهري، عبد الرحمٰن بن عقيل (١٤١٤هـ): **العقل الأدبي**، بريدة، مطبوعات نادي القصيم الأدبي.

٩٤ ـ عامر، سعيد يس (١٩٩٧م): **الإدارة بالأهداف**، القاهرة، مركز التميز لعلوم الإدارة والحاسب الآلي.
٩٥ ـ عبد الصمد، محمد كامل (١٩٩٣م): **الإعجاز العلمي في الإسلام**، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.
٩٦ ـ عبيدات، ذوقان وآخرون (٢٠٠٠م): **البحث العلمي مفهومه وأدواته وأساليبه**، عمان، دار الفكر.
٩٧ ـ عبيدات، ذوقان وآخرون (١٩٩٧): **منهجية البحث العلمي القواعد والمراحل**، عمان، دار وائل.
٩٨ ـ العتيق، عبد العزيز (د.ت): **علم المعاني البيان البديع**، بيروت، دار النهضة العربية.
٩٩ ـ العجمي، فالح شبيب (٢٠٠٣م): **اللغة والسحر**، الرياض، د.ن.
١٠٠ ـ العز بن عبد السلام (د.ت): **قواعد الأحكام**، بيروت، دار المعارف.
١٠١ ـ العساف، صالح (١٤٢٧هـ): **المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية**، الرياض، دار العبيكان.
١٠٢ ـ العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (١٤٠٩هـ): **كتاب الصناعتين**، بيروت، دار الكتب العلمية.
١٠٣ ـ العظيم آبادي، محمد شمس الحق (د.ت): **عون المعبود**، المدينة المنورة، المكتبة السلفية.
١٠٤ ـ العواملة، نائل (١٩٩٥م): **أساليب البحث العلمي: الأسس النظرية وتطبيقاتها في الإدارة**، عمان، مركز أحمد ياسين الغني.
١٠٥ ـ العيني، بدر الدين محمود (١٤٢١هـ): **عمدة القاري**، بيروت دار الكتب العلمية.
١٠٦ ـ الغذامي، عبد الله (١٩٩٧م): **الخطيئة والتكفير**، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب.
١٠٧ ـ الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (د.ت): **إحياء علوم الدين**، بيروت، دار المعرفة.
١٠٨ ـ الغزالي، محمد (٢٠٠٣م): **كيف نفهم الإسلام؟**، القاهرة، نهضة مصر.

١٠٩ ـ غليون، برهان (١٩٨٦م): **مجتمع النخبة**، بيروت، معهد الإنماء العربي.
١١٠ ـ الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد (١٩٩١م): **كتاب الحروف**، بيروت، دار المشرق.
١١١ ـ الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد (١٩٩٨م): **تحصيل السعادة**، بيروت، دار الهلال.
١١٢ ـ فضل، صلاح (١٤١٩هـ): **نظرية البنائية في النقد الأدبي**، القاهرة، دار الشروق.
١١٣ ـ فضل، صلاح (١٩٩٦م): **بلاغة الخطاب وعلم النص**، القاهرة، الشركة المصرية العالمية.
١١٤ ـ الفيومي، أحمد بن محمد (١٩٨٧م): **المصباح المنير**، بيروت، مكتبة لبنان.
١١٥ ـ القرافي، أحمد بن إدريس (١٤١٨هـ): **الفروق**، بيروت، دار الكتب العلمية.
١١٦ ـ القرضاوي، يوسف (٢٠٠١م): **كيف نتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف**، القاهرة، دار وهبة.
١١٧ ـ القزويني، محمد بن عبد الرحمٰن (١٤١٤هـ): **الإيضاح في علوم البلاغة**، بتحقيق وشرح: محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت، دار الجيل.
١١٨ ـ الكفوي، أيوب بن موسى (١٤١٩هـ): **الكليات**، بيروت، مؤسسة الرسالة.
١١٩ ـ اللقاني، أحمد، والجمل، علي (١٤١٩هـ): **معجم المصطلحات التربوية المعرفة في المناهج وطرق التدريس**، القاهرة، عالم الكتب.
١٢٠ ـ لوبون، غوستاف (١٩٩١م): **سكيولوجية الجماهير**، بيروت، دار الساقي.
١٢١ ـ ليلينفيلد، سكوت وآخرون (٢٠١٣م): **أشهر ٥٠ خرافة في علم النفس**، ترجمة: محمد رمضان وآخرون، القاهرة، كلمات عربية.
١٢٢ ـ المجيدي، عبد السلام مقبل (١٤٢٤هـ): **لا إنكار في مسائل الخلاف**، سلسلة كتاب الأمة، العدد (٩٤)، الدوحة، وزارة الشؤون الإسلامية.

١٢٣ ـ محمد قطب (١٤٢٧هـ): **مكانة التربية في العمل الإسلامي**، القاهرة، دار الشروق.
١٢٤ ـ المسدي، عبد السلام (١٩٩٩م): **الأسلوب والأسلوبية**، بيروت، الدار العربية للكتاب.
١٢٥ ـ مسلم بن الحجاج (د.ت): **صحيح مسلم**، بيروت، دار الجيل، ٣/ ١١، حديث رقم (٢٠٤٢).
١٢٦ ـ مصطفى، معتصم بابكر: **أساليب الإقناع في القرآن الكريم**، سلسلة كتاب الأمة، عدد رقم (٩٥) الدوحة، وزارة الشؤون الإسلامية.
١٢٧ ـ المطرفي، ياسر بن ماطر (٢٠١٣م): **حركة التصحيح الفقهي حفريات تأويلية في تجربة ابن تيمية مع فتوى الطلاق**، بيروت، مركز نماء.
١٢٨ ـ المناوي، محمد بن علي (١٤١٥هـ): **فيض القدير**، بيروت، دار الكتب العلمية.
١٢٩ ـ المناوي، محمد عبد الرؤوف (١٤١٠هـ): **التوقيف على مهمات التعاريف**، بيروت، دار الفكر.
١٣٠ ـ المنصور، محمد (٢٠١٢م): **تأثير شبكات التواصل الإجتماعي على جمهور المتلقين**، الدنمارك، رسالة ماجستير في الإعلام والاتصال مقدمة إلى الأكاديمية العربية.
١٣١ ـ المورعي، أحمد (١٤١٤هـ): **الحكمة والموعظة الحسنة وأثرهما في الدعوة إلى الله**، رسالة علمية غير منشورة بجامعة أم القرى.
١٣٢ ـ مومن، أحمد (٢٠٠٧): **اللسانيات النشأة والتطور**، ازائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
١٣٣ ـ ميلز، سارة (٢٠٠٤م): **الخطاب**، ترجمة يوسف بغول، جامعة متنوري قسنطينة، منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات.
١٣٤ ـ النسفي، عبد الله بن أحمد (١٤١١هـ): **تفسير النسفي**، بيروت، دار الكتاب العربي، ٢/٢٧٦.
١٣٥ ـ النووي، يحيى بن شرف (١٣٩٢هـ): **شرح صحيح مسلم**، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
١٣٦ ـ النووي، يحيى بن شرف (١٤٠٩هـ): **الأذكار**، بيروت، دار البشائر الإسلامية.

١٣٧ ـ الهيثمي، علي بن أبي بكر (١٤١٢هـ): **مجمع الزوائد**، بيروت، دار الفكر.

١٣٨ ـ الوردي، علي (د.ت): **وعاظ السلاطين**، لندن، دار كوفان.

١٣٩ ـ يقطين، سعيد (٢٠٠٥): **تحليل الخطاب الروائي**، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

ثانياً: الصحف والمجلات:

١٤٠ ـ السريحي، سعيد (٢٠٠٢م): شهرزاد تقتل مرّتين: لذّة القصّ ومغريات السرد مقال منشور في **جريدة الحياة** ٢٩/ ١/ ٢٠٠٢م.

١٤١ ـ السيف، عمر عبد العزيز (١٤٣٢هـ): الخطاب الوعظي في المناهج الدراسية السعودية، دراسة منشورة بمجلة **المعرفة**، الرياض، وزارة التربية والتعليم بالسعودية.

١٤٢ ـ الشريف، حاتم الغوني (٢٠١٢م): خطورة الخطاب الوعظي غير المرشد على الدين، مقال منشور في **صحيفة المدينة، ملحق الرسالة**، الجمعة ٠٧/ ١٢/ ٢٠١٢م.

١٤٣ ـ القويفلي، إيمان (٢٠١٠م): النكتة في الخطاب الواعظي، مقال منشور في **صحيفة الوطن**، السعودية، بتاريخ: ٢٠/ ٥/ ٢٠١٠م.

١٤٤ ـ مشهور، حسن (٢٠١٣م): الخطاب الوعظي وأهمية المراجعة المرحلية، مقال منشور في **صحيفة الشرق** العدد رقم (٥١٢) صفحة (١٦) بتاريخ ٢٩/ ٠٤/ ٢٠١٣م.

ثالثاً: المواقع الإلكترونية:

- http://www.almoslim.net/node/83990
- http://www.youtube.com/watch?v = gSfO4ue2sVg
- http://fatwa.islamweb.net/fatwa/index.php?page = showfatwa&Option = -Fatwald&Id = 136749
- http://www.amoslim.net/node/93990
- http://islamselect.net/mat/63824
- http://aljsad.com/forum85/thread22459/
- http://almoslim.net/node/83990
- http://main.islammessage.com/newspage.aspx?id = 2579